مدٌّ وجَزْر

«حكاية من حكايات بحار الجنوب»

روبرت لويس ستيفنسون



ترجمة:
زينب بني سعد

الطبعة الأولى

نوفا


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة



مد وجزر

حكاية من حكايات بحار الجنوب

الكاتب: روبرت لويس ستيفنسون

ترجمة: زينب بني سعد



عن الرواية

وعلى الطرف البعيد من مدينة پاپيت، جلس ثلاثة رجال على ضفة البحر تحت شجرة پوراو.

منذ عهد بعيد حدث ما حدث، تفرق الجمع وغادروا الأوطان تباعًا، كوكبة من شتى الرجال والنساء والتجار وضباط البحرية وهم يؤدون رقصتهم، أذرعهم تحيط بالخصور وأكاليل من الزهور تتوج رؤوسهم. ومنذ زمن بعيد، أطبق الظلام والصمت على المدينة الوثنية الحقيرة، وطاف ذلك البيوت من حولها حولها، ولم يعد ينيرها شيء سوى قناديل الشوارع، مُضفية على المشهد هالات متوهجة مثل هالات يراعات الحُباحِب بين الأزقة الظليلة، أو لترسم أطيافًا مضطربة تنعكس على مياه الميناء، حيث أصوات الشخير تعلو.

ثمة مدٌ في شؤون البشر كمد البحر.

بروتس مخاطبًا أكتافيوس

من مسرحية يوليوس قيصر- وليام شكسبير

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المقدمة

"كنزٌ حقيقي. واحدة من أكثر أعمال ستيفنسون المكتوبة بأسلوب جِدّي هزليّ"

صحيفة ديلي تلغراف آرت آند بوكسكشن.

حكاية "مدٌّ وجَزرْ" واحدة من حكايات بحار الجنوب، جمعت كل روايات روبرت لويس ستيفنسون الباسيفيكية في مجلد واحد. كتبها بالتعاون مع ابن زوجتهِ لويد أوزبورن، ونُشِرت في نفس العام الذي توفي فيه ستيفنسون 1894. تمثل هذهِ الحكاية انحرافًا كبيرًا عن لغة ستيفنسون المعروفة في رواياتهِ المغامراتية الشهيرة في أدب الرحلات واليافعين، نحو لغة تتسم بالفظاظة والقساوة الممزوجة بأسلوبٍ ساخِر، ولهجةٍ حقائقية من العبارة الأولى. إذ يظهر كشاهد على الصدامات الشاملة لعدة ثقافات خلال الإمبريالية في القرن التاسع عشر وعلى تهيئة ثقافة عالمية تُميّز عالم ما بعد الاستعمار. بدأ بكتابتها بعد أن صدم قُرّاءه والعالم الأدبي بقرار الاستقرار بشكل دائم بجزيرة ساموا في المحيط الهادئ، لأسباب صحيّة. فهي تصوير واقعي مرير لإجرام الحياة البائسة المُتمثلة بالعمل الشاق لسُّكان الجزُر المُستعَمَرة وجشع البيض الذين يسودونهم، متمثلًا برحلة الفارالون. الموضوع الفعلي للرواية يتكون بدايةً من فقدان الأمل والحزن، بالإضافة لتكرار ثيمة الانتحار كثيرًا للشخصيات، لينتهي بعضهم بموتٍ ساديٍّ بشع وتحوُّل دينيّ في غاية الغرابة. وإلى جانب موضوعة الدين هناك الجشع، الخيانة، وخطط القدر، المروية على لسان راوٍ عليم. أستغل ستيفنسون أمر اقامتهِ في جزيرة ساموا أثناء رحلة صراعهِ مع المرض، لينتقي بقلمهِ كل حدثةٍ مناسبة كمن يستّل الأعواد من علبة ثقاب كما قال عنه جي كي تشسترتون.

المترجمة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القســم الأول

الثُلاثي

الفصل الأول:

ليلة على ضفة البحر

في كل مكان من عالم المحيط الهادئ وجُزره، ثمة رجالٌ من أعراق أوروبية شتى ومن كل طبقات المجتمع، يضطلعون بأنشطة الحياة اليومية وينقلون الوباء، بعضهم يُفلح وتُقبِل عليه الدنيا بخيرها إلى الحد الذي يعتلي فيه العروش، ويمتلك الجُزُر والأساطيل، وبعضهم يحيا بلا عمل، حياة بليدة مطبَقة. وقد يضطر بعضهم للزواج مرة أخرى من سيدة سمراء من أهالي الجُزر، ذات جسد متناسق، مفعمة بحس الفكاهة والمرح، ترعاهم في مثل تلك الحال وتخفف من أعبائهم، وربما تمكنوا من خلالهن من إيجادِ بابٍ للرزق، وهم يرتدون ثيابًا مثل ثياب سكان الجزيرة الأصليين. ولكن رغم ذلك؛ يبقى عددٌ منهم محتفظًا بقدرٍ غريب من سجايا متأصلة في جذورهم، كأن يكون طريقة مشيتهم ووقوفهم ومواقفهم، أو أن يرتدي أحدهم قطعة أثرية تنحدر من مسقط رؤوسهم، مثل نظارة المونوكل (1) التي يضعُها الضباط والنبلاء من السادة. وبعضهم يستلقي في شُرُفات مصنوعة من خوص أشجار النخيل، ويحكي لجماعة من السكان الأصليين حكاياتٍ عن قاعات الحفلات الموسيقية والهزلية من باب التسلية. وما يزال هناك أناس آخرون جُبِلوا على طِباع شرسة كالصخرة، وربما ما زالوا يعيشون في شيء من الخصاصة بعض الشيء، تعوزهم البراعة والحظ، ويفتقرون إلى قوتهم اليومي، حتى في مثل هذه الجُزُر الوافرة.

وعلى الطرف البعيد من مدينة پاپيت (2)، جلس ثلاثة رجال على ضفة البحر تحت شجرة پوراو.

منذ عهد بعيد حدث ما حدث، تفرق الجمع وغادروا الأوطان تباعًا، كوكبة من شتى الرجال والنساء والتجار وضباط البحرية وهم يؤدون رقصتهم، أذرعهم تحيط بالخصور وأكاليل من الزهور تتوج رؤوسهم. ومنذ زمن بعيد، أطبق الظلام والصمت على المدينة الوثنية الحقيرة، وطاف ذلك البيوت من حولها حولها، ولم يعد ينيرها شيء سوى قناديل الشوارع، مُضفية على المشهد هالات متوهجة مثل هالات يراعات الحُباحِب بين الأزقة الظليلة، أو لترسم أطيافًا مضطربة تنعكس على مياه الميناء، حيث أصوات الشخير تعلو أكوام الخشب بمحاذاة المرافئ العامة، وتنبعث نحو الساحل من السفن الشراعية الجميلة التي ترسو على مقربة منها، كالزوارق الصغيرة، وحيث يتمدد طاقمُها

على ظهورها تحت السماء الواسعة، أو يحتشدون تحت مظلة بسيطة وسط فوضى البضائع.

لكنَّ الرجال الجالسين تحت شجرة البوراو لم يذوقوا طعم النوم في مثل هذا البرد القارص لبحار الجنوب، والذي كان بمثابة الصيف في إنجلترا، وكان سيمر عليهم مرور الكرام دون أن يشعروا به. يشهد على هذا البرد جمادات المكان، حيث استحالت زجاجات زيت جوز الهند السائلة إلى قطعة من الجليد في كافة المنازل الشبيهة بأقفاص الطيور، المفضية إلى الهواء الطلق حول الجزيرة. ويعلم السكان داخلها بذلك، وفرائصهم ترتعد من البرد، فيما يرتدون ثيابًا رثة مصنوعة من القطن الخفيف، وهي ذاتها التي يعملون بها نهارًا وتتفصد أجسادهم عرقًا بها، ويواجهون محنة غزارة الأمطار المدارية. ولكي تكتمل محنهم، فإنهم يعملون دون أن يتناولوا وجبة إفطار، ووجبة غدائهم شحيحة، أما وجبة العشاء، فهم غالبًا ينامون ببطون خاوية.

وبحسب رواية بحار الجنوب، فإنَّ هؤلاء الرجال الجالسين على ضفته، جمعتهم المحنة ذاتها، وجعلت الناس في تاهيتي على دراية بهم، بصفتهم ثلاثة مخلوقات ناطقة بالإنكليزية الأكثر بؤسا.

وبغضّ النظر عن حالة البؤس التي جمعت بينهم، إلا أنهم كانوا لا يعرفون شيئًا عن بعضهم بعضا، ولا حتى أسماءهم الحقيقية. ذلك أن كل فرد منهم قد تعايش، منذ أمد طويل مع البؤس، وأصبح شعور العار يعتمل في نفوسهم، حتى بدأ يتعاظم في مرحلة ما من مراحله، واضطرهم لتبنّي أسماء مستعارة. ومع ذلك؛ لم يمثُل أيٌّ منهم أمام محكمة العدل فيما سبق. كان اثنانِ من هؤلاءِ الرجال الثلاثة صاحبَيّ مناقب طيبة، أحدهما –الجالس تحت شجرة البوراووهو يرتجف من البرد- يحمل في جيبه كتابًا مهترئًا لفيرجيل الشاعر.

ومن دون شك، لو كان بالإمكان جمع المال من الكتب، لكان روبرت هيريك قد ضحى منذ زمن بعيد بآخر ما بقيَ بحوزته منها، ولكنَّ الإقبال على الأعمال الأدبية الذي يشكل وسمة مميزة في بعض أنحاء بحار الجنوب، لا يتعدى كونه إقبالًا على الأعمال المنشورة باللغة الأم. وإنياذة فيرجيل الذي لم يجرؤ روبرت على مقايضته بوجبةٍ تسدُ جوعه، لطالما قدم له العزاء وهو جائع. كان يقرأ هذا الكتاب بتمعّن شديد كأنما يقوم بدراسته، وهو يستلقي بحزام محكم حول خصره النحيل على أرضية حصن قديم، يبحث عن المقاطع الشعرية المفضلة لديه، ويكتشف مقاطع جديدة أخرى تعوزها الدهشة، فقط لأنها تفتقر لتقديس الذكرى. أو يأخذ استراحة في نزهات ريفية بغير تبصر أو قاعدة، يجلس على جانب الطريق، ويمتع عينيه بمنظر البحر من فوق جبال جزيرة موريا (3)، أو يغرق في قراءة ملحمة الإنياذة الشعرية وهو يلتمس

الهدي منها، كما لو أنه يقرأ طالعه من الكتاب المقدس. غير أنَّ النبوءة، لم تتكشف له -كما هي عادة النبوءات- عن رؤية معينة تدعو الى التفاؤل، فأنثالت رؤى من إنجلترا، على ذاكرة هذا المغترب، مشاهد من قاعة مدرسته المزدحمة، الساحات المعشوشبة، الأعياد التي أمضاها في البيت، أصوات صخب لندن الدائم، دفء الموقد، ورأس أبيه الأشيب.

ولأنَّ مصير هؤلاء الكُتّاب الغامضين الكلاسيكيين من فحول الأدب، هو أن نُجْبَر على دراسة أعمالهم والتعرف إليهم في المدرسة -والذي غالبًا ما يكون تعليمًا شاقًا ومُرًّا-، فلكي يصبحوا جزءًا من الحياة، وأن تُرسخ كلماتهم في عروقنا وأن تدوم موطنًا للذاكرة. وبالتالي، فإن من شأن مقولة مُقتبسة من ملحمة فيرجيل ألّا تُسلط الضوء على شخصية مانتوا أو أغسطس بالضرورة، بل أن تُخلّد الأماكن الإنجليزية، وأن تحكي عن شباب الدارس الذي لا رجعة إليه.

كان روبرت هيريك ابن رجل حكيم، مفعما بالنشاط والطموح، وشريكًا صغيرًا في فندق لندني مُعتَبَرا، لذلك علق الأب كل آمالهِ على الصبي روبرت، فأرسلهُ إلى مدرسة جيدة، وحصل من هناك على منحة دراسية لجامعة أكسفورد، ثم انتقلَ للدراسة في الجامعة الغربية. بَيْد أنه، وبرغم كل ما يملكه روبرت من مَلَكَةٍ عقلية وتهذيب، فهو يتمتع بقدر كبير من كليهما، كان ينقصه الثبات على المبادئ، وتعوزه تلك الطبيعة البشرية الميالة إلى الدراسة والانخراط في الأنشطة. كان يتجول في الممرات المعزولة من قاعات المدرسة، يبذل جهده في درسي الموسيقى والماورائيات عندما ينبغي أن يكون حاضرًا في درس اللغة اليونانية، وفي نهاية المطاف ينالُ درجات ضئيلة.

في الفترة نفسها تقريبًا، طُويتْ صفحة العمل في الفندق اللندني على نحو كارثي، وتحتم على السيد هيريك أن يبدأ حياته من جديد كعامل في مكتب غريب، وأن يتخلى عن رغباته، ويقتنع بكل امتنان بهذه المهنة التي لطالما بغضَها واحتقرَها. لم يكن لروبرت موهبة التعامل مع الأرقام، ولم يكن مهتمًا بالقضايا الاقتصادية، وكان يمقت ضيق الساعات، ويحتقر أهداف التجار ونجاحهم .ولم يكن تحقيق الثراء من بين طموحاته بل أن يُبلي حسنًا في عمله، إلى حدٍ ما. كان يمكن لهيريك أن يتجاهل هذا القدر لو أنه نشأ كشابٍ سيئ في غاية الجسارة والتهور، ولعله كان يمكن أن يحاول تغيير مسار مستقبله ويجرب الكتابة، أو أن يتطوع للتجنيد.

فوافق هيريك، الذي كان في غاية التعقل، وربما الخجل، على اعتناق طريقة الحياة هذه، التي تمكنه من مساعدة عائلته على نحو أكثر سهولة ويسرًا. غير

أنّهُ وافق على ذلك بذهن مشتت، ففرَّ من جيرة الرفاق السابقين، واختار من بين عدة مناصب موضوعة تحت تصرفه، وظيفة مكتبية في نيويورك.

ومنذ ذلك الحين، وحياته المهنية في حالة من الهوان والشعور المتراكم بالذنب، لقد كان شخصًا شريفًا للغاية، لا يشرب الخمر، ولم يكن وقحًا مع أرباب عمله أبدًا، ومع ذلك تتم إقالته من أية وظيفة يعمل فيها وفي كل مكان. فهو لا يؤدي مهامه بكامل حرصه. كان يومه نسيجًا من الأشياء المهملة التي ينجزها على نحو خاطئ، فحمل معه من مكان إلى آخر ومن بلدة إلى أخرى، شخصية رجل غير كفء بكل معنى الكلمة.

لا يمكن لأي إنسان أن يتحمل الصفة التي تنطبق عليه، دون أن تتضح على ملامحه وتكتسي بوهج من المشاعر المتضاربة؛ إذ لا يوجد في الحقيقة شيء آخر، يُصفَق بكلٍ قوته في وجه المرء، غير باب عزة النفس. وبالنسبة لهيريك، الذي كان مدركًا لمواهبه وبراعته، والذي نظر بازدراء إلى تلك المهام البسيطة التي تبين أنهُ كان مقصرًا في أدائها، كان وجع الصفقة في وجهه بليغًا للغاية. وفي وقت مبكر من مراحل خريفه المهني، لم يعد قادرًا على إرسال تحويلات مالية إلى عائلته، وبعد فترة وجيزة من ذلك، لم يعد بإمكانه القيام بشيء سوى عدم التواصل مع الآخرين، حتى إنّهُ توقف عن الكتابة إلى بيت العائلة.

وقبل نحو عام من بداية هذه الحكاية، أخذ يهيم على وجهه بشكلٍ مفاجئ في شوارع سانفرانسيسكو برفقة يهودي ألماني بذيء اللسان، ذي طباع خشنة. وعلى حين غرّة، نكث بآخر مواثيق عزة نفسه، وقام بتغيير اسمه، واستثمرَ آخر دولار يملكه في رحلة على متن باخرة ميل بريجنتين، متجهة صوب مدينة بابيت. وبهذه الآمال، أخذ هيريك يعقد الرجاء على رحلته إلى بحار الجنوب، وهو لا يكاد، يعرف ما ينتظره. ففي تصورهِ، ثمة ثروات تُبنى من صيد اللؤلؤ ولب جوز الهند المجفف، وأنَّ هناك آخرين غيره دخلوا عالم الجزيرة ليصبحوا رفقاء الملكة ووزراء الملك، وهو شخصيًا ليس بأقل براعة وفطنة منهم. ولو أنَّ هيريك قصد بقعة الأرض تلك، بأدنى قدر من المقاصد الرجولية النبيلة، لكان سيحتفظ باسم أبيه. فالاسم المستعار يشي بإفلاسه الأخلاقي. وبهذا يكون قد أرخى الراية وأعلن استسلامه. لم يكن لديه أي أمل في الرجوع إلى وظيفته، أو مد يد العون لعائلته التي تعيش ظروفًا مادية عسيرة. ففرَّ إلى الجُزر، حيث أدرك أن الطقس لطيف، وأن الطعام متوفر بثمن بخس، وأن السلوكيات الاجتماعية لا تؤخذ بالحسبان، هربًا من معركة الحياة ومن مهامها العاجلة، مثله مثل أي جبان، فقد اعترفَ بأنَّ الفشل هو قدره في هذه الحياة، فليحظَ إذن بفشل سائغ.

ومن محاسن الصدف، أنَّ إقرار المرء بكونه وضيعًا فاشلًا، ليس كافيًا. ليس ضروريًا لأن يثبت ذلك. لأنَّ هيريك واصل في الجزر مسيرته في طريق الفشل، ولكن في ظل هذا المكان والاسم الجديدين، قد تألم كثيرًا، أكثر من ذي قبل. عندما وصل إلى وجهته، تخبَّط هيريك بين أساليب التسول القديمة بين متعهدي المطاعم الذين طال صبرهم عليه، وصولًا إلى صدقات المؤسسات الخيرية المنتشرة على جانبي الطريق. وبمرور الزمن، سئمَ الناس هناك سجاياهم الطيبة، فأحجم هيريك عن التسول بعد أن قوبل بالصد غير مرة.

كان هناك ما يكفي من النساء اللواتي كنَّ سيقمنَ بإعالة رجل في غاية السماجة والسوء مقارنة بهيريك، إلا أنه لم يقابل أيًّا منهن، ولم يعرف إحداهن أبدًا، وإن كان لا بد من ذلك، فثمة حس رجولي بداخله سينتفض، ويفضل الموت جوعًا على أن تنفق عليه امرأة!

كان قد استنزف كأسه من الندم لأشهر طويلة، بعد أن غمرته الأمطار، وسلخ جلده صقيع الليل، ولوّح وجهه قيظ النهار، لقد صار حبيس خرابة مهجورة، يتسول بقايا الطعام ويبحث عنها بين أكوام القمامة، ومعه رفيقانِ منبوذانِ مثله على حد سواء.

فقد أدرك ما معنى أن يكون رجلًا منبوذًا وبلا عمل، وفهم معنى أن تثور ثائرته ويتمرد على القدر بفورة غضب صبيانية، وأدرك أيضًا، معنى أن يغرق المرء في غياهب اليأس. لقد غيّره الزمن، فلم يعد يمنّي النفس بحكايات عن حياة الرفاهية والرخاء، ولم يعد يُنقب حتى عن الإخفاقات المتراكمة في أعماقه. غير أنه فسّر حقيقته خلافًا لذلك، لقد أثبتَ عجزه عن النهوض بنفسه، وقد اتّضحَ من خلال تجاربه، أنه لم يعد قادرًا على كبح جماح إخفاقاته.

ولكن، ثمة ما يمنعه من الاستسلام، شيء ما، ربما الكرامة أو الصبر، ربما شيء ينّم عن نفس أبية وحسب، إلا أنّهُ كان ينظر إلى محنته بغضب متعاظم، ويتساءل عن مدى صبره، بعد أن اكتملتْ على محنته أربعة شهور، دون أن يطرأ أي تطور في حاله أو إشارة على التغيير.

أخذ القمر يتسابق عبر عالم من السحب المتجمعة من كل شكل وحجم ونوع، بعضها داكنة كبقع الحبر، وبعضها رقيق مثل رقة العشب، وهي تلقي بأعجوبة وهجها الجنوبي على المشهد الجميل نفسه. فجبال الجزيرة تكللها سحب متواصلة، والمدينة مزدانة بأضواء القناديل الرائعة، السواري في الميناء، وجه البحيرة الرقراق كالمرآة، حاجز الشِعاب المرجانية الذي تتكسر على ضفافه أمواج الشاطئ المتلاطمة، بلونها الفضي، وقد أنارَ القمر كذلك، ملقيًا بظلاله الفضية على مدى واسع وعلى رفقائه. على جسد الأمريكي

موفور العضلات والذي يدعو نفسه براون، المشهور بكونه بحّارًا بارعًا، ولكنه موصوم بالعار، وعلى العامل الكوكني (4) المبتذل، الذي يمتلك قامة أشبه بقامة القزم، وعينين تشوبهما الصفرة، وابتسامة قبيحة بلا أسنان، هنا في هذا المكان، أصبح لروبرت هيريك رفقة، فقد رأى في هذا القبطان الأمريكي، رجلًا على الأقل، فقد كان يتمتع بصفات رائعة تنبع من الرحمة والحزم، وكان من الذين بإمكان المرء أن يأخذ بيده دون تردد أو شعور بالخجل. ولكن لم يكن ثمة صفة حسنة واضحة على هيئة الرجل الآخر الذي كان يدعو نفسه أحيانًا هاي وفي بعض الأحيان تومكنز، فسخر من هذا الاختلاف بين الرجلين. فالأخير، كان قد عمل في كل متاجر بابيت، ولأنه كان وضيعًا جملة وتفصيلًا، فقد كان أرباب عمله يطردونه في كل مرة، إلى الحد الذي جعل كل أرباب العمل القدامى ينفرون منه، ويتجنبون المرور به في الشارع كما لو أنه كلبٌ، وكل رفاقه القدامى يتنكرون له كما لو أنهم يدينون له بدَين. لكنه مخلوق قادر على الخوض في أي عمل آخر، حتى بعد طرده.

ولم يمض وقت طويل حتى حملت سفينة قادمة من پيرو، الإنفلونزا، وأخذت تتفشى بشكل كبير في الجزيرة، وخصوصًا في پاپيت. وفي المنطقة المحيطة بشجرة البوراو، كانت تتناهى إلى المسامع أصواتٌ قابضة للنفس، ترتفع بين الحين والآخر، أصوات رجال يسعلون بجِدة، إلى الحد الذي تنقطع فيه أنفاسهم.

ومع نفاد صبر سكان الجزيرة من جَلَبة الحمى، انسلَّ السكان المرضى من منازلهم صوب الساحل طلبًا للهدوء والاسترخاء، فأخذوا يفترشون الأرض قرب ضفة البحيرة أو يتخذون من الزوارق الراسية فوق الرمال والحصى، مأوى لهم، وهم ينتظرون بشق الأنفس حلول يوم جديد. وعندما يعلو صياح الديوك في الريف ليلًا من مزرعة إلى مزرعة، تعلو أيضًا أصوات السعال وتنتشر ثم تخبو وتتبدد على مسافات بعيدة، ثم تعلو من جديد. فكل فرد بائس يجاوره مصاب، يسمع آثار النوبات العنيفة التي تنتابه، فيغرق في حالة من الذعر، حتى يمر الوقت وتتركه بلا صوت وبلا شجاعة متبقية عندما تنقضي. ومن المؤسف أنه إذا كان على المرء المصاب أن يقضي ذروة نوبته، فإنَّ شاطئ بابيت هو الأنسب في تلك الليلة الباردة والفترة الموبوءة. ومن بين كل المصابين، الذين يحتمل أنهم نالوا أقل ما يستحقونه من هذا المرض، غير أن وضعهم جدير بالشفقة دون شك، كان العامل اللندي، الذي اعتادَ على حياة أخرى في مثل هذا الوضع على البيوت، الأسِرّة، والرعاية، وأناقة غرفة المريض. أما الآن، فهو يرقد هناك في العراء البارد، طُعمًا لهبّات الرياح، ومعدته فارغة. بالإضافة إلى وهنه، فقد وصل مرضه حدّ العظام واشتدَّ عليه، حتى إنَّ رفيقيه راقبا قدرة تحمله بدهشة، وغمرتهما شفقة شديدة عليه،

فتَاهَضا مشاعر البغض تجاهه. في العادة، يزيد القرف الذي يصاحب هذا المرض المقيت من حِدة هذه الكراهية. لكن، بئس الشعور اللاإنساني هذا الذي يقيدهم ويجعلهم في تردد من مساعدته، حتى طبائعه السيئة التي يعرفونها فيه، زادت من تعاطفهم عليه واهتمامهم به. ذلك أنَّ فكرة الموت، تبقى دومًا بعيدة التمني، حتى عندما تدنو من المعروفين بدناءتهم وأنانيتهم. ففي بعض الأحيان، كانا يمدان له يد المساعدة، رغم أنها أحيانًا تكون على نحو مغلوط، كأن يدقّان بأيديهما على صدره، كرغبة منهم في المساعدة، حينها يستلقي البائس المسكين على ظهره بشكل تقشعرّ له الأبدان، مستنفدًا قواه بعد نوبة سعال شديدة.

وفي بعض الأحيان، يدققان النظر في وجهه، يتحريانه بدقة وريبة، بحثًا عن أية علامة من علامات الحياة. ليس هناك شخص في هذه الحياة لا يحمل قدرًا من المزايا، ومزية العامل اللندني كانت الشجاعة، فكان يسارع دومًا إلى طمأنتهم بقول مزحة سمجة، كلما اشتدَّ عليه المرض.

إنني بخير يا رفاق، هذه النوبات هي ما تقوي عضلات الحنجرة تحدَّث اللندني بأنفاس لاهثة بعد أن هدأت نوبة السعال:

- حسنًا، لقد نلتَ نصيبك من هذا المرض، صاح القبطان:

- اوه، أنني أملك من الشجاعة ما فيه الكفاية، وتابع المصاب بنبرة كسيرة:

لكن يبدو صعبًا بالنسبة لي أن أكون الطرف الوحيد الذي يعاني هذا النوع من النوائب، والطرف الوحيد الذي يعيش وضعًا غريبًا يجهل نهاية أمره، وأعتقدُ أن على أحدكما أن ينهض ويقص على هذا الرجل المريض حكاية ما.

- المشكلة أنه ليس بحوزتنا شيء لنقوله يا بني، أجاب القبطان.

- سأخبركم إن أحببتم، سأروي لكم حكاية كنتُ أفكر بها، قال هيريك.

- قل لنا أي شيء، أود أن أشعر بأنني لستُ ميتًا بعد، أجاب العامل اللندني.

فعمد هيريك إلى حكاية رمزية ذات مغزى أخلاقي وهو مستلقٍ ووجهه للأسفل، يتكلم بصوت مسموع، ولكن ببطء، وبأسلوب استثنائي، ليس كرجل يوشك على رواية حكاية، وإنما كمن يتحدث ضد الزمن.

وبدأ قائلًا:

- حسنًا، كنتُ أتخيل هذه الحكاية، تخيلتُ أنني أستلقي على ساحل بابيت في إحدى الليالي، القمر مكتمل والرياح تحوم حول الجزيرة بكل شدتها،

والمصابون يحاولون النجاة من نوبات السعال، وكنتُ أشعر بالبرد والجوع، مغتمًا أبلغ من العمر تسعينَ عامًا. وبأنني قضيتُ منها مائتين وعشرين على ساحل بابيت. وتخيلتُ أنني تمنيتُ أن يكون لي خاتمٌ سحريٌّ أفركهُ، أو عرّابة جنية، أو أن بمقدوري استدعاء سيد العفاريت، وكنتُ أحاول أن أتذكر كيف فعلتها، ثم علمتُ بأنك صنعت خاتمًا من الجماجم، لأنني رأيتُ ذلك في أوبرا القناص، وأنك خلعتَ معطفك ورفعتَ أكمامك، لأنني رأيتُ فورمز يفعل ذلك عندما لعب دور كاسبار، ويمكنكم ملاحظة أنَّ أداءهُ كان مدروسًا –من الكيفية التي مضى بها-وأنَّه لا بد أن يكون بحوزتكَ شيءٌ لإثارة دخان تفوح منه رائحة كريهة، وأجزم بأن يكون دخان سجائر، وأن عليك تلاوة الصلاة الربانية بالعكس.

حسنًا، تساءلتُ إن كنتُ سأجرؤ على تلاوة الصلاة، حيث بدا الأمر وكأنه عمل بطولي إلى حد ما، وظننتُ أنني فعلتُ ذلك، وحالما وصلتُ إلى عالم بلا نهاية، رأيتُ رجلًا في باريو وهو يحمل حصيرة تحت ذراعه، ويسير بمحاذاة الشاطئ قادمًا من المدينة. ولاحظتُ بأنه مسنٌّ قبيح المنظر، وأنه كان يعرج ويسعل طوال الوقت. لم يعجبني مظهره في بداية الأمر، ثم شعرتُ بالأسى على حاله، فقد كان سعاله شديدًا، وتذكرتُ بأننا نملك قدرًا من ذاك المركب لعلاج السعال الذي أعطاه القنصل الأمريكي للقبطان لأجل تهدئة سعال العامل اللندني المصاب، الذي لم يُحدِث أدنى فرق بالنسبة لهاي. لكنني فكرتُ بأنه قد يفي بالغرض لسعلة هذا المسن.

- مرحبًا، حييتُ المسن.

- مرحبًا، أجابني.

- لدي مُركبٌ علاجي من الدرجة الأولى من شأنه تهدئة سعالكَ، أفهمتَ ما أقول؟ تعالَ هنا، وسوف أعطيك مقدار ملعقة كاملة براحة يدي، فكل ملاعقنا مكومة عند الضفة.

وهكذا رأيتُ أنَّ هذا المسن يتجه نحوي، وكلما يتقدم أكثر قل اهتمامي به، إلا أنني أعطيته كلمة.

- ما هذا الهراء؟ قاطعهُ العامل اللندني ثم تابع:

- إنَّ ما تقوله أشبه بالترهات الموجودة في الدعايات السياسية.

- إنها قصة، اعتدتُ أن أقصّها على الأطفال في المنزل، ولكن إن كانت تشعرك بالملل، سأصمت أجاب هيريك.

- أوه كلا! أكمل، إنها أفضل من لا شيء! أجاب المريض بانزعاج.

فتابع هيريك: حسنًا، وبمجرد أن أعطيته من المركّب العلاجي، بدا أنّهُ يصَحّ ويتغير، وفي نهاية المطاف علمتُ بأنه لم يكن تاهيتيًا، بل رجلًا عربيًا، ذا لحية طويلة تمتد من ذقنه. فقال لي:

- ما جزاء الإحسان إلا الإحسان، أنا ساحر من حكايات ألف ليلة وليلة، وهذا البساط الذي أحمله تحت ذراعي هو البساط الأصلي لمحمد بِن... ابِن شخص ما أو آخر، انطق الكلمة السحرية، لكي تحظى برحلة بحرية على متن هذا البساط

هل تقصد القول بأن هذا هو البساط السحري؟ أجبتهُ.

- دون أدنى شك، أجابني الرجل العربي.

لقد كنتُ في أمريكا منذ آخر مرة قرأتُ فيها ألف ليلة وليلة أجبتهُ بارتياب إلى حد ما.

- أعتقد ذلك، أجاب الرجل.

- زرتُ كل مكان برفقة هذا البساط، فإن امتلك الإنسان بساطًا كهذا، لن يتبدد عمره سدى في قصر شبه معزول.

حسنًا، أدهشني ادّعاؤه، فقلتُ له:

- إذن، أتقصد قول إنني أستطيع ركوب ذلك البساط والتحليق على متنه صوب لندن، إنجلترا مباشرة؟

- صوب لندن، إنجلترا، امنح البساط الفرصة لإثبات جدارته. أجابني الرجل، ثم قدّرتُ الوقت.

- كم تستغرق المسافة بين لندن وبابيت يا قبطان؟

- يستغرق الأمر تسع ساعات وبضع دقائق، باحتساب المسافة بين خط غرينتش وبوينتفينوس (5) أجاب البحار.

استأنف هيريك قصته:

وهذا ما ظننتهُ أيضًا، حوالي تسع ساعات، فاستدعيتُ هذا الشخص عند الثالثة صباحًا، ووافقتُ على الذهاب إلى لندن، وقررتُ أن يكون موعد انطلاق الرحلة، قُرابة الظهيرة، فقد داعبت هذه الفكرة عقلي بشكل كبير للغاية.

ثمة أمر واحد يزعجني حيال هذه الرحلة، وهو أنني لا أملك في جيبي سوى سنتٍ واحد، وسوف يكون أمرًا مؤسفًا أن أصل لندن، ولا يتسنى لي شراء

صحيفة مورننغ بوست قلتُ للساحر.

- أوه، إنك لم تعِ بعد وسائل الراحة التي يوفرها هذا البساط، أترى هذا الجيب هنا؟ كل ما عليك فعله هو أن تحشر يدك فيه لتخرجها وهي مليئة بعملات السُفْرِن (6).

- عُملات النسر المزدوج (7) أليس كذلك؟ استعلمَ القبطان.

- بالضبط، صاح هيريك، لاحظتُ أنها تبدو كبيرة على نحو غير عادي، وأتذكر أنني اضطررتُ للذهاب إلى صرّافي العملات في تقاطع تشيرنغ كروس جنوب لندن لتبديلها بعملات فضية إنجليزية.

- أوه، هل ذهبتَ إلى هناك؟ وماذا فعلتَ؟ أراهن بأنك.. ابتعتَ جرائد تضم إعلانات إغرائية!

- حسنًا، كما ترى، مثلما قال الرجل المسن تمامًا.

لقد كان للبساط سرعة خيالية، مثل سرعة وقع السوط على الجياد قال هيريك، ثم أكمل: وما أن نويت الذهاب صوب تقاطع تشيرنغ كروس من الشاطئ، وقد كانت الساعة تمام الثالثة صباحًا، حتى وجدتُ نفسي في اللحظة التالية في وسط التقاطع وفي منتصف النهار. في البداية كنتُ مبهورًا، حتى إنني أغلقتُ عيني لاستيعاب المشهد. لم يكن ثمة أدنى تغيير في ذلك التقاطع، فهدير نهر التايمز والشعاب المرجانية هي ذاتها، وصوتها يرن في أذني حتى هذه اللحظة، بإمكاني سماع صوت سيارات الأجرة والحافلات وهي تدوي وتطوي الشوارع! ثم نظرتُ حولي، وإذ بالمكان القديم نفسه من غير شك، حيث التماثيل في الميدان وكنيسة القديس مارتن خارج الحقول، ورجال الشرطة البريطانيين والصحفيين المأجورين وعصافير الدوري. أعجز عن وصف شعوري لكم في تلك اللحظة، شعرتُ برغبة في الصراخ على ما أعتقدُ، أو برغبة في الرقص أو القفز فوق مَعْلَم نيلسون (8). كنتُ مثل شخص محشور في الجحيم، ثم غفروا ذنوبه ورموه إلى أكثر البقع أناقةً في الجنة. ثم لاحظتُ أنَّ هناك عربة يجرها حصان، فقلتُ للحوذي:

- إنْ أوصلتني إلى هناك خلال عشرينَ دقيقة، فسأمنحك شلنًا إكرامية لك.

فانطلقَ الحوذي بخطىً عجولة، رغم أن سرعة العربة لا يمكن مقارنتها بسرعة البساط، وخلال تسعَ عشرةَ دقيقة ونصف كنتُ عند الباب.

- أي باب؟، سأل القبطان.

- باب منزل أعرفه، أجاب هيريك.

- لكنه بمثابة حانة عامة صاح العامل اللندني، رغم أن هذه الكلمات لم تكن على حد تعبيره.

- ولماذا لم تأخذ البساط إلى هناك بدلًا من التسكع في عربة خفيضة صغيرة يجرها حصان؟

لم أرغب في إثارة ذعر الناس في ذلك الشارع الهادئ، أجاب الراوي هيريك.

- تصرفٌ غير مقبول، أضف إلى ذلك عربة يجرها حصان، وماذا فعلتَ بعد ذلك؟ استعلم القبطان.

- أوه، بعد ذلك دخلتُ قال هيريك.

- دخلت الحانة التي قلتَ بأنك تعرفها؟ سأل القبطان.

- وهذا كل ما في الأمر، أجاب هيريك وهو يمضغ حشيشًا.

- أعتقدُ بأنك أسوأ راوٍ للحكايات صاح العامل، ثم أضاف عجبًا! يبدو الأمر أشبه بمجالسة الأطفال ورعايتهم، بوسعي إضفاء المزيد من التوابل على الحكاية، سيكون هناك الكثير من البيرة ولعبة البولينج، وخلال رحلتي القصيرة، سأذهب لشراء إعلانات إغرائية لجلب الحظ، وأحصل فيما بعد، على معطف إيرلندي فضفاض مصنوع من فراء الاستراخان بياقة مزركشة، وأستعين بعكاز مصنوع من الخيزران، وأتصرف كما يتصرف أثرياء الطبقة الراقية في ميدان بيكاديللي. ثم سوف أقصد مطعمًا فاخرًا وأطلب بازلاء طازجة مع شريحة من لحم خروف مشوي وزجاجة من الشمبانيا و..أووه! كدتُ أنسى، سأتناول في البدء أسماك الرنكة المتبلّة وفطيرة المشمش الطازج مع قهوة ساخنة، فتلك الأنواع من المشروبات التي تجر المرء نحو الرذيلة معبأة في زجاجات كبيرة ومغلقة بإحكام، مثل مشروب بينيديكتين الكحولي- يا له من مسمًّى رائع! بعد ذلك أذهب إلى المسرح، أرقص في الغرف والحانات، وأتعرف على أصدقاء جدد، ولن أعود إلى المنزل حتى الصباح، حتى ينحسر الظلام وتنشر الشمس أشعتها، عندها سوف يحين وقت الإفطار الذي سيكون وجبة رائعة أيضًا، زبدة طازجة، كعك وجرجير و.. ألم أكن ... أوه... يا إلهي....وقاطعت العامل نوبة سعال جديدة.

- حسنًا، سأخبركم بما سأفعلهُ من ناحيتي. تابع القبطان: لن أذهب في عربة بجواد يقودها حوذي يقود من وراء العربة كأنه شراع الصاري الخلفي في سفينة ما، بل سوف أستقل سيارة أجرة لندنية الطراز بأكملها، ومن ذلك الصنف المخصص للطبقة الراقية. وقبل كل شيء، سوف أقصد السوق لشراء ديك رومي وخنزير صغير، ثم أتجه إلى بائع الخمر وأشتري دزينة من

الشمبانيا، ودزينة من النبيذ الحلو، على أن يكون معتقًا، لاذعًا، وقويًا. شيء كنبيذ بورت البرتغالي أو نبيذ من سلالة ماديرا الإسباني، أو أفضل نوع أجده في المتجر. ثم سأقف عند متجر لبيع الألعاب، وأنفق عشرينَ دولارًا في ألعاب متنوعة لصغار من ذوي البشرة السمراء، وأتجه بعد ذلك إلى متجر الحلويات لشراء الكعك والفطائر والخبز الفاخر من ذلك النوع المحشو بالخوخ. ثم أقصد وكالة إخبارية، وأبتاعُ الصحف جميعها، حتى الأفلام المخصصة للصغار، والمجلات الأدبية المصورة لليافعين التي تقوم طالبات المدارس الإعدادية بتأليفها حول إيرل يفضي بلواعجه إلى آنا ماريا، وحول قصة هروب السيدة مود من مستشفى المجانين الخاص، ثم أعود إلى السائق وأطلب منه العودة إلى البيت.

فاقترحَ هيريك إضافة أخرى لحكاية القبطان:

- وينبغي أن تُحضر معكَ عصيرًا للأولاد، إنهم يحبون العصير!

- نعم، عصير الفراولة للأولاد، لا بد من ذلك! ومن تلك الأشياء التي يشدُّونها فتندفع منها قصاصات تضم بداخلها أناشيد تافهة، وبعدها نمضي عيد الشكر معا، ونحظى بشجرة الميلاد المجيد، يا للعجب! ولكنني أود أن أرى الصغار، أظنهم سوف يخرجون مسرعين من المنزل حالما يرون أباهم يصل بسيارة، آه يا صغيرتي آدار!

وفجأة، توقف القبطان عن الكلام.

- حسنًا، واصل حديثك، قال العامل اللندني.

- أسوأ ما في الأمر هو أنني أجهل أحوالهم، حتى إنني لا أعرف إن كانوا جائعين أم لا، أجابَ القبطان.

- لا يمكن أن يكونوا أسوأ حالًا منا، هذا عزاؤنا الوحيد، وأنا أتحدى الشيطان إن كان باستطاعته جعل الأمور أسوأ مما هي عليه، رد العامل اللندني.

ثم بدا وكأن الشيطان قد سمع تحديه، حيث تبدد ضوء القمر لمدّة من الوقت، وظل حديثهم مستمرًا في جنح الظلام، حتى سمعوا صوت اصطخاب الأمواج وهي تقترب منهم على نحو عنيف، وانتبهوا إلى سطح البحيرة وهو يمتلئ زبدًا، وقبل أن يقفوا بترنح على أقدامهم، هطل وابل من المطر الغزير على هؤلاء المنبوذين. كان ينبغي على المرء أن يعيش في تلك المناطق المدارية ليتخيل شدة هذا السيل الجارف وحِدته، وتحت عاصفة كهذه، يهرع المرء لاهثًا كما لو أنه تحت دش استحمام، حيث يلوح له العالم مغمورًا بالمطر وبالظلام. فلاذَ الرجال الثلاثة بالفرار بحثًا عن مأواهم المعتاد في الحصن العتيق، وهو ما

قد يكون بمثابة البيت بالنسبة لهم. فوصلوا إلى حجُيراته الفارغة وهم مغمورون بالمطر، واستلقوا على الأرضية المرجانية الباردة. ثلاثة رجال غارقين بمياه الأمطار، وحالما هدأت سَورَة المطر، تمكن القبطان وهيريك من سماع صوت اصطكاك أسنان العامل اللندني وهو يقول:

- يا رفاق.. تمددوا قربي، وحاولوا أن تبقوني دافئًا، حبًا بالرب، أشعر بأنني سأموت! لا تسخروا مني لو كنتُ متيقنًا من موتي في هذا المكان.

وهكذا انسلَّ الثلاثة، تمددوا قرب بعضهم بعضا، وشكلوا جسدًا بشريًا كأنهم رجلٌ واحد مبلل، واستلقوا متراصين حتى لاح ضياء النهار، وفرائصهم ترتعد من البرد والنعاس يغالبهم. لكنهم يفيقون مرارًا ليروا الشقاء الذي يعيشونه، بسبب سعال العامل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني:

ذات صباح على الضفة: ثلاثُ رسائل.

لم تلبث السحب أن انقشعت حتى انبلجَ نور الصباح المداري ومدّ بهاءه حول البيت، وتفرق الزبد قرب حائل الأمواج عند الشعاب المرجانية، وأخذت الرياح تَحف بين سعفات نخيل الجزيرة في ذروة الحر.

وعند الميناء، ثمة بارجة حربية فرنسية تستعد للمغادرة والعودة إلى الوطن، بعد أن قبعَ طاقمها في وسط المسافة عن الميناء، كأنهم عش نمل، يعملون بهمة. وعندما أسدل الليل سدوله، وصلت سفينة شراعية وحطت رحالها بمحاذاة مجرى الشاطئ، والراية الصفراء، شعار الوباء، يرفرف فوقها.

ومن بداية الساحل ثمة سلسلة طويلة من زوارق الكَنُْو (9)، تنطلق صوب الأسواق المحلية، موكبٌ زاهٍ كالأوشحة، محملٌ بثياب متعددة الألوان من تلك التي يرتديها أهل الجزيرة، ومحملٌ أيضًا بأكوام الفاكهة المحصودة من الجزيرة. ولكن حتى بهاء هذا الصباح ورقة احتفائه بالحياة، وحتى هذه التحركات البحرية، التي تجذب اهتمام البحارة والمشردين، لم تكن لتجذب اهتمام المشردين الثلاثة. كانت أفئدتهم ما تزال متجمدة لذلك لم يأبهوا بما يجري حولهم، وفي ألسنتهم مذاق لاذع بطعم المرارة من الجوع والفقر المدقع. وبسبب ما يعانونه من جوع، استحالتْ أرجلهم كغصن شجرة بلا فائدة، وأصبحوا يسيرون بخطوات ملتوية، كانوا متحلقين على الشاطئ مثل إوزات عرجاء (10)، يلفهم الصمت المطبق، وخيبة الأمل؛ كانت خيبة أملهم نابعة من المدن التي جاؤوا منها، ومن هذه البلدة التي تتصاعد منها رائحة الأطعمة ودخان المطابخ، حيث يسكن داخلها أناس سعداء لمجرد أنهم يتناولون وجبة إفطارهم. كانت نظراتهم الجائعة تفترس الأماكن أينما اتجهتْ، لا لشيء سوى البحث عن وجبة تسد رمقهم.

قبالة المرسى، ثمة سفينة شراعية صغيرة، ترسو عند رصيفه، مربوطة بلوح خشبي. وعند مقدمة السفينة، جلس الطاقم المؤلف من خمسة من رجال الكاناكا (11) تحت بقعة مظللة، متحلقين حول قَصْعَة كبيرة من الموز البري المقلي (12)، وهم يشربون القهوة في أقداح من الصفيح.

قُرِعتْ ثمانية أجراس (13)، انتهت فترة مناوبتهم، وحان وقت إفطارهم قال القبطان بنبرة المغلوب على أمره، ثم أضاف:

- لم أجرب هذه الصنعة من قبل، سيكون هذا أول عرض لي بلا شك، لعلني أكسبُ شيئًا.

ثم اقتربَ القبطان حيث استقرَّ معبر السفينة الخشبي على الرصيف المعشوشب، أدار ظهره للسفينة، وبدأ يُصفر بلحن رقصة العاملة الإيرلندية (14) المفعمة بالمرح والبهجة، حتى استحوذ على انتباه بحارة الكاناكا مثل إشارة مسبقة قبل البدء بحفل موسيقي، وبمحض إرادتهم حوّلوا انتباههم من وجبة إفطارهم وهم يبحثون عن مصدر الصوت، فاحتشدوا عند جانب السفينة. وموزة في متناول يد كل منهم، يأكلون بينما ينظرون.

وبالرغم من حالة القبطان المزرية الذي بدا كدُّب أسمر مسكين من جبال البرانس يؤدي رقصة في الشوارع الإنجليزية تحت رحمة سياط سيده، إلا أنه أدى الرقصة التي رافقها لحن صفيره، بمنتهى الهمة والإتقان، وظله الصباحي الطويل يثب وراءه على العشب. تبسّم رجال الكانكا إزاء هذا العرض. كان هيريك يراقب المشهد بعينين مثقلتين، وهو متعطش للحظة التي سيقهر فيها كل شعور بالخزي خامره سلفًا، في حين جلس العامل اللندني في مكان أبعد قليلًا، والشرور السبع للإنفلونزا تتكالب عليه.

توقف القبطان عن الرقص بشكل مفاجئ، وبدا كمن فطن توًا لأحدهم وهو يسترق السمع إليه، وهكذا تظاهر وكأنه رجل بوغت في لحظة خاصة من لحظات هنائه وأُنسه.

- مرحبًا! قال القبطان.

صفق بحارة الكاناكا للقبطان، وأشاروا له بأيديهم لأن يستمر بالرقص.

- أوه كلا يا سادة! لا طعام، لا رقص، هل فهمتم؟ وضح القبطان (15).

- يا للمسن المسكين، إنه جائع رد أحد البحارة.

- يا إلهي! لا نملك طعامًا أجاب القبطان.

- حسنًا، أنا عندي، تعال، يوجد قهوة كثيرة.. وكثير من الموز المقلي، الرجلان يأتيان أيضًا، أجابَ الكاناكي بلهجة ثقيلة.

- سنقوم بزيارة قصيرة، قال القبطان وهرع هو ورفاقه فوق المعبر الخشبي صوب السفينة.

وسرعان ما أصبحوا محط ترحيب على متن السفينة، وبعد التحية ومصافحة بعضهم بعضًا، أُخلي مكان لهم حول القَصْعَة وأضافَ البحارة إلى هذه المأدبة

على شرف هذه الرفقة، دمجانة ضخمة مكسوة بالقش من عصير العنب المركز، ثم جلبوا الأكورديون من مقدمة السفينة، وقاموا بوضعه جوار القبطان بطريقة ذات مغزى.

- يا للونه الفضي الجميل! قال القبطان برِقّة وهو يتلمس الآلة أثناء كلامه، ثم انقضَّ على طبق كبير من الموز المُحَمّر حتى أجهز عليه، ورفع قدح قهوته، وأومأ برأسه إلى الناطق باسم الطاقم وقال:

- بصحتك أيها العجوز، إنكَ لمفخرة بحار الجنوب.

وعلى غرار الشراهة المفرطة لكلاب الصيد، التهمَ الرفاق الثلاثة من الطعام الساخن، وارتشفوا القهوة، حد التخمة، بل حتى استعاد العامل اللندني وعيه، وبدأت الحياة تدب في وجهه، وترسّخ اللون في عينيه.

وبعد أن جففوا الغلاية ونظفوا القَصْعَة، سارعَ رجال الكاناكا الذين كانوا يلبون رغبات الرجال الثلاثة طوال الوقت بحسن الضيافة التي يتسم بها البولينيزيين، سارعوا إلى تقديم وجبة أخيرة مكونة من تبغ الجزيرة ولفائف من ورق الپاندانوس لتكون بمثابة اللفافة، ثم تحلقوا جميعهم حول الأواني وهم ينفثون دخان السجائر، مثل زعماء القبائل الهندية.

- عندما يحظى المرء بفطور لكل يوم، سينسى من يكون علق العامل. الخطوة التالية هي أن نحظى بعشاء أجاب هيريك، ثم أضاف بعد ذلك بنبرة مشبوبة بالعاطفة:

- أتمنى لو أن الرب خلقني كاناكيا!

- ثمة أمر واحد مؤكد بالنسبة لي، وهو أنني على وشك فقدان الأمل نهائيًا، إنني أفضل البقاء على متن هذه السفينة، على أن أتعفن في تلك الجزيرة أضاف القبطان.

وبهذه العبارة، تلقف الأكورديون وبدأ يعزف ما أحلى العودة للديار (16) فصاح هيريك:

- أوه دعكَ منها، إنني لا أطيق هذه الأغنية!

- ولا أنا يا هيريك، لكن ينبغي أن أعزف شيئًا علّ المحاولة تجدي نفعًا يا بني!

أجاب القبطان وعاد إلى العزف، ثم تلاها بــ جسد جون براون، داندي جيم أوف كارولينا، وأعقبَ ذلك بــ روبن ذا بولد وسونغ لو سويت چاريوت، وختم السلسلة بقصيدة ذا بيوتفل لاند بصوت جهوري رنان.

كان القبطان يسدد ثمن وجباته السابقة بذات الطريقة الماكرة، فقد حصل في مرات عديدة على وجبات من أهل الجزيرة ذوي الميول الموسيقية التواقة للقصائد الشجية، باتّباعه الطريقة نفسها. ولطالما أدخلَ البهجة على قلوبهم، كما يفعل الآن. وحالما وصل القبطان إلى منتصف أغنية ففتين دولارس إن ذه انسايد بوكيت التي أخذَ يؤديها بهمة تنم عن تعنت ومكابرة، لأنَّ عملًا كهذا، ليس من شيمهِ، حتى باغتته ضجة كبيرة ملحوظة بين صفوف الطاقم.

- إنّهُ تابينا توم صاح أحد رجال الكاناكا، وهو يشير بإصبعه صوب شخص ما.

وعلى الفور، تتبع متسكعو الشواطئ الثلاثة إصبع الكاناكي، وهو يشير إلى هيئة رجل يرتدي بنطالًا فضفاضًا وكنزة بيضاء يقترب بخفة وحيوية من السفينة.

الكابتن توم قادم، ذلك هو تابينا توم بعينه، أليس كذلك؟ استعلمَ القبطان متوقفًا عن الغناء.

- يبدو أنني أعرفه، لكنني لا أذكر أين رأيتُ هذه الهيئة البربرية!

- من الأفضل أن تكف عن الغناء، كأن هيئته تنذر بالشر اقترحَ العامل.

- حسنًا، أجاب القبطان العازف بتأنٍّ.

- في العادة، لا يمكن للمرء أن يكون على علم بمآل الأمور دائمًا، أعني؛ للموسيقى سحر قادر على إخماد بربرية تابينا وغيرهِ، ولعلنا بضربة حظ، نرقى إلى مقصورة سفينته، حيث يحتفظ بمجموعة فاخرة من المشروبات المُثَلَّجة.

- يا إلهي! مشروبات مُثَلَّجة؟ إن كان الأمر كذلك، فلتغنِّ له شيئًا حماسيًا مثل وي داون ذه سوان ريفر، هيا جربها.

- كلا يا سيد، إنه يبدو أسكتلنديًا، ولا بد أنه قضى حياته في سماع (لأجل الأيام الخوالي)، أجابَ القبطان.

واصلَ القبطان توم الاقتراب بنفس الحركة النظامية، حتى إنهم لم يلحظوا أي تغيير على ملامح وجهه الملتحي، وفجأة، اجتاز المعبر الخشبي، دون أن يكلف نفسه عناء إلقاء نظرة على العازف الذي طفقَ يغني:

خُضنا كلانا في مياه الجدول الصغير،

بأقدام حافية

منذ شروق شمس الصباح وحتى المغيب

و تدفقت كلمات الأغنية من بين شفتيه.

كان القبطان توم يحمل طردًا تحت ذراعه، وضعه على سطح المركب، ثم استدارَ نحو الغرباء بصورة مفاجئة وطفق يجأر:

- أنت هناك! اصمت حالًا واخرجْ من هنا.

بالنسبة للعامل وهيريك، فلم يقفا عند أمر المغادرة بشكل طبيعي، بل أطلقا ساقيهما مع الريح، ولاذا بالفرار خلال المعبر الخشبي دونما إبطاء. أما القبطان فقد ألقى بالأكورديون أرضًا، ثم نهض من مجلسه شيئًا فشيئًا، حتى انتصبت قامته وقال:

- ما هذا الذي تقوله؟ أملك من القدرة ما يكفي لتلقينكَ درسًا في التأدب، أجابَ القبطان.

- المزيد من ثرثرة كهذه، وسوف أُريك كيف تتصرف بتأدب كولد مراهق. لقد سمعتُ قصصًا عنكم أنتم الثلاثة، ولأخبركم أمرًا، لم يعد أمامكم وقت طويل هنا، فالسلطات تراقبكم، إنهم يتخذون إجراءات صارمة بحق متسكعي الشواطئ أمثالكم، سأقول هذا للفرنسيين، أجاب الأسكتلندي.

- انتظر حتى أظفر بك بعيدًا عن سفينتك، صاح القبطان ثم استدار نحو طاقم الكاناكا وقال:

- وداعًا يا رفاق. مهما يكن من أمر، فأنتم رجال محترمون، حتى إنَّ أسوأ زنجيبينكم على متن هذا السفينة، أنبل من هذا الأسكتلدني القذر!

ازدرى القبطان توم رد القبطان، وراقب بوجه تعلوه ابتسامة باردة مغادرته. وحالما غادر الأخير من فوق المعبر الخشبي، التفتَ القبطان توم إلى بحارة الكاناكا، وأمرهم بالعودة إلى العمل على الحمولة.

عاد الثلاثة أدراجهم، وهم يجرجرون أذيال الهوان وراءهم بمحاذاة الساحل، وأولهم هيريك. كان وجهه محتقنًا بدماء الغيظ، وركبتاهُ ترتجفان أسفل منه بنوبة سخط شديدة. وفور وصولهم إلى شجرة البوراو التي جلسوا تحت ظلها في الليلة السابقة وهم يصطكون من البرد، ألقى هيريك بنفسهِ على الأرض وأخذ يتأوه بصوت عالٍ، ثم دفن وجهه في الرمال وهو يصيح:

- لا تتحدثوا معي، لا تتحدثوا معي، لم يعد بإمكاني التحمل.

فوقف القبطان والعامل عند رأسه، وهما في حيرة من أمره.

- ما الذي لم يعد يطيقهُ الآن؟ ألم يتناول طعامًا للتو، فيما كنتُ ألعقُ شفتيَّ أمامك تواقًا للشعور بمذاقه؟

رفع هيريك وجهه الذي يتقد غضبًا بعينيه الجامحتين، وقال:

- لم يعد بإمكاني التسول أكثر! صرخ، وألقى بنفسه مرة أخرى على الرمال.

فقال القبطان وهو يتنفس بعمق:

- لا بد من وضع حد لهذا الحال.

- يبدو أن هناك بوادر نهاية لهذا الوضع، أليس كذلك؟ أجاب العامل بنبرة تشوبها السخرية.

- أرى نهاية قريبة لذلك، ولا تخدع نفسك. ثم أضاف القبطان بصوت أكثر مرحًا:

- حسنًا يا رفاق، امكثوا ها هنا واصمدوا، سأذهب لمقابلة القنصل الأمريكي ثم وقف على كعب قدمه، واستدارَ بشكل مفاجئ، وانطلق مبتعدًا وهو يسير بطريقة متبجحة، كمشية بحّار لم تطأ قدمه اليابسة منذ زمن طويل.

وبعد نصف ساعة عاد، فوجد العامل نائمًا وظهره ملتصق بالشجرة، وهيريك ما يزال على حاله حيث رمى بنفسه، ولا شيء يُستَشفُ منه فيما إذا كان نائمًا أو مستيقظًا. صاح القبطان بتلك الحماسة المفتعلة، والشاقة بالنسبة له أحيانًا: اسمعوا يا شباب، إليكم فكرة جديدة، ثم قدَّم أوراقَ رسائل، مغلفات مختومة، وأقلام رصاص، ثلاثة من كل منها، وتابع قائلًا:

- بإمكاننا كتابة خطابات وإرسالها إلى الوطن عن طريق بريد بريجانتين. يقول القنصل إنه يمكنني القدوم إلى منزله وكتابة العناوين.

- حسنًا، يا لها من بداية! لم يخطر ذلك ببالي قط، أجابَ العامل اللندني.

فأجاب القبطان:

- كانت حكايتي ليلة أمس، عن العودة إلى الوطن، هي ما دفعتني للتفكير بذلك.

- حسنًا. أعطني الأوراق وقلمًا.. سوف أجلس هناك، قال العامل ثم انزوى بعيدًا بعض الشيء، إلى ظل زورق كَنُوُ.

بقيَ القبطان وهيريك تحت شجرة البوراو، حيث استغرقا في كتابة بضع كلمات، أو بالأحرى هما يخربشان بين الفينة والأخرى. وأحيانًا يتوقفان عن

الكتابة، وينهمكان بِعَضْ طرف القلم، وهما يرنوان صوب البحر، ومن حين لآخر، تستقر أعينهما على العامل اللندني، الذي جلس مسندًا ظهره إلى زورق الكَنُو، وهو يسعل وينظر شزرًا، غير أنهم لاحظوا انكبابهُ على الورقة ورشاقة قلمه الذي يتسارع بين أصابعه بمثل تلك السهولة.

- لا يمكنني فعل ذلك، لا أملك قوة قلب كافية لكتابة هذه الرسالة، قال هيريك بشكلٍ مباغت.

فأجابه القبطان بإكبار على غير عادته:

- ربما تشقُّ عليك الكتابة، وبالأخص كتابة الأكاذيب واختلاقها، والله يعلم بأن ذلك ليس بالأمر الهيّن، ولكنها الوسيلة الوحيدة لتسوية الأمور. لن يكلفك الأمر شيئًا لو ذكرتَ في رسالتكَ أنك بخير وسعيد أو أنك آسفٌ لعدم تمكنكَ من إجراء تحويل مالي عبر هذا البريد. وإن لم تفعل ذلك، فبرأيي، هذا أقصى حد يمكن أن يصل إليه الإنسان في كونه مخلوقًا متوحشًا!

- الأقوال أسهل من الأفعال، لا يبدو أنكَ شخصيًا كتبتَ شيئًا، إنني أراقبكَ أجابَ هيريك.

- ما الذي تحاول جرّي لقوله؟

أفلتَ السؤال من القبطان الذي كان صوته نادرًا ما يرتفع فوق الهمس، لكن بوادر الانفعال تظلّ عالقة في نبرته. أضاف متابعًا:

- ما الذي تعرفه عني؟ إن لم تكن قبطانًا لأفضل سفينة أبحرت من بورتلاند، وإن لم تظل ثملًا في مقصورتك بينما سفينتك تمخر عباب البحر في خضم الأمواج المتلاطمة في جزيرة إيبون المرجانية (17) ولم تكن بتلك الجرأة اللازمة لتصمت وتبقى في مقصورتك وتغرق معها، وإنما صعدت إلى سطح السفينة، وأصدرت أوامرك وأنت في حالة يرثى لها من الثمالة، وبالتالي خسرتَ أرواح ستة من رجالك! آنذاك، يمكنني تفهم صعوبة الأفعال التي تتحدث عنها.

وفي ذلك المكان أجابَ القبطان بشكل أكثر هدوءًا. ثم أكمل:

- هذه هي تفاصيل حكايتي، وقد بِتَ على علم بها الآن. وبالنسبة لرب أسرة مثلي، فإنها حكاية شاقة إلى حد ما، لقد غرق خمسة رجال وامرأة. نعم، كان ثمة امرأة على متن تلك السفينة، ولم يكن لها ذنب بأي ممَّا حصل. وها قد أرسلتها إلى الجحيم، أن يوجد مكان من هذا القبيل.

بعد هذه الحادثة، لم أجرؤ على العودة إلى الوطن مرة أخرى، وبالنسبة لعائلتي، أخذتُ زوجتي صغارنا وسافرتُ إلى إنجلترا حيث مسكن والدها. ومنذ ذلك الحين، لا أدري ما حلّ بهم، أضافَ القبطان، الذي أخذَ يتحدث بمرارة، لكن دون أن يولي الأمر أهمية واضحة.

- امتناني عميق أيها القبطان، إنك لم تُثر إعجابي من قبل كما فعلتَ الآن! قال هيريك. ثم تصافحا بحرارة، ولكن باقتضاب وهما يتلافيان النظر في عيني بعضهما، ومشاعر الحنين للوطن تعتمل في القلوب.

- والآن يا أولاد، فلنعد إلى الكتابة مجددًا، والعمل على اختلاق الأكاذيب، قال القبطان.

- لن أوجه الرسالة لوالدي، سأجرب الكتابة إلى حبيبتي عوضًا عن ذلك، لتفادي أثر شرورها، قال هيريك مبتسمًا، وشفتاهُ تميلان إلى إحدى جوانب فمه.

- وإليكم نص رسالته: عزيزتي إيمّا، لقد كتبتُ لأبي في بداية هذه الرسالة، ثم محوتُ ما قمتُ بكتابته وعوضًا عن ذلك، كتبتُ لكِ، لأنني أعتقد أنَّ بوسعي الكتابة لكِ بحرية أكبر. هذه آخر رسالة وداع تصلكم مني، وداع للجميع، هذه الرسالة هي آخر ما ستسمعونه أو ترونه من مُحبٍ وابن ضال وتافه مثلي، لقد خذلتني الحياة، وها أنا ذا، محطمٌ تمامًا، سمعتي مُنثلمة بكل معنى الكلمة، حتى إنني أنتحلُ اسمًا مستعارًا. سوف تضطرين لإخبار والدي بهذا الخصوص، بكل ما تملكين من لطف وطيبة.

إنها غلطتي أنا، وأعرف ذلك حق المعرفة، وأدري لو أنني تخيرتُ لحياتي بشكل صائب، لكنت أبليتُ بلاءً حسنًا. ومع ذلك، أقسم لكم بأنني حاولتُ. لا يمكنني تحمّل فكرة ظنكم بأنني لم أحاول، أو أن تظنوا بي سوءًا، فقد أحببتكم جميعًا وأقلّها، لا يجدر أن يخامركم الشك بحبي لكم. لطالما أحببتكم بلا كلل، ولكن ما قيمة حبي؟ وماذا كنت أساوي أمام هذا الحب؟ لم أملك شجاعة أبسط عامل وبأسه، لم يسعني العمل لأتمكن من إعالتكم. وها أنا خسرتكم، وإن كانت هذه الخسارة تصب في مصلحتكم، سأكون ممتنًا لذلك.

عندما قدمتِ إلى منزل والدي لأول مرة، أتذكرين تلك الأيام؟ أتذكرين الأيام الخوالي؟ وددتُ أن... لقد عرفتِ الجانب الجيد من هيريك آنذاك، لقد أظهرتُ لكِ كل ما بداخلي من خير وطيبة. أتذكرين ذلك اليوم الذي أمسكتُ فيه يدكِ ولم أرغب بإفلاتها؟ وهل تذكرين ذلك اليوم الذي توقفنا فيه على جسر باترسي، وأخذنا ننظر إلى سفينة نقل البضائع تلك، فبدأتُ أخبركِ بإحدى قصصي السخيفة، وانتهى بي الأمر لأقول بأنني أحبكِ؟ كانت بدايتنا من هناك،

وها هي النهاية تلوح لنا من هنا. عندما تنتهين من قراءة هذه الرسالة، انهضي وقبّلي الجميع نيابة عني قبلة الوداع، والدي، والدتي، والصغار، واحدًا تلو الآخر، ولا تنسي عمي المسكين.

واطلبي منهم أن ينسوا أمري، وأنتِ أيضًا انسي كل ما يتعلق بي. أغلقي باب قلبكِ على أي فكرة أو ذكرى تتعلق بي. لقد انتهيتِ من أمر هذا الظل المُعدم الذي تظاهر بأنه رجلٌ وقام بسرقة قلبكِ. لكن الاحتقار الذي أكنُّه لنفسي، يسحقني بينما أكتب هذه الرسالة لكِ.

وأيضًا، ينبغي إخباركِ بأنني بخير وسعيد ولا يعوزني شيء، إلا أنني لا أجني مالًا وليس بمقدوري التحويل لكم، بيدَ أنني أحظى برعاية جيدة، وبأصدقاء، وأعيش في مكان جميل يسوده طقس أجمل. مثل الأمكنة التي حلمنا بزيارتها معًا. ففي مثل هذهِ الأماكن، لا ينبغي إهدار شفقة الناس على بائس مثلي، فكما تعلمين، من السهل أن نعيش في أماكن كهذهِ وأن نعيش بشكل جيد أيضًا، ولكن من الصعب في كثير من الأحيان أن نجني ستة بنسات من المال.

اشرحي الأمر هذا لأبي، وسيتفهم. ليس لدي المزيد لأقوله هنا، سوى محاولة النجاة والبقاء على قيد الحياة، والتشرد، مثل ضيف يزور المكان على مضض. فليبارككم الرب في عليائهِ. تذكروني حتى النهاية، فكروا بي، وأنا هنا على شاطئ تشرق عليه شمس تلفح الوجوه، بين سماء وبحر مصبوغين بزرقة طاغية، قبالة الأمواج العظيمة التي تزمجر، وترتطم بالحواجز المرجانية، حيث جزيرة صغيرة خضراء محاطة بأشجار النخيل. إنني بخير وأقاوم كحديد صُلب، وعلى ما أعتقد، فإنها طريقة ممتعة للاحتضار أكثر مما لو كنتم تحتشدون حولي على فراش الموت. فبالفعل ها أنا أحتضر، أُقبِلكم قبلتي الأخيرة. اغفروا لي، وانسوا أمر هذا الضال الذي لا يليق بعائلة مثلكم.

وإلى هذا الحد، امتلأ خطابه بما أملاه عليهِ قلبه. حينها عادت ذكرى أمسيات البيانو التي قضاها مع محبوبته، وتناهى إلى أذنه، مفردات تلك الأغنية، تحفة الحب، التي عبر من خلالها عُشاقٌ كُثر، عن أعز مشاعرهم للمحبوبة:

أوه يا آينست، أيتها الأعجوبة (18)

لم تكن ثمة حاجة لقول المزيد، كان مدركًا بأنّ قلبه المُحِب، سيظل نابضًا بذكرى محبوبته وتعيش فيه محمية بالألفة، وبخيالاتِ الساحرة عنها، في كيف أن طوال حياته، سيظل اسمها كلما يمرّ به، يرّن في أذنيه كما لو أنه يسمعه للمرة الأولى. اسمها الحاضر في كل الأرجاء، سوف يتناهى صداه في جُل

أصوات الطبيعة وألحانها، وعندما يحصده الموت، ويرقد في قبره متفسخًا بمرور الزمن، ستظل ذكراها عالقة معه، وتفيض في ما بين ذرَّات رفاته.

يُحكى أنَّه ذات مرة من رماد قلبي نبتتْ زهرة، يا أيتها المرأة الأعجوبة.

أنهى القبطان وهيريك رسائلهما في الوقت نفسه تقريبًا، وكان كلاهما يتنفس بعمق، فالتقتْ أعينهما، وبينما كانا يهمَّان بغلق المظاريف، تحاشيا النظر إلى بعضهما بعضًا.

- عذرًا على رسالتي المطولة، فقد كتبتُ كثيرًا، قال القبطان بصوت أجش حضرَ كل شيء في ذهني دفعة واحدة حالما بدأتُ الكتابة.

- وأنا أيضًا، ظننتُ أنني سأحتاج رزمة من الورق حالما بدأتُ، لكنها الآن مناسبة بما فيه الكفاية، بكل ما كان ينبغي أن يُقال أجاب هيريك.

كانوا ما يزالون في طور كتابة العناوين عندما نهضَ العامل وتوجَّه نحوهم، وهو يمشي الهوينا وقد علتْ وجهه ابتسامة متكلفة، وهو يدوّر مغلفه مثل رجل راضٍ عما فعله. ثم أخذ يسترق النظر من وراء كتف هيريك.

- مرحبًا، ألم تكتب خطابًا للوطن؟ سأل العامل.

- بلى فعلتُ ذلك، كتبتُ رسالة إلى محبوبتي. إنها تعيش في منزل والديَّ، ثم أضاف أوه.. لقد فهمتُ قصدك، إن اسمي الحقيقي هو هيريك، ليس هناك هاي بعد الآن، لا تدعوني بالاسم المستعار الذي تدعو نفسك به، حسبما أظن. ثم اتضحَ بأنهما استعارا الاسم ذاته.

- تخمين موفق، يا للدهشة! أجابَ العامل الذي انفجر ضاحكًا.

ثم أضاف:

- اسمي الحقيقي هيوش في حال كنت مهتمًا بمعرفة ذلك. هنا في جزر المحيط الهادئ، ينتحل الكثيرون من الرجال أسماءً مستعارة. خُذ القبطان على سبيل المثال، أراهن بحياتي كلها، على أنه ينتحل قرابة خمسة أسماء مستعارة!

- شرٌ لا بد منه، لم أخبر أحدًا باسمي الحقيقي منذ اليوم الذي مزقتُ فيه الصفحة الأولى من كُتيب بودتش (19) للملاحة خاصتي، وقذفتُ ذلك الشيء اللعين في البحر، بَيْدَ أنني سأخبركم يا أولاد، إن جون ديفز هو اسمي الحقيقي. أنا ديفز قبطان حارسة البحر.

- يا لعذوبة اسمها! أجابَ هيوش، وهل كانت سفينتكَ تتاجر بالرقيق أم للقرصنة؟

- كانت أسرع سفينة تنطلق من ولاية ماين في بورتلاند، وبالنسبة للطريقة التي فقدتها بها، ربما يكون السبب هو أنني قد أحدثتُ ثقبًا في أحد جوانبها باستخدام بريمة.

- أوه.. فقدتها؟ حقًا؟ وهل كانت مُؤمّنة قانونيًا في حال وقوع حادث؟

لم يرد ديفز الجواب على سؤال هويش هذا. أما هويش الذي ينضح تفاهة وثرثرة، سرعان ما انخرطَ في الحديث عن موضوع آخر.

- أشعر برغبة ملحة في أن أقرأ عليكم رسالتي، أملكُ قبضة بارعة في إمساك القلم، واختيار المواضيع التي أميل للكتابة عنها، وهذا زبدة ما كتبتهُ. كتبتُ رسالتي لنادلة تعمل في حانة صادفتها في نورثامبتون، كانت فتاة في منتهى الجمال والأناقة، كأنها تحفة فنية. ومثلما يحصل في الحفلات الراقصة بين المجموعات، انسجمنا مع بعضنا وأصبحنا مقرَبين من النظرة الأولى. وحسبما أذكر في وقتها، أنفقتُ خمسة جنيهات إسترلينية على تلك الفتاة. حسنًا، لقد حدث وتذكرتُ اسمها، لذا كتبت هذه الرسالة لها، وأخبرتها بأنني صرتُ ثريًا وتزوجت من ملكة تعيش في الجزيرة، وأسكن في قصر وارف الظلال. أووه، يا لها من رسالة مكتظة بالتفاصيل!

- حسنًا، لا بد أن أقرأ لك ولو قليلًا من افتتاحيتي الخاصة، وكأنني أقرأ افتتاحية في برلمان خاص بالزنوج، مرتديًا قبعة مزركشة ذات حواف مطوية للأعلى. إنها افتتاحية ممتازة بالفعل.

وثبَ القبطان واقفًا على قدميه، وصاح متذمرًا:

- أهذا ما فعلته بالورقة التي تكفلتُ عناء الذهاب إلى القنصل وتسولتُها من أجلكم؟!

ربما كان الحظ حليفًا لهويش بأنْ أصابته نوبة أخرى من السعال حينها، واستولت عليه، والذي كان في نهاية المطاف أمرًا مؤسفًا للجميع، فلولا ذلك، لكان رفاقه قد هجروه، لمرارة استيائهم من تصرفه. وعندما انقضت النوبة، مدَّ العامل يده والتقط الرسالة التي سقطتْ على الأرض، ثم مزقها إلى قطع صغيرة.

- هل أنتم راضون؟ سأل العامل بوجه متجهم.

- لن نتحدث أكثر حول هذا الموضوع، أجاب ديفز.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث:

الحصن العتيق - القدر يطرق الأبواب.

إن الحصن العتيق الذي آوى المشردين الثلاثة منذ فترة طويلة، هو مبنى مسيّج متعامد ومنخفض يقع عند زاوية جادة غامضة في بلدة صغيرة تابعة للقنصلية البريطانية، يضم بداخله ساحة معشوشبة مبعثرة بآثار الخراب والمشردين وعابري السبيل المارين بها، تُفضي إلى ستٍّ أو سبع حجرات أشبه بالزنزانة. أما الأبواب التي كانت تحجز خلفها صائدي الحيتان المتمردين فيما مضى، فقد بدأت تتخلخل أمامهم في العشب، ولم يتبقَّ أثر من موضعها القديم باستثناء قضبان النوافذ الصدئة. كانت أرضية إحدى الزنزانات قد أُخليت بعض الشيء من آثار الفوضى، إلا من دلو مملوء بالماء عند الباب، وكان آخر قطعة متبقية من أثاث البائسين الثلاثة. وبجانب الدلو تستقر نصف قوقعة لثمرة جوز الهند بمثابة قدح للمشروبات.

وعلى حصيرة ذات أطراف مهترئة، تمدَّد هويش وهو يغط في نوم عميق، بفمٍ مفتوح وبوجهٍ شاحب أشبه بوجوه الموتى الباردة، ومن بين النوافذ والأبواب، يتسلل إلى ذلك المكان الموحش المريب، وهج الأصيل المداري واخضرار الأشجار التي تقع عليها شمس الظهيرة بأشعتها الذهبية.

أما هيريك فكان يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا على الأرض المرجانية، ويتوقف أحيانًا ليغمر وجهه وعنقه بماء الدلو الفاتر قرب الباب، وهو يتخبط بين عذاباته الممتدة، وسهرهِ طوال الليل، إلى سخريات الصباح والتفكير بما كتبه في تلك الرسالة الجارحة. وبهذه المشاهد التي تكالبت عليه حتى حشرته في تلك الزاوية حين يكاد الأسى أن يعود عليه بالرضى والأنس، والزمن يضيق به. فبالنسبة له، فإن الموت والحياة يبدوان بغير معنى.

كان يسير جيئة وذهابًا مثل وحش يقبع في قفص. عقله يجول عبر عالم من التفكير والذكرى، وأثناء سيره، أخذت عيناه تتصفحان النقوش والحكايات على الجدار، فدهان الجدار المتداعي كان مليئًا بمثل هذه الحكايات، مليئًا بالأسماء التاهيتية، والفرنسية، والإنجليزية، وتخطيطاتٍ سيئة لسفن توشك على الإبحار، ورسمات لرجال يخوضون نوبة من الاشتباك بالأيدي، فباغتته فكرة مفادها أن عليه أيضًا أن يترك ذكرى مروره، أن يترك بصمته الخاصة على هذه الجدران المتداعية. فتوقفَ أمام فسحة خالية من هذا الجدار، وأخذ قلمه وبدأ يفكر فيما يودّ كتابته، حتى دبّ فيه ذلك الشعور الذي يصعب كشفه، الغرور وندعوه بالـ غرور على الأقل، وربما دون وجه حق وبشكل

مجحف، بل كان بالأحرى شعورًا مجردًا بمعنى وجوده هو الذي استنهضه. الشعور بحياته، المفهوم الوحيد المدهش الذي يتشبث به بأطراف أصابعه بشق الأنفس.

وفي غمرةِ قلقه الذي ضيق الخناق عليه، خالجه شعور بليغ، يُنبئ بتغيير قريب، رغم أنه ليس بوسعه أن يحدد فيما إذا كان للأفضل أم للأسوأ، إلا أنه لم يعرف سبيلًا إلى ذلك غير الشعور بهِ: التغيير الذي أخذَ يدنو منه دون أن يُحدِث ضجيجًا، بوجه غامض مقنَّع.

ومع هذا الشعور، ارتسمت في ذهنه صورٌ من قاعات الحفلات الموسيقية، من مختلف الآلات الموسيقية الغنية بالألوان، عن الحضور المهيب، والصوت الجهور للفرقة الموسيقية المتناغمة وهم يعزفون سيمفونية القدر القدر يطرق الأبواب (20).

تأمَّل لوهلة، ثم بدأ برسم سُلّمٍ موسيقي على الدهان، وكتب العبارة الشهيرة من السيمفونية الخامسة.

القدر يطرق الأبواب..

وهكذا، أردف هيريك قائلًا:

- سيعرفون أنني أحببتُ الموسيقى، وأنني أتمتع بذوق كلاسيكي، سيعرفون؟ أم سيعرف أحدهم؟ حسنًا، أيًّا كان ذلك المجهول، تلك الروح الشقيقة القريبة لميولي وأفكاري، والتي ستجيء يومًا ما وتقرأ ذكرياتي على هذا الجدار. هاه! لا بد من إضافة بيت لفيرجيل باللاتينية أيضًا ثم أضاف:

terque quaterque beati Queis ante ora patrum (21)

وعاد مجددًا إلى مشيتهِ المضطربة، ولكن هذه المرة، يرافقهُ شعور غريب مناصر للمهمة التي أتمَّها، كان كمن حفرَ قبره بيده في ذلك الصباح، ثم قام بحفر اسمهِ ومرثية على شاهدة قبره، وها قد صاغَ مهمته كما يفعل الآخرون، وعلى أتم وجه، لِمَ ينبغي عليه أن يؤجل سفاسف الأمور المتبقية؟ ثم توقفَ وطفق ينظر مطولًا نحو هويش النائم، حتى زالت الأوهام التي عاشها توًا، وعاد ليتجرع خيبة الأمل وقرفهِ من الحياة. لقد أثارت الملامح المنفرة لذلك النائم الاشمئزاز في نفسه. أيمكن لهذا العذاب أن يستمر؟ ما الذي يقيّده الآن ويبقيه مكتوف الأيدي بلا حول ولا قوة؟ أليس لديه حقوق؟ أيتوجَّب عليه الاستمرار بالمضي فحسب دون أن يُسمح له بإجازة أو بالإفراج عنه وأن يتحمل ما لا يمكن تحمله؟

ها أنذا، أحمل العبء الثقيل برمته، لهذا العالم الشاسع، حتى بلغ السيل الزبى، ولم يعد بوسعي احتماله (22).

انبعثتْ مفردات النص المقتبس من هذه القصيدة في ذهنه، حتى إنَّهُ أخذ يردد سائر أبيات القصيدة التي لطالما أحبَّها وعدّها من أكمل القصائد لأعز الشعراء على قلبه، وأكملهم. حتى وصل إلى بيت، قصم ظهر عزَّته وكرامته:

ثم تشامخَ القلب، وشاءت مشيئته، وسوف يعيش بهجته، تلك البهجة الأبدية..

أين هو عن عزة نفسهِ وكرامة قلبه؟ وهنا ثارت ثائرته، مثل رجل يطبق فمه ويعض على سن ملتهب حتى يلجم الوجع بتلذذ ينّمُ عن عناد ملؤه السخرية.

لا أملك ذرة من عزة النفس، إنني رجل بلا قلب ولا حتى رجولة، لم عساي أعيش حياة طويلة بطريقة مُهينة مثل هذه؟ حتى إنها أشد وطأة من حكم الإعدام شنقًا؟ ولم عساي أقع ضحية بؤسها؟ ما من قوة ولا مقدرة، ولا كرامة. حتى إنني لستُ لصًا لأظل حبيس جرمها. والأسوأ من كل ذلك، أن أتضور جوعًا هنا مع من هم أسوأ من قطاع الطرق، مع كلب الجحيم التافه هذا، فصبَّ جام غضبه على رفيقه، وانهال على النائم بقبضته المرتعدة. ثم سمع صوت خطوات تدبُّ على عجل، فظهر القبطان على عتبة الزنزانة وهو يتفصد عرقًا بوجه محمّر، وقد بدا مغتبطًا حد الضحك. كان يحمل بين ذراعيه رغيف خبز وزجاجات بيرة، وأما جيوب معطفه فقد كانت مليئة بالسيجار. وعندما رأى هيريك على هذه الحال، ترك كنوزه تتدحرج على الأرض، وأحاط هيريك بكلتا يديه، وطفق يصيح من بين ضحكاتهِ:

- افتح زجاجة البيرة، افتح زجاجة البيرة، واشكر الرب.

- بيرة؟ استعلم هيوش، وهو يكافح للنهوض على قدميه.

- بيرة بعينها، والكثير منها، يوجد ما يكفي للعديد من الأشخاص، بأفضل المواصفات وأجودها.

- حسنًا من سيتولى أمر فتح الزجاجات؟

- اتركوا الأمر لي أجابَ العامل.

ثم بدأ بنزع السدادات من أعناق الزجاجات بمساعدة قطعة كبيرة من حجر المرجان، وعبَّ كل فرد منهم البيرة في قدح قوقعة جوز الهند.

- هل ترغب بالتدخين؟ التبغ في غاية الجودة قال ديفز.

ما خطبك؟ سأل هيريك، فارتسمت على وجه القبطان جدية مفاجئة، وأجابَ قائلًا:

- سأخبرك، هيييه.. أنت يا هاي أو هويش أو أيًا كان اسمك، خذ التبغ وزجاجة البيرة واذهب إلى شجرة البوراو وحاول أن تتفقد مسار هبوب الرياح، أرغب بالتحدث إلى هيريك على انفراد، وسوف أنادي عليك إن لزم الأمر.

- هاي؟ أسرار؟ هذا غير مرجو منك يا ديفز، أجاب هويش.

- اسمع يا بني، المسألة تتعلق بعمل، وأنتَ لم ترتكب أي خطأ. إن كنتَ ترغب بافتعال المشاكل، يمكنكَ البقاء هنا وافتعالها مع نفسك. افعل ما يحلو لك وحسب، وسنخرج نحن من هنا، ولكن إن خرجتُ من هنا برفقة هيريك، فسنأخذ البيرة معنا، هل هذا واضح؟

- أوه، لا يحلو لي حشر أنفي فيما لا يعنيني، ولأختصر عليكم الوقت، أعطني الكؤوس، ويمكنكما أن تبدأا الثرثرة حتى تعجزا عن النطق، وتنحشر الكلمات في أفواهكما وتغصَّان بها، وهذا آخر ما يهمني. ولكن ما تطلبه، لا يحمل لمسة الرفاق الودودة، هذا كل ما في الأمر.

وخرج هويش متذمرًا من الحجرة إلى الشمس المتألقة في كبد السماء. راقبهُ القبطان وهو يبتعد عن الفناء، ثم قفل مستديرًا نحو هيريك.

- ما الأمر؟ استعلمَ هيريك بصوت أجش.

- سأخبركَ، أريد أن أستشيركَ. أمامنا فرصة لا ينبغي تفويتها.

- ما هذا؟ صاح ديفز متسائلًا وهو يشير إلى السلّم الموسيقي المرسوم على الجدار.

- ماذا؟ أجابَ هيريك أوه، تلك؟ إنَّها مقطوعة موسيقية، بالأحرى سيمفونية لبيتهوفن قمتُ بكتابتها وهي تعني -إنَّ القدر يطرق الباب-.

- أذلكَ صحيح؟ استعلمَ القبطان بصوت خفيض إلى حد ما، وهو يمعن النظر في النقوش على الجدار، وهذه المكتوبة بالفرنسية؟ سألَ القبطان مشيرًا إلى العبارة المكتوبة باللاتينية.

- أوه، إنَّها تعني بأنني ينبغي أن أكون أوفر حظًا لو أنَّني متُّ في الديار. ما هو العمل الذي تحدثتَ بشأنه، أجابَ هيريك بعد أن نفد صبره.

- القدر يطرق الأبواب كرَّر القبطان ديفز العبارة، ومن ثمَّ نظر خلفه. حسنًا يا سيد هيريك، هذا ما يبدو عليه الأمر.

- ماذا تقصد؟ أفصِح عن الأمر قال هيريك، إلا أنَّ القبطان عاد ليتأمل في المقطوعة الموسيقية مرة أخرى.

- كم مضى من الوقت منذ أن كتبتَ هذه العبارة؟ سألَ القبطان.

- على ما أظن منذ نصف ساعة، ولكن ما أهمية ذلك؟ صاحَ هيريك.

- يا إلهي، هذا أمر غريب! بعضهم سيدعونَ ذلك بالصدفة، ولكن ليس بالنسبة لي ثم حرَّك إصبعه الغليظ فوق حروف المقطوعة وكأنه يتفحصها، وأضافَ، هذا ما أسمّيه العناية الإلهية.

- لقد قُلتَ بأننا نملك فرصة، قال هيريك.

- بالفعل يا سيد، أجابَ القبطان ديفز، ثم استدار بشكل مباغت ليصبح وجهًا لوجه مع هيريك:

- لقد قلتُ ذلك، فيما لو كنتَ الرجل الذي أحسَبُهُ أنتَ. أمامنا فرصة ليس عندي علم بما تظنُّه عنّي، حتى إنكَ لا تكاد تعرفني. فلنتصافحْ يا سيد هيريك، إنني أعرفكَ، إنكَ رجل نبيل وتتمتع بشخصية قوية. لم أرغب في الحديث أمام ذلك المستفز هيوش، وستعرف السبب. ولكن من أجل خاطرك، سوف أفصح عمَّا في خلدي على الفور، لقد حصلتُ على سفينة شراعية.

- سفينة شراعية؟ أية سفينة؟ هتفَ هيريك.

- ذلكَ المركب الشراعي الذي رأيناه هذا الصباح عند الممر.

- المركب الذي يحمل راية الوباء؟

- هي بعينها، تُدعى السفينة فارالون، وتزن مائة وستينَ طنًا. انطلقت من فريسكوفي تكساس صوب سيدني في أستراليا محملة بالشمبانيا المعبأة في كاليفورنيا، قضى القبطان ومساعده وأحد البحارة نحبهم بعد إصابتهم بالجدري أثناء جولتهم في جزر البوموتس (23) كما أظنّ. كان القبطان ونائبه هما الرجلان الوحيدان من ذوي البشرة البيضاء على متن تلك السفينة، بينما الآخرون من البحارة العاملين تحت إمرته فقد كانوا من رجال الكاناكا. وبالنسبة لطاقم يبحر من ميناء دولة تدين بالمسيحية، فإنَّ الأمر يبدو غريبًا إلى حد ما.

بقيَ ثلاثة من الطاقم على قيد الحياة ومعهم طاهي السفينة. لم يعرف أحدٌ أين كانوا، ولم أتمكن من معرفة المكان الذي كانوا فيه، وإن كان لا بد من التخمين، أعتقد بأنَّ القبطان وايزمان كان في حالة سُكر ولم يكن بكامل

وعيه ليغامرَ في الإبحار نحو المسار الذي اتَّخذه. وعلى أية حال، ها هو هناك ميتًا ، وها هما لكاناكا في عداد المفقودين. إنهم يتسكعون حول البحر كما يتسكع الأطفال في الغابة، يثيرون الجلبة في تاهيتي، ويقلبونها رأسًا على عقب. والقنصل هو من يتولى زمام المسؤولية هنا، لذلك عرضَ تولي أمر السفينة على ويليامز، ولأنَّ ويليامز لم يسبق له أن أُصيب بالجدري، فقد رفض المهمة. دار هذا الحديث عندما دخلتُ طلبًا لورق الرسائل، وعندما طلب مني القنصل أن أعود لزيارتهِ في وقت آخر، علمتُ أنَّ هناك خطبًا ما. لم أفصح عن الأمر لكما في حينها كي لا يخيب أملكما يا رفيقيَّ، ليس إلا.

وهكذا، جرَّب القنصل إقناع مارتن نيل لتولي المهمة، غير أنّه كان مرتعبًا من الجدري. ثم حاول مع كابيراتي ذلك الكورسيكي، وحاول مع ليبلو أو أيًّا كان اسمهُ، لكنه لم يبُّت بالأمر معهما، فيبدو أنَّهما متشبثان بروحيهما المحبّتين لهذه الحياة الجميلة، وفي نهاية المطاف، عندما لم يبدِ أحد استعداده لقبول المهمة، قام بعرضها عليَّ.

- بروان؟ أيمكنكَ أن تبحر بهذهِ السفينة؟ هلّا أخذتَها إلى سيدني؟ سألني القنصل. فأجبته:

- امنحني الوقت لأختارَ مساعدي وبحّارًا آخرَ أبيض البشرة، لأنني لا أنسجم مع صخب طاقم الكاناكا هؤلاء، وأرجو منكَ أيضًا أن تمنحنا أجور شهرين مقدمًا، لنحصل على متاعنا وتجهيزاتنا حتى لا نضطر لرهن شيء مقابل ذلك. سأجري تقييمًا للوضع هذه الليلة من جرد للمؤن وغيرها، وسوف أملأ المخازن وأقصد البحر غدًا قبل حلول الظلام هذا ما قلتهُ للقنصل، فكانت إجابته:

- عظيم، هذا جيد، ويمكنك أن تعدّ نفسكَ محظوظًا يا براون.

وقد قال ما قالهُ بنبرة ذات مغزى.

- حسنًا، هذا كل ما في الأمر الآن، سأضع هويش عند الصاري، وسأمنحهُ قطعًا حجرة في مؤخرة السفينة، وسوف أعيّنكَ مساعدي الأول مقابل خمسة وسبعينَ دولارًا كمرتَّب ولشهرين مقدمًا.

- أنا ابن البر تضعني مساعدًا أولًا؟ عجبًا! لكنني لستُ بحارًا، ولا أفقهُ شيئًا في البحر وسبلهِ! صرخ هيريك.

- أظنُّ بأن الوقت قد حان لتتعلم، أتظنني سوف أرحل وأترككم لتتعفنوا هنا على الشاطئ؟ إنني لستُ من هذا النوع من البشر يا رجل! ومهما كان الأمر،

فأنت شخص نافع يا هيريك، لقد أبحرتُ في السابق، برفقة مساعدين لا يتحلّيانِ ولو بصفة مساعد رابع للقبطان!

- الرب وحده من يعلم بأنني لا أستطيع رفض عرضكَ، والرب وحدهُ يعلم أنني أشكرك من أعماق قلبي، أجاب هيريك.

- هذا جيد، ولكن هذا ليس كل شيء، قال القبطان وهو يشيح بوجهه جانبًا لإشعال سيجارة.

- ماذا بعد؟ سألَ هيريك الذي شعر فجأة، بوخز أليم يفوق الوصف.

- سأخبرك أجاب ديفز، ثم سكتَ لبرهة قصيرة، وبعدها استأنفَ حديثه وهو يمسك السيجارة بين السبابة والإبهام:

- اسمعني؛ أحسبُ أنكَ تدرك ما سيؤول إليه أمر هذه السفينة. ألم تستوعب ذلك؟ حسنًا، سنتسلم راتبًا مقدَّمًا لشهرين، إلا أننا لا نَستطيعُ الابتعادَ عن بابيت، فالدائنونَ لن يتركونا لنفرَّ بجلودنا. وعلى أقل تقدير، سوف نستغرق حوالي شهرين للوصول إلى سيدني. ولأصدقكَ القول، ما الذي نكسبه من وصولنا سيدني؟

-على الأقل، سنكون في أمان، ونحن نبعد مسافة عن هذا الساحل، قال هيريك.

- ثمة ساحل في سيدني أيضًا. أود أخبارك بأمر يا سيد هيريك، سيدني لن تشهد وصولي أبدًا، ولا أنوي محاولة التوجه صوبها.

- تحدَّث بوضوح من فضلك، ردَّ هيريك.

- هذا يعني ببساطة، سوف أسرق تلك السفينة، إنه أمر يحدث كل عام في المحيط الهادي وليس بالأمر الجديد. لقد سرق ستيفنز سفينة شراعيّة قبل يوم، أليس كذلك؟ بينما كان هايز وبيز يسرقان البواخر على الدوام، وهذا ما سيجعل الأمر يصب لصالحنا. اسمعني جيدًا، فكّر في حمولة الشامبانيا تلك! تبدو كما لو أنها شُحِنتْ على متن تلك السفينة لغرض ما. سوف نبيع المشروبات الكحولية في بيرو على الجانب الآخر من المرفأ، ثم سنبيع المركب بعد ذلك إن وجدنا مغفلًا يشتريها، ثم نهرب نحو المناجم. سوف أفعل ما بوسعي وأجازف بحياتي لإتمام هذه الخطة حتى النهاية، إن ساندتني.

- لا تفعل ذلك يا قبطان، أجابَ هيريك بصوت مرتجف خائف، فجاءه رد ديفز:

- إنني مضطر لذلك، أمامنا فرصة قد لا تُعوَض يا هيريك. قلْ كلمتك وساندني في هذا الأمر، أظنُّنا قد تضوَّرنا جوعًا بما فيه الكفاية يا هيريك.

- لا أستطيع فعل ذلك، أنا آسف، ليس بمقدوري فعل ذلك. لم أصل لهذا القدر من الوضاعة، قال هيريك وقد شحب وجهه حتى صار أشبه بوجه الموتى.

- ما الذي قلتهُ هذا الصباح؟ ألم تقل إنّه لم يعد بمقدورك التسول؟ إمَّا هذا الأمر أو ذاك يا بنيّ ولكن نهاية ما تنوي فعله هو السجن، إنه السجن يا قبطان، لا تسوِّل الأمر لي، قال هيريك.

هل سمعتَ ما قاله القبطان توم على متن تلك السفينة بالأمس؟ لقد قال الحقيقة بمنتهى الصدق، تركنا الفرنسيون وشأننا لفترة طويلة، ولا يمكن أن تدوم أطول من ذلك. إنهم يراقبوننا عن كثب، وأرجو أن تعي أنك في غضون أسابيع، سوف يزجون بك في السجن مهما كانت فعلتك، إنني متيقن من ذلك بقدر يقيني من وجودك أمامي هذه اللحظة. لقد أدركتُ بوادر هذا الأمر من وجه القنصل.

لقد نسيتَ شيئًا أيها القبطان، هناك طريقة ثالثة يمكنني انتهاجَها، بإمكاني الموت، ولأقول الصدق؟! كان من المفترض أن أكون في عداد الموتى منذ ثلاث سنوات!

شبكَ القبطان ما بين ذراعيه، ثم حدق في وجه هيريك وقال:

- نعم نعم، بإمكانك أن تشنق نفسك وتودي بها إلى الهلاك، هذه طريقة معروفة للانتحار، وقد تجدي نفعًا معك، ولكن ما هو دوري من كل ذلك؟

وبينما استطرد القبطان في حديثه، أشرقت ملامح هيريك بانفعال مريب وأجاب:

- تعال معي يا قبطان، من المستحيل ألا تستمع بهذه الفكرة. تعال.. سنقوم بذلك معًا ثم مد يده إلى القبطان ديفز على نحو يثير الفزع وتابع قائلًا:

- إنَّ الأمر لا يتعدى كونه بضع دقائق تحت مياه هذه البحيرة الساحلية، ثم ينتهي أمرنا ونرقد بسلام.

- لأخبركَ شيئًا يا هيريك، لا أملك من الأمر سوى الرد عليك بالطريقة نفسها التي أجاب يسوع بها الشيطان في الكتاب المقدس: إليكَ عني أيها الشيطان أجاب القبطان (24).

- عجبًا! أتحسبني أقوم بإغراق نفسي، وأترك خلفي أطفالي يتضورون جوعًا؟ وفوق ذلك أستمتع بالأمر؟ كلا قسمًا بالرب، لكن الدرب صعب، وسوف أقطعهُ مهما كان شاقًا، حتى أهلكَ هنا. إنني أبٌ لثلاثة أطفال، صبيّان اثنان وفتاة تدعى آدار. إنكَ لا تستوعب ما أقوله لأنكَ لم تصبح أبًا بعد! اسمعني يا هيريك، إنني أكنُّ لك حبًا... أكنُّ لك حبًا لم أكنُّه لك في بادئ الأمر لأنني لم أكن مهتمًا لأمرك، فقد كنتَ إنجليزيا أصيلًا حسن المظهر، إلا أنني أحببتكَ مع مرور الوقت، إنه رجل هذا الذي يقف أمامك، ويبذل ما في وسعه لإقناعك. ليس بمقدوري التوجه إلى البحر بمفردي وبرفقة خيبة الأمل هذهِ، ذلك غير ممكن، هيا اذهبْ وارمِ بنفسك للبحر. وها هي فرصتي الأخيرة، الفرصة الأخيرة لمُعدمٍ حقير وبائس يحاول كسب كسرة من الخبز اليابس لإطعام عائلته.

- لا يمكنني القيام بشيء سوى الإبحار وقيادة السفن، بلا أوراق ثبوتية ولا هويات. وها أنا أحصل على فرصة للخلاص من هذا الوضع، وتأتي أنت لتخذلني! آه، نسيتُ، ليس في رقبتكَ عائلة وهنا تكمن المشكلة!

- أملك عائلة في الواقع، قال هيريك.

- نعم، أعرف، أنت تظن بأنَّ لديك عائلة، ولكن لا يحظى المرء بعائلة حتى يُنجِب أطفالًا، ما يُهِّم في الأمر حقًا هم الأطفال، لا غير. هناك شيء ما يخص هؤلاء الأطفال الصغار.. لا يمكنني الحديث عنهم. وإن كنتَ تشعر ولو بمقدار شروى نقير، بهذا الأب الذي سمعتكَ تتحدث عنه، أو بتلك المحبوبة التي كنتَ تكتب لها رسالة هذا الصباح، ستشعر بما أشعر بهِ.

- لو كنتُ مكانكَ لقُلت: ما شأني بالقوانين والرب وكل ما يمت بصِلة لذلك وفي رقبتي عائلة تعاني ضنك المعيشة؟ سوف أسعى للحصول على قوتهم اليومي، قسمًا بالرب، أو أصيبُ ثروة هائلة ولو اضطررتُ إلى إحراق لندن من أجل ذلك. هذا ما يجدر بك قوله والتفكير به، ولأخبركَ المزيد؟ فإنَّ قلبك يعتمل بالشعور ذاته وأنت توافقني الرأي في هذه اللحظة بالذات، يمكنني معرفة ذلك من وجهك. إنكَ تفكر الآن على هذا النحو:

ها أنا بصحبة رجل معدم مسكين، وقد تضورتُ جوعًا برفقته لأيام، وثمة فتاة مغرمة بي، وقد أحبَّتني حبًا جمًا، ذلك الحب الذي يمكن أن يُقال عنه [قصة عظيمة] لكنها قصة من الصنف الذي قُدِر لها السير على قدم واحدة، وهذا الصنف لن يخفف عني بقدر ما قد تفعله دامجانة من الويسكي لأي رجل آخر.

وعلى أيَّة حال، ليس ثمة حبٌ عنيف في هذه القصة، فهو ليس من الصنف الذي يتحدثون عنه في الحكايات والقصائد الغنائية، فما فائدة استمراري بالكلام حينما يبدو كل شيء في قلبكَ واضحًا وضوح الشمس؟

سأطرح عليك سؤالًا، مرة واحدة فقط، هل ستتخلى عني في شدتي هذه؟ إنكَ تعلم لو كنتُ قد تخليتُ، هلا مددت لي يد العون، لنجرّب سويةً حياةً جديدة، ثم تعود إلى الوطن كما لو أنك مليونيرٌ؟

أرفضُ ذلك، وليكن الرب في عوني.

- وافقْ، وسأجعل الصغار يُصلّون من أجلك كل ليلة وهم راكعون على ركبهم، ويقولون: فليبارك الرب السيد هيريك، هذا ما سيقوله كل فرد منهم، بدءًا من طفلتي الكبيرة وهي جاثية عند أوتاد السرير، إلى الصغار الملاعين الأبرياء.

ثم صمتَ لبرهة وأضافَ:

- لا أنفجر غضبًا عادة عندما يتعلق الأمر بالأطفال، لكنني حين أفعل، يفلتُ الأمر من يدي

ألا يوجد سبيل آخر يا قبطان؟ سأل هيريك بصوت واهن.

فأجابه القبطان بعزيمة مبتذلة:

- سأتنبَّأ بذلك إن شئتَ، إنكَ ترفض هذا الأمر لأنك تعدّ نفسك صادقًا للغاية، وقبل أن ينقضي شهر واحد سوف يزجّون بك في السجن بتهمة لص متسلل. إنني أحادثكَ بمنأى عن المصلحة الذاتية يا هيريك، أؤكد لكَ ذلك، ستقودُ نفسك إلى الهلاك إن أصررتَ على موقفك، لا أظنك ستمضي وتنخرط في عمل تبشيري وتصبح من دعاة الإنجيل، وتركل هذه الفرصة السانحة أمامك؟ مئونتك على وشك الانتهاء يا هيريك، وقبل أن تُتاح لك الفرصة لاختيار وجهتك، ستكون على الجانب الآخر من هذا العالم.

إمَّا أن تحظى بهذه الفرصة، أو أن تكون في كاليدونيا (25)، أراهنُ أنك لم تذهب إلى تلك الأرض من قبل، ولم ترَ أولئكَ الرجال البيض حليقي الذقن، بثيابهم المتربة وقبّعاتهم القشية، يجوبون شوارع نوميا في جماعات تحت ضوء القناديل وهم يبدون كالذئاب، كالمبشرين، أو كمن به علة، حتى إنَّ مريضنا هويش يبدو شخصًا مفعمًا بالحيوية مقارنة بأعتاهم، حسنًا؛ هؤلاء هم رفقاؤكَ، إنهم ينتظرونك يا هيريك وعليك الذهاب. هكذا تقول النبوءة!

وقفَ الرجل على قدميه بعد أن ترك على هيريك وقعًا كأنه الصاعقة، من خلال ما أبداه من اعتبار عظيم لنفسه، فقد بدا وكأنه شخص حلّتْ فيه روح

وحي ما، وأحدثتْ أثرًا، وكأنَّ وسيطًا روحيًا ينطق على لسانه نبوءة محققة.

نظر هيريك الشاب إلى القبطان، ثم أشاح بوجهه بعيدًا، لقد بدا من غير اللائق رؤية مثل هذا القلق والاضطراب على وجهه بعد أن خارت شجاعته.

- إنكَ تتحدث عن العودة إلى الوطن، لكن.. لن نتمكن من العودة أبدًا، احتج هيريك.

- بلى سنقدر، لم يتمكن القبطان براون ولا السيد هاي، الذي أبحرَ كمساعد له، من العودة، لكن ما علاقة ذلك بالقبطان ديفز أو السيد هيريك أيها الأحمق؟

- لكنَّ هايز عنده هذه الجزر الصاخبة حيث اعتادَ زيارتها، اعترضَ هيريك بصوت منخفض.

- ونحن لدينا جزر البيرو الصاخبة، لقد كانت برية بالقدر الكافي بالنسبة لستيفنز، ولم تعد مخيفة منذ أكثر من سنة، وباعتقادي؛ ستكون جيدة بما فيه الكفاية بالنسبة لنا.

- وماذا عن طاقم السفينة؟

- جميعهم من رجال الكاناكا، تعال معي، وسأثبت لك أن كل شيء على ما يرام، وسوف تقف بجانبي يا صديقي المسن ، ومد القبطان يده مرة أخرى نحو هيريك.

- افعل ما يحلو لك، سوف أُبحر معك رغم أنَّ قراري هذا صعب، بالنسبة لشخص مثلي، يسير على سر أبيه، لكنني سأبحر وسوف أقف بجانبك يا رجل، سواء أكان ذلك خيرًا أم شرًا أجاب هيريك.

- فليباركك الرب صرخ القبطان، وقف ساكنًا، وبابتسامة تعلو محياه أضاف:

- هيريك، أعتقد أنني كنتُ سأموت في أثري لو أنكَ قلتَ: لا، ورفضتَ الذهاب معي.

فنظرَ هيريك إلى القبطان، وكأنه يصدق تقريبًا قوله.

- والآن، لنذهبْ ونخبر ذلك المشرد عن الأمر، قال ديفز.

- أتساءل، كيف ستكون ردة فعله عن الأمر، قال هيريك.

- ردة فعله؟ سيرحب بالأمر! كان رد القبطان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع:

راية الوباء

تموضعتْ سفينة الفارالون عند منفذ القناة المائية، حيث قام أحد البحارة المفزوعين بسحبها إلى المرسى والفرار بسرعة، ويتضح من الساحل عبر أسطول منظم بشكل دقيق، وجود موضعين يلفتان النظر في اتجاه البحر. فمن جانبٍ، ثمة جزيرة صغيرة، محاطة بأشجار النخيل والمدافع المنصوبة قبل أكثر من أربعين عامًا، لغرض الدفاع عن عاصمة الملكة بوماري، الملكة الرابعة لمملكة تاهيتي. ومن الجهة الأخرى، سفينة الفارالون الموبوءة وقد أُقصيتْ صوب مدخل المرفأ، وهي تتأرجح وتميل حد وصول المياه لمستوى بالوعاتها، وراية الوباء الصفراء ترفرف فوقها وهي تتمايل.

ثمة بضعة طيور بحرية تصيح وتزعق وهي تحوم حول السفينة. وفي حدود مكان ليس ببعيد، ثمة قارب لخفر السواحل يتدلى من بارجة حربية، ويظهر مجهزًا بأسلحة جنود البحرية. وما أبرز جمال المشهد، فيض وهج النهار وسماء بابيت المبهرة، التي مدت بهاءها حول العاصمة مثل إطار حول لوحة. وثمة زورق أنيق مأهول برجال من أهل الجزيرة بثيابهم المعهودة، يقوده طبيب الميناء، يتقدم نحو الساحل حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، ويدنو من السفينة الشراعية بشكل سريع.

وعند الجزء الداخلي من مقدمة الزورق، تكدست أكوام من أكياس الدقيق والبصل والبطاطس، حيث جلس هويش مرتديًا زي البحارة المرابطين للاعتناء بمعدات الصاري الأمامي وحركته، وقد أعاقت كومة الصناديق والحقائب عمل المجدفين.

عند مؤخرة الزورق، جلس هيريك على الجانب الأيسر من الطبيب، بحُلّة جديدة من الثياب الرخيصة وقد شذّب لحيته البنية إلى حد ما، وفي حِجْره مجموعة من الروايات الورقية، وهو يحاول ضبط ميقاتية جديدة (26) موضوعة بين قدميه، التي استبدلوا ميقاتية الفارالون بها، منذ أن كفتْ القديمة عن العمل وفقدت قيمتها.

اجتازوا قارب الخفر وهم يتبادلون هتافات الترحيب مع المساعد الأول لرُبان البارجة. ولما اقتربوا أخيرًا من السفينة الموبوءة، ساد الصمت الأرجاء بحيث لم تصدر أية كلمة من أي رجل، وبما أن البحر كان قد ماج موجهُ، والشعاب

المرجانية قريبة من المكان الذي رستْ فيه السفينة الشراعية، كان دوي الأمواج المتلاطمة حول السفينة، يشبه صوت المعركة.

- أوه، يا لهذه السفينة! صاح الطبيب بأعلى صوته.

وعلى الفور، ظهر ديفز من الحجرة التي يخزنون فيها المؤن، يتبعه أحد أفراد الطاقم، غلام أسمر البشرة يرتدي ثيابًا رثة.

- مرحبًا، أهذا أنت يا هاي؟ قال القبطان متكئًا على درابزين السفينة، قُل للرجل أن يركن الزورق بحذاء السفينة كما ترقد الدجاجة على بيضها، فالبحر هائج وقاربهُ هش.

في غضون ذلك، بدأتْ حركة السفينة تشتد وتضطرب بشكل غير مألوف، فتارةً، ترفع طرفها عاليًا مثل باخرة في أعماق البحار حتى تكشف عن وميض بدنها المطلي بالنحاس. وتارةً تميل بجانبها نحو الزورق حتى تتدفق المياه من شُق بالوعاتها.

- آمل أنك تمتلك ساقي بحار معتاد على البحر. سوف تحتاج لذلك، قال الطبيب لهيريك.

ولم ينطق بغير الحقيقة، لأنَّ الصعود على متن الفارالون في مرساها ذاك، مسألة تتطلب قدرًا من المهارة.

رفع البحارة البضائع الرخيصة والخفيفة بنشاط، ومرروا الميقاتية من بحار إلى بحار بحذرٍ ونجاح، بعد محاولات عديدة باءت بالفشل. ولم يتبقَّ سوى المهمة الأصعبَ في ذلك، وهو صعود هويش. فحتى هذ النموذج الذي يعدّ بمثابة حمل زائد، والذي تم تعيينه كرجل بحر متمرس مقابل ثمانية عشر دولارًا، فقد وصفه القبطان كفرد بالغ الأهمية لهذه الرحلة أمام القنصل، تمَّ سحبه ورفعه على متن السفينة من غير حادث طارئ. وبعدها، سلم الطبيب عليهم بطريقة مهذبة، وودعهم مغادرًا.

نظر المغامرون الثلاثة إلى بعضهم بعضا، فتنفس ديفز الصعداء.

- والآن، فلنقم بتثبيت هذه الميقاتية، أجاب القبطان ودلهم الطريق إلى المقصورة.

كان المكان فسيحًا إلى حد ما، يضم حجرتيْن ومخزنًا كبيرًا مفتوحًا على المقصورة، أما الحواجز الإنشائية الفاصلة بين حجرة، وأخرى، فكانت مطلية باللون الأبيض، والأرضية مفروشة بسجاد مشمع.

لا أثر للقمامة، ولا أثر للحياة. فآثار موتى الوباء تم إخلاؤها وحملها إلى اليابسة، والسفينة طُهِرتْ. باستثناء قدر من حمض الكبريت الموضوع في صحن فنجان على الطاولة. والذي غمرتهم رائحة أبخرته الخانقة والمهيجة، وأدخلتهم في نوبة سعال حالما دخلوا.

دقَّق القبطان النظر صوب الجانب الأيمن من الحجرة، حيث ما تزال ملاءات السرير ملقاة عليه بشكل فوضوي، حتى اللحاف باقٍ على حاله، مطروح إلى الوراء بعد رفعه من الجثة المشوهة بالجدري قبل دفنه.

- لقد أخبرتُ هؤلاء الزنوج أن يٌلقوا هذه الحاجيات في البحر، قال ديفز متذمرًا. أظنهم خائفون من لمسها. حسنًا، لقد غسلوا المكان برمته، وهذا أقصى ما يمكن توقعه منهم. تولى أمر هذه الملاءات يا هويش.

- ليس قبل أن أشاهدك وأنت تمسكها أولًا، قال هويش الذي تراجع إلى الخلف.

- ماذا تقول؟ صاح القبطان بصوت مدوٍ، دعني أذكرك بشيء يا بني، أنا القبطان هنا وأنت ترتكب خطأ معي!

- لا آبه بذلك، أجاب هويش.

- هكذا إذن؟ حسنًا، سوف تقيم مع الزنوج في مقدمة السفينة. اخرجْ من هذه المقصورة.

- لا أحسبكَ تراني بهذا القدر من السذاجة، يبقى المزاح مزاحًا! قال هويش.

- طيب، سأوضح لك المسألة، وسترى دفعة واحدة وعلى وجه الدقة، كم من المزاح فيها. أنا قبطان هذه السفينة، وهذا ما سيحدث، أمامك اختيار واحد من بين ثلاثة: أولًا، إمَّا أن تتلقى أوامري من هنا مثل صبي مقصورة في حال فكرتَ بالعبث معنا. ثانيًا، أن تعود أدراجك وتمكث مع الزنوج. ثالثًا وأخيرًا، أن أرسل إشارة لتلك البارجة وأعيدكَ على متنها إلى اليابسة معتقلًا بتهمة التمرد.

- وبالطبع، لن أفشي السر وأفضح مؤامرتكم؟ أوه، لن أجرؤ! أجاب هويش بنبرة ساخرة.

- ومن سيصدقك يا بني؟ ردَّ القبطان. كلا يا سيد، ليس ثمة مزاح حول قيادتي لهذه السفينة. كفاك حديثًا، وهيا تخلص من هذه الملاءات.

- لم يكن هويش أحمقَ، فهو أدرى بنفسه عندما يتعرض للتقريع ويُهزم. ولم يكن جبانًا أيضًا، لأنه تقدم نحو السرير وجمع الملاءات الموبوءة بين ذراعيه بشكل صحيح، وحملها خارج حُجرات المقصورة دون أن يتفحصها، وبلا ارتباك.

- كنتُ أتحيَّن الفرصة قال ديفز موجهًا كلامه لهيريك. لستُ مضطرًا للتصرف معكَ بالطريقة نفسها، لأنك مدركٌ للوضع.

- هل ستستقر هنا؟ سأل هيريك، وهو يتبع القبطان إلى الحجرة التي سيعلق فيها الميقاتية عند لوح مسند رأس السرير.

- ليس دائمًا، أظنني سوف أبقى قريبًا من سطح السفينة، لا أعرف إن كنتُ أخشى ذلك ولكن، لم يسبق لي الإصابة بهذا الوباء أجاب ديفز.

- لا أعرف ما إذا كنتُ خائفًا أيضًا، قال هيريك غير أنَّ التفكير بهذين الرجلين بمثابة غصة في حلقي. ذلك القبطان ومساعده وهما يحتضران أحدهما أمام الآخر، إنها مأساة. أتساءل عن آخر ما قالاهُ قبل أن يلفظا أنفاسهما الأخيرة!

- وايزمان وويشارت؟ ربما تحدثا بأمور تافهة. هذا أمر يفهمه الإنسان بنفسه بطريقة ما، أما جوهر القول فيكون مغايرًا تمامًا. ربما قال وايزمان: هييه أيها المسن ويشارت، هيا انهضْ وأحضر النبيذ، يعتريني شعور بضعف هائل، ولعلَّ إجابة ويشارت كانت: اللعنة.

- أوه، يا لها من مأساة! علَّق هيريك.

- ها قد انتهينا من الميقاتية، والآن حان الوقت لرفع المرساة والانطلاق.

ثم أشعل سيجارًا، وتقدم نحو سطح السفينة.

- أنتَ هناك، ما اسمك؟ نادى القبطان على أحد البحارة، رجل ذو هيئة نظيفة، بمَنكِبين ضامرين ولون بشرة داكنة تكاد تقترب من لون بشرة الأفارقة، ينحدر من إحدى الجزر الغربية البعيدة.

- سالي دي، أجاب البحار.

- عجبًا! لم أعلم أنَّ هناك سيدات برفقتنا على متن السفينة. حسنًا يا سالي دي، اصنع معي معروفًا وأنزِل تلك الراية هناك، وسأفعل المثل لك في وقت آخر وهكذا، شاهد الراية ترتخي من فوق منصة الصاري، وتُسحب حتى تم إنزالها على سطح السفينة.

لن تخفقي فوق هذه السفينة بعد الآن علَّق القبطان، وهو يمعن النظر في الراية، ثم وجَّه كلامه لهيريك:

- اجمع الطاقم عند مؤخرة السفينة يا سيد هاي، لدي ما أقوله لهم.

تهيَّأ هيريك لمخاطبة الطاقم للمرة الأولى، مغمورًا بشعور استثنائي. وفي الحقيقة، شكر نجمة حظه في كونهم من أهل الجزيرة الأصليين، ولكن حتى أهل الجزيرة-على حد تعبيره- فسرعان ما قد يُشْكِلون على البحارة المبتدئين من أمثاله، وقد يستشعرون قدرًا من الهفوة في اللغة الإنجليزية المتقنة التقليدية تلك، التي تسود على متن السفينة. كما أنه كان من الممكن ألا يفهموا شيئًا آخر. فأجهدَ ذهنه في محاولة منه لاستعادة ذكريات من مغامرة بحرية، وصياغتها في بضع كلمات لائقة.

تجمَّعوا في مؤخرة السفينة.

- يا رجال، هيا بسرعة، الآن. فليأتِ جميع البحارة، صاح هيريك.

فتجمعوا في ممر ضيق مثل الخراف.

- ها هم يا سيدي، قال هيريك.

ما فتئ القبطان يواجه مؤخرة السفينة لبعض الوقت، ثم استدار نحو الطاقم بفجائية خاطفة، وبدا أنّه يتلذذ بحركة رجوعهم إلى الخلف وانكماشهم على بعضهم.

والآن، تكلَّم القبطان ديفز، وهو يلوي سيجارة من فمه، ويعبث بعجلات الدفة.

- معكم القبطان براون، وأنا رُبان هذه السفينة. هذا السيد هاي، الضابط الأول على هذه السفينة. أما الرجل الأبيض الآخر، فهو صبي المقصورة، لكنّه سيشارك في نوبات الحراسة وينجز أعماله بكل سرور. ستطيعون أوامري ببراعة وفطنة، هل تفهمون؟ ببراعة وفطنة.

لا يجوز التذمر بشأن الطعام، والذي سيكون أكثر من الحصة المقررة لكل منكم، سوف تضيفون لقبًا مرفقًا بِاسم الضابط الأول هيريك، وتلحقون يا سيدي مع كل أمر تتلقونه مني، إن نفَّذتم الأوامر بسرعة وفطنة، سأجعل من هذه السفينة جنة لجميع البحارة، ثم سحب السيجار من فمه وأضاف بنبرة مدوية:

- إن لم تفعلوا، سوف أحولها إلى جحيم عائم، والآن يا سيد هاي، لو سمحتَ، سوف نختار الرجال المناوبين.

في الحال قال هيريك.

- من فضلكَ يا سيد هاي، سوف تلحق إجاباتكَ معي بـ يا سيدي عندما تخاطبني، قال القبطان. ثم أضاف:

- سأختار السيد سالي، تحرك إلى الميمنة ثم همسَ في أذن هيريك اختر الرجل المسن.

- أنتَ هناك، وقع اختياري عليك، قال هيريك.

- ما اسمكَ؟ سأله القبطان، ما هذا الذي تتفوَّه به؟ هذه ليست لغة إنجليزية. لا أرغب بسماع المزيد من هراء الشوارع خاصَّتك على سفينتي، سوف نطلق عليك اسم العم نيد المسن لأنَّ رأسك خالٍ من الشعر الصوفي، ما عدا أعضائك الأخرى التي يُفترَض أن ينمو فيها (27)، تحرَّك إلى الميسرة يا عمّ. ألم تسمع السيد هاي؟ لقد اختاركَ.

- طيب، سوف أختار الرجل الأبيض، يا أيها الرجل الأبيض، تحرَّك إلى الميمنة. والآن أيٌّ منكما سيصبح طاهيَ السفينة؟ أنت؟ إذن تسلّم رفيقك بالدنغري الأزرق (28) يا سيد هاي.

حسنًا، بِتْنا نعرف مهماتنا ومن نكون جميعًا. رجل الدنغري، العم نيد، سالي داي، الرجل الأبيض والطباخ. طيب يا سيد هاي سوف نرفع المرساة، من فضلك.

- حبًا بالله، علّمني بعض المفردات البحرية، تحدَّث هيريك بصوت خفيض.

وبعد ذلك بساعة، أصبحتْ الفارالون جاهزة للإقلاع دون أيّة مشاكل أو عراقيل، الدفة موجهة إلى الجانب الأيسر من السفينة بشكل كامل، وصليل المرفاع البهيج وهو يرفع المرساة ليعيدها إلى مخبئِها، يعم السفينة.

- كل شيء آمن يا سيدي، أعلنَ هيريك من موقعه عند مقدمة السفينة.

أخذ القبطان يتفحص الدفة حالما تزحزحتْ السفينة من موضع سكونها مثل أيل وهي تترنح وتميل مع هبات الريح. وقارب خفر السواحل يُشيعها بوابل من التحيات، حتى أزبد أثرها في المياه، ثم انقطعَ. وهكذا، بدأت الفارالون رحلتها في البحر. ولأن مرفأها على مقربة من القناة المائية، حرفَ ديفز مسارها عن القناة، حتى أثناء تقدمها السريع فيما بين نهاية رصيف الميناء والحيّز المرجاني، حيث تموَّر أمواج البحر من كلا الجانبين.

انطلقتْ الفارالون عبر مضيق من الكتل الجليدية ذات اللون الأزرق نحو البحر، وحالما شعر القبطان باهتزازاتها تحت قدميه، تهللت روحه فرحًا.

حينها، ألقى نظرة صوب الكَوْثَل (29)، ورأى سقوف أبنية بابيت يتغير موقعها من الضفة، وجبال الجزيرة ترتفع عاليًا في أعقابهم.

لم ينتهوا من ساحل بابيت وأهوال راية الوباء بعد، حتى تناهى إلى الأسماع أصوات صراخ وهرولة في منتصف المجرى المائي. فشاهدوا رجلًا يثب على درابزين السفينة، رفع ذراعيه فوق رأسه، أحَنى جسده إلى الأمام، وغاص في البحر.

حافظ على مسارها الحالي، صاحَ القبطان، تاركًا أمر الدفة لهويش.

وسرعان ما شقَّ القبطان طريقه وسط رجال الكاناكا، ثم دار حول وتد تثبيت حبال السفينة.

- أيرغب أحد آخر بالعودة إلى الساحل؟ زمجر القبطان، فبثَّ دوي صوته الذي لا يقل ضراوة عن السلاح الجاهز في يده، بثَّ الرعب في قلوب الجميع.

وبكل بلاهة، أخذ الرجال يحدقون إلى رفيقهم الهارب، الذي ظهر رأسه الأسود من بين المياه، وهو يسبح متجهًا نحو الساحل. وفي غضون ذلك، مخرتْ السفينة البحر كأنها عداء انطلقَ في ميدان، وأصبحت في خضم العباب الهائج للمحيط الشاسع، ورذاذ البحر يهب من الجانبين.

- لم يكن سلاحي جاهزًا، يا لي من أحمق! هتفَ ديفز:

- حسنًا، بدأت رحلتنا في البحر بنقص في الطاقم، ليس بيدنا حيلة. تعوزكَ اليقظة لمثل هذه الأحداث يا سيد هاي.

-لا أدري كيف سنمضي في هذا الأمر، قال هيريك.

- سنمضي. بالنسبة لي، لن أحتمل وجودي في تاهيتي بعد الآن.

وبشكل عفوي، استدار كلاهما إلى مؤخرة السفينة.

كانت الجزيرة الجميلة تتكشف وتمتد من قمة جبلية إلى أخرى. وأما جزيرة موريا فقد كشفت عن قممها المتفرعة، وما تزال السفينة تنطلق بين مياه البحر الشاسع.

- تخيَّل! صاح القبطان بالتفاتة في صباح البارحة، رقصتُ مثل كلب البودل من أجل الحصول على وجبة إفطاري!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس:

حمولة الشمبانيا

تمَّ ضبط اتجاه السفينة في عين الريح لاجتياز جزيرة موريا من جهة الشمال، كان القبطان ديفز جالسًا في المقصورة برفقة خريطة ومسطرة وصور توضيحية مصغرة.

انعطفْ شرقًا لنصف ميل حالًا، قال القبطان لهيريك وهو يرفع عينيه عما يشغله، ثم أضاف:

- سيد هيريك، يجدر بك الانتباه للتقدير الاستدلالي للسفينة (30)، أريد كل ياردة تجري بها الفارالون وكل دورة ولو كانت بمقدار قيد أنملة. أبسط إهمال وسوف نصطدم بخليج صغير مباشرة خلال عبورنا أرخبيل تواموتو الخطير، وهذا أمر قاب قوسين أو أدنى من حدوثه على الدوام. والآن، إن هبّت هذه الرياح التجارية الجنوب-شرقية من الجنوب الشرقي، وهو ما لا أعتقده، فنأملْ أن نكون قد تجاوزنا نصف المسافة من مسارنا. وهذا سيعتمد على طقس فاركافكا، ثاني أكبر جزر هذا الأرخبيل.

- نعم يا سيد، هذا ما يتعين علينا فعله فيما لو حادت السفينة إلى مسار متعرج، سوف ينقلنا ذلك عبر هذا الوحل الجليدي الذائب للجُزر الصغيرة إلى ناحية أصفى: أترى؟

وأظهرَ له القبطان هذا واضحًا على الخريطة، حيث حددتْ مسطرة القياس مشكلة الأرخبيل.

- وددتُ لو كان الوقت ليلًا؛ لأتمكن من عكس مسارها، إننا نبدد الوقت وما زلنا نتَّجه شرقًا. حسنًا، سنبذل قصارى جهدنا، وإن لم نصل إلى بيرو، سوف تكون وجهتنا الإكوادور، كلاهما سيّان. وكما أظن، فقد انخفضت قيمة الدولار دون أيّ تفسيرات تُذكر، يا لها من مؤسسة لافتة للنظر، هذه السيدة المدعوة بأمريكا الجنوبية.

في ذلك الحين، تلاشت ملامحْ تاهيتي، وأصبحتْ خلفهم، وما زالت جبال موريا المتفرعة تلوح منتشرة بالقرب منها، تطوقها مثل إكليل بلونها الداكن الغريب، وهي تنتصب أمام جمال أشعة الشمس الذهبية للغرب.

حينها، أيقن القبطان ابتعاده عن الجزيرتين، وبدأ جهاز قياس سرعة السفينة عمله.

وبعد نحو عشرين دقيقة، وبينما كان سالي دي يقترب من نهاية ساعات مناوبته، وهو يبتعد عن الدفة باستمرار ليلقي نظرة على ساعة المقصورة، أعلن بصوت عال جرس الرابعة (31).

وكان الطاهي يظهر بين حين وآخر وهو يحمل صينية الحساء إلى المقصورة.

- أظن بأنني سأجلس معك، أرغب في الحديث إليك، قال ديفز لهيريك.

- وبحلول الوقت الذي أنتهي فيه، سيعم الظلام، وسوف نزج بالهوكر (32) ونربطه بإحكام في عين الريح صوب أمريكا الجنوبية.

في المقصورة، جلس هويش عند إحدى زوايا الطاولة أسفل الفانوس مباشرة، وبجانبه زجاجة شمبانيا.

- ما هذا؟ من أين أتى بالزجاجة؟ سألَ القبطان.

إنها شمبانيا، وحصلتُ عليها من العنبر الخلفي، إن أردتَ معرفة ذلك أجاب هويش الذي شربَ قدحه.

- لن يحدث ذلك أبدًا قال القبطان -البحار التاجر- الذي بانَ على وجهه فزعٌ واضحٌ من اقتحام هويش للحمولة، وإفسادها على متن تلك السفينة المسروقة.

- بألاعيبكَ هذه، لن يأتينا أي قدر من المنفعة.

- لك هذا يا عزيزي، قال هويش.

- سيظنّ الطاقم، بأننا متصافون، ولكن انظر، لقد زججتَ بي في هذه المهمة بمنتهى اللطف، أليس كذلك؟ ينبغي عليّ الصعود إلى ظهر السفينة، وأن أتولى توجيه الدفة بينما يجلس كلاكما هنا فتهذران وتُسرِفان في الشراب، وينبغي أن أنتحلَ لقبًا بينما أخاطبكَ أنتَ بـ سيديوهو بـ السيد.

- إذن اسمعني يا قبطاني: سوف أكرع من هذه الشمبانيا كما يحلو لي، وإلا فلن تنفع معي مبرراتك، صدقني! وأنت تعرف حق المعرفة، بأنَّ ما من بارجة هنا في الأنحاء، لتهددني بها

ذُهل ديفز ممَّا سمعه، فقال بصوت واهن:

- اضطررتُ إلى دفعِ خمسين دولارًا من أجل الحمولة. لن يحدث ذلك أبدًا.

- ولكنه حدث فعلًا، كما ترى. خذْ، جرِّب رشفة منه، إنه في غاية الروعة!

وهنا، اتخذ القبطان خطوة جريئة من دون مقاومة أخرى، وفيما يبدو سيكون تصرفًا خطيرًا لا رجعة فيه، ملأ القبطان قدحَهُ، وعبَّه عن آخره.

- ليتها بيرة قالَ القبطان متنهدًا، لكن لا مراء في أنها من النوع الممتاز، وفوق ذلك ثمنها بخس. والآن يا هويش، حانَ وقت مناوبتكَ. هيا انصرف.

كسبَ هذا الصعلوك الحقير اللعبة، فأخذ يضحك مبتهجًا، ثم أجاب القبطان:

- نعم نعم يا سيدي، وترك الرجلين ليأكلا طعامهما.

- حساء البازلاء! هتفَ القبطان، اللعنة عليَّ لو فكرتُ بتناولها مرة أخرى!

بقيَ هيريك متسمرًا في مجلسهِ وقد غلَّفه الصمت، فبالنسبة له، كان شيئًا مستحيلًا بعد كل هذه الشهور من العوز الشديد، وهو يحدوه الأمل لشم رائحة الأطعمة البحرية المتبلة، دون أن يشتهي تلك الشمبانيا. فسالَ اللعاب من فمه توقًا للشعور بمذاقها. ولم يكن الأمر أقل استحالة بعد أن شَهِد الجلبة التي حصلت منذ قليل بين هويش والقبطان، وألا يعي بفجاجة مباغتة، عمق الدوامة التي أقحمَ نفسه فيها. لقد صار لصًا بين مجموعة لصوص وكان يدري ويُذكر نفسه بذلك أيضًا. لم يعد بإمكانه لمس الحساء. وإن كان مضطرًا للقيام بحركة، مهما كانت، فلا بد أن يغادر الطاولة، ويلقي بنفسه من على متن السفينة وأن يغرق، كرجل شريف.

- تبدو مريضًا أيها المسن، تناولْ قطرة من هذه الشمبانيا قال القبطان.

كانت الشمبانيا المعتَّقة لسنوات، والتي تُرغي وتفور في القدح بلونها الذهبي الزاهي، وبصوت فورانها المفعم بالحياة، قد سلبتْ لبّهُ.

- لقد فاتَ الأوان على الحيرة قال لنفسه.

ودون أن يشعر، وجدَ القدح بين يديه، وأخذ يكرع منه، بلذة غير قادر على كبح جماحها. وبرغبة في المزيد والمزيد، عبَّ القدح حتى آخر قطرة منه، وأنزله من فمه بعيون متلألئة.

- بعد كل ما حدث، ثمة شيء ما في هذه الحياة يستحق العيش من أجله. لقد نسيتُ كيف كانت الحياة، ولكن حتى هذا الأمر، يستحق العناء. ثمة نبيذ، طعام، وثياب نظيفة جافة، وكل ذلك يستحق أن يُشنق المرء من أجلهِ حتى الموت. أخبرني شيئًا واحدًا يا قبطان؛ لمَ لا يتحول سائر البشر المُعدَمين إلى سُراق وقُطّاع طرق؟

- كُف عن ذلك يا هيريك، أجابَ القبطان.

- لا بد أن يكونوا بارعين في ذلك، صاحَ هيريك، ثمة شيء بداخلي يفوق قدرتي على الاستيعاب. فكّر في ذلك الحصن الذي لبثنا فيه طوال تلك الفترة. لنفترض أنهم أرسلوا في إثرنا سفينة أخرى بشكل مفاجئ لتعيدنا إلى حيثُ كنا! وفيما قال ذلك ارتجفت جوارحه كما لو أنهُ أصيب باختلاج عصبي، ودفنَ وجهه بين يديه المتشابكتين.

- هيه، ما خطبكَ؟ صاح القبطان، لكنهُ لم يتلقَ ردًا سوى اختلاجات كتفي هيريك، وبالتالي اهتزاز الطاولة التي كانا يجلسان إليها.

- هاك، تناول المزيد من الشمبانيا، هيا اشربْ إنني آمرك، ولا تبدأ بالبكاء بعد أن تجاوزتَ مرحلة الخطر.

- إنني لا أبكي! قال هيريك، وقد رفع وجهه مبديًا عينيه اللتيْن لم تذرفا دمعة واحدة، إنَّ الأمر أسوأ من البكاء، إنه من التفكير بأهوال تلك المقبرة التي هربنا منها.

فأجابه ديفز بلطف:

- هوِّن عليك، وتناول حساءكَ، سوف تشعر بتحسنٍ كبير. لقد كنتَ منهارًا بالكامل، ولم يكن بوسعكَ الصمود في وجه ذلك الحالً ولو لأسبوع واحد.

- وهذا هو أسوأ ما في الأمر. أسبوع آخر وكنتُ سأقتل أحدهم مقابل دولار، يا إلهي! وها أنا أدرِك ذلك ومازلتُ حيًا؟ يا له من حلم بغيض هذا الذي عشته!

- رويدك رويدك! هوِّن عليكَ يا بنيّ، هيَّا تناول حساء البازلاء، الطعام، هذا كل ما تحتاجه الآن.

وبالفعل، أراح الحساء أعصاب هيريك المشدودة، وأعاده إلى وعيهِ. وبرفقة كأس آخر من النبيذ الأبيض وقطعة من لحم الخنزير المخلل والموز المقلي، حتى اكتملَ ما بدأه الحساء. فتمالكَ نفسه مجددًا، وأصبح قادرًا على النظر في وجه القبطان.

- لم أكنْ أدري بأنني منهارٌ إلى هذه الدرجة!

- لقد كنتَ مركونًا كما لو أنكَ صخرة طوال اليوم، والآن بعد أن تناولتَ غداءً جيدًا، ستصير مركونًا كالصخرة من جديد، أجابَ ديفز.

- نعم إنني مركونٌ بما فيه الكفاية الآن، لكنني ضابطُ سفينة من ذلك الصنف المثير للريبة.

- يا للهول! إنَّ كل ما عليكَ فعله هو أن تتنبَّه لمسار السفينة، وأن تتجنب الأخطاء قدر الإمكان. بوسع طفل صغير القيام بذلك، فما بالكَ بخريج جامعي مثلكَ؟ ليس ثمة ما يُخيف على متن سفينة شراعية عندما تتقدم وتواجه ذلك الخوف، وتقف على المشكلة. والآن، فلنذهبْ ونعكس اتجاه السفينة. أحضرْ معك السجلّ، يتعين علينا البدء بتقدير موضعنا على الفور

تمت قراءة سرعة المسافة المقطوعة منذ المغادرة من مسجل السرعة بمساعدة ضوء صندوق البوصلة، ثم ثَّبتوا قراءاتهم في السجل.

استعدّوا لعكس مسارها، سلِّمني الدفة أيها الرجل الأبيض، وجهّز حبل الشراع الرئيسي. ارفعْ حبال الصواري، ثم عُد إلى المقدمة، وأفرِد الأشرعة الأمامية

- نعم يا سيدي، أجاب هيريك.

- أكُلُّ شيء آمنٌ في المقدمة؟ استعلمَ ديفز.

- كل شيء آمن يا سيدي.

- تأهبوا، فالدفة على جانب السفينة المحجوب عن الريح، صاح القبطان:

- ابذل قصارى جهدك وشدَّ الحبال جيدًا قبل أن تعكس السفينة اتجاهها. أبعدْ قدميك عن البكرات، وجَّه القبطان الأمر لهويش.

ثم، باغتت هويش ضربة قوية وألقته منبطحًا على ظهر السفينة، ثم حلّ القبطان مكانهُ.

استجمعْ نفسكَ، وأبقِ الدفة ثابتة قدر الإمكان، صرخ القبطان مزمجرًا. أيها الأحمق، هل تودُّ أن تُقتَل يا رأس الخشبة؟ أفرد الشراع المثلث ثم صرخ بعد لحظات: سلّمني الدفة، وتحقَّق إن كان بمقدورك ثني حبل الشراع ذاك.

- إلا أنَّ وقف هويش ونظر إلى ديفز بوجه تعلوه ملامح الشر، وقال له: أتعلم بأنكَ ضربتني وأوقعتني أرضًا؟

- أتعلم بأنني أنقذتُ حياتك؟ ردَّ القبطان دون أن يتكرم بالنظر إليه، بل ظلت عيناهُ تتنقلان بين البوصلة والأشرعة.

- ماذا سيكون مصيركَ لو أنَّ حبال ذلك الصاري ارتختْ وأصبحتَ كومة من العظام تحت منصتهِ؟

- لا يا سيد، لم تعد نافعًا بعد الآن، ولا أريدكَ على حبل الشراع الرئيسي، فمرافئ المدن تعج ببحارة ماهرين يؤدون هذا العمل وهم يتقافزون على قدم

واحدة -أو ما تبقى من أقدامهم- والآخرون موتى. اضبط حبل قاعدة الصاري يا سيد هاي. ضربتكَ أليس كذلك؟ من حسن حظك أنني فعلتُ!

فقال هويش بتأنٍّ:

- وأنا قلتُ، قد يكون هناكَ سببٌ خلف ما فعلتهُ، وها هو السبب بالفعل وأدار ظهره بشكل متقن للقبطان ودخل المقصورة.

من حيث تناهى إلى أسماعهم دوي فتح زجاجة شمبانيا وانطلاقة السدادة الفلّينية، يرافق فترة استراحته.

توجَّه هيريك صوب مؤخرة السفينة حيث القبطان، وقال له:

- ما هو وضع السفينة حاليًا؟

- جيدة كما توقعتُ، إنها تتجه شرق-شمال على بعد نصف ميل.

- بشأن ما حصل الآن، ماذا سيقول البحّارة؟

- أوه، لن يفكروا ولن يقولوا شيئًا، لن يولوا اهتمامًا لمثل هذه الأمور، أجاب ديفز.

- ثمة خطب ما، بينك وبين .. أليس كذلك؟

فأجاب القبطان وهو يهز رأسه:

- ذلك الوضيع القذر، لكن طالمًا نبقى صامِدَين كلانا، فلا أكترثُ لما يفعله.

كانت سماء الليل صافية، فتمدد هيريك في الممر، وحركة السفينة تهدهده كطفل صغير، وعلاوة على ذلك، كان ما يزال مغمورًا من أول وجبة سخية بعد كل هذه الفترة الطويلة من المجاعة. ولوهلة، عاد لوعيه كأنما من نوم عميق على صوت دايفز وهو يصرخ:

- ثمانية أجراس! حان وقت مناوبتك.

فنهض من غفوته ببلاهة، وأخذ يترنح صوب مؤخرة السفينة حيث تسلَّم الدفة من القبطان.

- في عين الريح. إنها تهب كنسيم طفيف الآن، ولكن عندما تشعر بأنها أصبحتْ تهب على نحو أشد، ابذلْ أقصى ما تستطيع لجعل مسارها مواجهًا للريح، وأبقِ الأشرعة ممتلئة.

مشى القبطان باتجاه الحجرة، ثم توقف وحيّا رجال السلوقية (33).

- هل أجد بحوزتكم شيئًا مثل كُونْسِرْتِينَة (34)؟ أوه، طوبى لك يا عم نيد، هلّا أحضرته لمؤخرة السفينة؟

وبينما كان هيريك يقود السفينة الشراعية على أقل من مهله، وهو يراقب الأشرعة المنيرة بضياء القمر، ويغالب نعاسه. حتى باغته صوت لحن متقن ينبع من جهة المقصورة تلاه صوت زجاجة شمبانيا ثالثة وهي تُفتَح. تذكر هيريك سفينة حارسة البحر وجُزُر إيبون المرجانية. وسرعان ما صدحت ألحان الأكورديون الصغير، تلاه صوت القبطان وهو يغني:

يا حلوتي.. سوف نرقص ونرقص ونرقص

بجيوب مليئة بالمال

سنرقص ونرقص ونرقص

حتى نسقط على رصيف الميناء

سأرقص مع كيت، وسيرقص توم مع سال،

عندما نعود من جنوب أمريكا.

وهكذا انتشرت الألحان الرقيقة لتلك الأغنية في الأجواء، وتناهتْ إلى أسماع الحُرّاس في السلوقية، الذين توقفوا عند الأبواب الأمامية ليصغوا بشكل أفضل. بينما لزم العم نيد مكانه تحت ضوء القمر، وهو يومئ برأسه مرارًا وكأنه يستجيب لسطوة اللحن. وأما هيريك فقد كان يصغي مبتسمًا من مكانه عند الدفة وبدا، وكأنه نسي مخاوفه لبعض الوقت، من أغنية لأغنية. ثم سُمع صوت سحب فلينة أخرى، تلتها جلبة شديدة كأنما خلاف يصدر من الثنائي الجالسين في المقصورة. وعما قريب، بدا كما لو أن تلك الخلافات قد تم تسويتها. لأنَّ الصوت الذي استهلَّ الغناء الآن برفقة القبطان، كان صوت هويش.

عاليًا في المنطاد يا أولاد

عاليًا في المنطاد

فيما بين النجوم الصغيرة

التي ترصع السماء

ثم في جولة حول القمر..

وفجأة، تغلبت على هيريك موجة غثيان عند الدفة، وبضعة تساؤلات. حيث تساءل: لمَ يفترض باللحن والكلمات-التي كتبها المؤلفون ببراعة لا شك فيها- وصوت القبطان ولهجته، أن تثير أعصابه كما لو أنها مبرد يشحذ أسنان المرء؟ كان مشمئزًا لمجرد التفكير برفيقيه وهما يرشفان الخمر المسروق، يتشاجران، يُحوزقان، ثم يفيقان. فيما كانت أبواب السجن تستعد لابتلاعهما عما قريب.

هل بعثُ شرفي سدىً؟ قال لنفسهِ، ونيران الغضب والعهد متقدة في صدره. الغضب على رفيقيه، والعهد على المضي بهذا العمل إن أمكن المضي. أن ينتزع أرباحه من عمل مخزٍ، بما أن الخزي الذي أشرك نفسهُ فيه، أصبح الآن، وصمة لا مفر منها إطلاقًا.

وبالحديث عن العودة إلى الوطن من أمريكا الجنوبية؛ كيف سيمكنه الرقص احتفالًا بالعودة لأوطاننا -بجيوبه المليئة بالمال؟

يا حلوتي.. سوف نرقص ونرقص ونرقص

بجيوب مليئة بالمال

وهكذا، ظلت كلمات الأغنية ترن في ذهنه، حيث تجسدت محبوبته فيه بكل وضوح، وتجلى المرفأ أمامه، الذي عرفه من السد المضاء بالمصابيح. ورأى أضواء جسر باترسي تعم النهر وتتخطى كآبته.

ومن خلال ما تبقَّى من أوهامه، وقف مبهورًا يستعرض شريط الماضي. لطالما كان صادقًا في حبه لتلك الحبيبة، إلا أنهُ لم يجهد عقله كثيرًا لتذكُرها. وبتراكم محن الحياة على روحه، عامتْ تلك الحبيبة في بقعة قصية من سماء ذاكرته، مثل قمر معلّقٍ في أفق ضبابي. وبين الرسالة الوداعية تلك، وذلك الأمل الوضيع الذي باغته وجَنَح نحوه في خضم محنته، وذلك المشهد المتغير من حياته، حيث البحر، الليل والموسيقى، كل ذلك حرَّك فيه شعورًا شجيًا، أثارهُ في صُلبِ رجولته.

سوف أستردُّ حبَّها قال لنفسه وهو يصرُّ على أسنانه سواء كنتُ شخصًا نزيهًا أم وضيعًا، ما يهم هو أن أظفر بحبها.

- أربعة أجراس يا سيدي الضابط، عاد هيريك إلى وعيه بهذه الكلمات التي صدرت من العم نيد.

- انظر إلى الساعة يا عم، قال هيريك. فلم يكن لينظر بنفسه، تهرَّبا من رؤية السكّيرَين.

- لقد تجاوزتَ وقت مناوبتكَ يا صديقي، أجاب الرجل الهاوايي.

- ذلك أفضل بكثير يا عم، أجاب هيريك. ثم سلَّمه الدفة، ولقَّنه التعليمات نفسها كما تلقَّاها من القبطان. ولم يمشِ سوى خطوتين حتى تذكَّر سجل التقدير الاستدلالي للموضع، وأخذَ يتساءل: - كيف كانت السفينة متجهة؟ لم ينتبه لهذا الأمر، أو بالأحرى، نسيهُ.

وهنا تذكر عدم كفاءته الأزلي، فاتّقدَ غضبًا من رأسهِ حتى أخمص قدميه. وتحتَّم عليه أن يملأ السجل بتخمين التقديرات.

لن يتكرر الأمر، مطلقًا عاهدَ نفسه بحنق مكبوت، لتقصيرهِ في عمله. لن يحدث مجددًا، لا ينبغي أن يكون الذنب، ذنبي أنا، لو قُدِّر لهذه المهمة الفشل.

وفيما تبقَّى من مناوبته، وقفَ بالقرب من العم نيد، وهو يقرأ وجه البوصلة كما لو أنه لم يقرأ خطابَ محبوبته منذ زمن.

وطوال الوقت، يتناهى إلى مسامعه من داخل المقصورة، صوت الأغنيات والصخب والضحكات الهزلية الخشنة، ومن حين لآخر، يسمع فرقعة السدادة الفلينية لزجاجة شمبانيا، ويثير انتباهه. وعندما حلَّ منتصف الليل، حانت معه استراحة مناوبي الجانب الأيسر، ظهر هويش والقبطان من سطح المؤخرة، بوجوه متوردة وخطوات غير متزنة. كان الأول محمَّلًا بزجاجات الشمبانيا، والآخر يحمل قدحين من الصفيح. مرّ هيريك بالقرب منهما دون أن ينبس ببنت شفة. فحياه كلاهما بنبرات هزلية وبأصوات خشنة من فعل النبيذ، إلا أن هيريك لم يرد التحية. شتماه لفظاظته معهما، لكنه لم يعرهما أي اهتمام مع أن معدته كانت تختض لشدة سآمته.

فأغلقَ باب الحجرة وراءه، وألقى بنفسه على تخت في المقصورة، لا لينام بل ليفكر ويغرق في اليأس. ومع ذلك، كان نادرًا ما ينقلب مرتين على تختهِ المتقلقل، قبل أن يناديه صوت القبطان المخمور، فيضطر للصعود على سطح السفينة ليبدأ مناوبته الصباحية.

رسمتْ الليلة الأولى أنموذجًا لأولئك الذين سيحذون حذوها. فالقبطان وهويش سكارى بالكامل، حيث لم يدم صندوقان من الشمبانيا النادرة سوى أربع وعشرين ساعة. وبدا وكأنَّ هويش يحيا على الفائض من ذلك النبيذ، فهو لم يكن واعيًا ولكن، لم يكن ثملًا بالكامل. وسرعان ما برأ من مرضهِ بفعل الطعام الجيد وهواء البحر النقي، وبدأ يسترد عافيته ويمتلئ جسدهُ بحيث يمكنه الاعتماد على نفسه.

لكن بالنسبة لديفيز فقد ساءتْ الأمور، وأصابه الوهن، وتحول من شخص ذي حسٍ منظم إلى هيئة يغلفها التشتت. كان ممددًا طوال اليوم على التخت بقميص غير مزرر، يحتسي الخمر ويقرأ روايات. ومن بين حماقاته، أنه جعل من ساعة مناوبات المساء وقتًا صاخبًا للعربدة ومعاقرة الخمر على مؤخرة سطح السفينة. بحيث كان من الصعوبة بمكان التعرف على ذاك البحّار المعروف بحنكته وبحزمه ونشاطه في طرقات بابيت. إلا أنهُ نجح في إحكام السيطرة على نفسه إلى حد معقول، لكي يتأكد من حساب خطوط العرض حتى مغيب الشمس. ثم يبدأ بالتثاؤب ويمحو حساباته. وما أن يلفّ الخريطة، حتى ينصرف ليزجي الوقت بالانغماس في ملذاته الدنيئة أو في هجوعه الأناني.

كان قد أهملَ كل وجه من وجوه مهامهِ كقبطان، باستثناء الحفاظ على قواعد صارمة في الحضور حول مائدة العشاء.

وكان هيريك يسمع مرارًا وتكرارًا، صوتًا من مؤخرة السفينة يستدعي الطاهي، فيراه بعد قليل وهو يعدو حاملًا عُلب الطعام الطازج، أو يخرج من هناك مرة أخرى حاملًا بيده وجبة طعام تمَّ شجبها بالكامل. وهكذا، كلما غرق القبطان في الثمالة، كلما فقد حاسة ذوقه وازداد سوءًا. كان للقبطان كرسي بوسن (35) معلقًا بجانب درابزين السفينة، وذات يوم عند الضحى، خلع بنطاله، ونزل من على السفينة حاملًا معه وعاء من الدهان وهو يقول: لم ترُقني الطريقة التي طُليتْ بها هذه السفينة الشراعية، ولم يعجبني الموقع الذي خُطَّ اسمها فيه. لابد أن يكون الاسم للأسفل قليلًا.

لكنَّه سئمَ من ذلك العمل في غضون نصف ساعة، فمضتْ السفينة في طريقها وعلى مؤخرتها بقعة لونية متناقضة، وقد انمحى جزء من اسم فارالون وبقي جزء منها.

رفض القبطان حضور مناوبة، لا في منتصف النهار ولا في المناوبات الصباحية. حتى عندما يكون الطقس مواتيًا للإبحار.

فقال متسائلًا وهو يضحك: من سمع يومًا بقبطان خبير، يؤدي نوبة حراسة بنفسه؟

وأما بالنسبة لحسابات تقدير موضع السفينة التي سعى هيريك جاهدًا لتسجليها، فلم يكن ديفز ليوليها أدنى قدر من الاهتمام، ولم يقدِّم لهيريك أدنى قدر من المساعدة.

- ما لنا بالحسابات الاستدلالية لموقع السفينة؟ الشمس معنا وهي تشرق بانتظام وهذا كافٍ أليس كذلك؟ قال ديفز.

- ربما لا تستمر الشمس هكذا على الدوام، وقد أخبرتني بنفسكَ أنك لستَ واثقًا من الميقاتية اعترضَ هيريك.

- أوه.. لا غُبار على دقة الميقاتية !! صاح القبطان.

- أسدِ معروفًا لي أيها القبطان قال هيريك بجفاء، إنني حريص على توثيق هذه الحسابات التي هي جزء من مهمتي، لستُ أدري ما الذي أضعه في الحسبان؟ ولا كيفية وضعهُ! وأنت تعرف خير المعرفة بأنني ملاح تعوزه الخبرة. أرجو مساعدتي.

- ليس من شيمي إحباط عزيمة ضابط سفينة مثلك قال القبطان، وهو يفتح الخريطة مرة أخرى، لأن هيريك كان قد استولى عليها خلال مهامه اليومية، فيما كان القبطان ما يزال مخمورًا إلى حد ما.

- ها هي ذي، انظر بنفسك. أي اتجاه تهب منه الريح من الغرب إلى الغرب فهي ريح شمالية-غربية، وبأية مسافة تقطعها بدءًا من الخمسةِ إلى خمسةٍ وعشرين ميلًا. هذا ما يقوله هذا المخطط البحري! أرى بأنك لا تتطلع إلى المضي قدمًا والتفوق على غرار أقرانكَ من البريطانيين؟

- إنني أحاول تأدية واجبي يا قبطان براون، قال هيريك الذي احتقنَ وجهه بدماء الحنق وينبغي أن أحيطكم علمًا بأنني شخص لا يروقه الاستهزاء به.

- ما الذي تريده بحق السماء؟ صرخ ديفز غاضبًا، اذهب وألقِ نظرة على أثر المَخر خلف السفينة إن كنتَ تحاول القيام بواجبك، ألا يجدر بك التحقق من ذلك؟ أعتقد أنه ليس من شأني أن أذهب وأحشر رأسي في مؤخرة السفينة؟ أليس هذا شأنكَ؟ تود أن تعرف ما خطبكَ يا رفيقي العزيز، ألا أزعجك أن أذكرك بالحفاظ على العهد الذي قطعتهُ لرفيقك؟ إنك شخص متعجرف وقح، وهذا هو عيبكَ. كفَّ عن إزعاجي يا سيد هيريك.. المحترم.

ثم مزَّق أوراق حساباته، رماها على الأرض، وغادر المقصورة.

- إنّهُ يتحول إلى شخص مزعج، لكنه يعمل بجد، أليس كذلك؟ سأل هويش ساخرًا.

- إنّهُ يغتر بنفسه، فهو يظن بأنه أجدى نفعًا وأعلى مستوى من رفيقيه. هذا ما يزعج السيد هيريك المحترم، قال القبطان وقد احتدمَ غضبه،

- أيحسبني لا أعرفه عندما يفور غيظًا ويصبح مثل عباب هائج؟ ولا أنتبهُ إليهِ عندما يأبى مجالستنا؟ أيظنني لا أستوعب ذلك؟ وعندما لا يتحدث بكلمة

لطيفة واحدة؟ سوف أتصرف مع ابن العفريتة ذاك كما ينبغي. أقسم بالرب ياهويش، سأريه فيما لو كان أفضل من جون ديفز

على رسلك مع الألفاظ يا قبطان قال هويش، الذي كان في العادة، أقل ثمالة من ديفز. وعلى مهلك مع الخمر ياعزيزي.

- حسنًا سأفعل يا هويش، إنك رجل ذو معدن صالح يا صديقي. صحيحٌ أنني لم أستلطفك في بادئ الأمر، لكنكَ محق فعلًا كما أظن. لنفتح زجاجة أخرى، قال القبطان.

وفي ذلك اليوم، سكر القبطان على نحو أكثر استهتارًا من أيّة مرة أخرى، ربما لأنه كان منفعلًا بسبب المشاحنة التي وقعت بينه وبين هيريك. وبحلول الساعة الرابعة افترشَ تخته وهو غائب عن الوعي. قبالته، جلس كلٌ من هيريك وهويش على انفراد ليتناولا العشاء، الواحد تلو الآخر أمام جسد القبطان المحمر وصوت شخيره. وإن كان المشهد قد قضى على جوع هيريك، فإنَّ ظلال تلك العزلة كان عبئُها ثقيلًا على روح هويش، لأنه نادرًا ما كان يغادر طاولة الطعام قبل أن يتملق لرفيقه القبطان ويكسب رضاه.

كان هيريك يوجّه دفة القيادة عندما اقترب منه هويش سرًا، واتكأ على صندوق البوصلة.

- إنني أرى بأننا لا نبدو وكأننا رفاق نوعًا ما، يا رجل قال هويش.

حرَّك هيريك عجلة الدفة بضع درجات دون أن ينبس ببنت شفة. فيما كانت عيناهُ تتنقلان بين مؤشر البوصلة والجهة المعرضة للريح من الشراع الأمامي، فقد مرّ بنظره مرور الكرام على هويش دون أي اعتبار. إلا أنَّ هويش كان شخصًا بليدًا للغاية، الأمر الذي يجعل من الصعوبة بمكان، أن يُطيق المرء صحبته. كانت فكرة التحدث على انفراد مع هيريك، في هذه المرحلة من علاقتهما، تحمل في طيّاتها دوافع معينة، لفردٍ بمثل شخصيته. وهناك الخمر أيضًا، الذي يحوِّل بعض الرجال الي سِكّيرين مرهفي العواطف، لكنَّ تأثيره على هويش مختلفٌ، لأنهُ يتركه سِكّيرًا فظًا، متبلدَ الشعور. ولكي يتخلى عن غايته، فإن ذلك غالبًا ما يتطلب لكمة على وجهه لتحقيق الهدف.

- إنك تقوم بعمل جيد، بينما ديفز غارقٌ في سُكرهِ أليس كذلك؟ لا بد من الاعتراف بأنك جعلته يعبُّ الخمر كأنه سِكّير من الدرجة الأولى. لم يُرقهُ البتة ما حصل بينكما اليوم، لقد تصرَّف بفظاعة بعد مغادرتك، فقلتُ له: تمهَّلْ، رويدكَ مع النبيذ، كان هيريك محقًا، وأنت تدرك الأمر، امنحهُ فرصة هذا ما قلتهُ لهُ بالضبط، لكنه أجابني: هويش، هلّا تطبق فمك؟ وإلا سأقتلع عينيك

الصغيرتين! .. حسنًا، ماذا عساي أن أفعلَ يا هيريك؟ لا يروقني الوضع أبدًا، يبدو لي وكأنَّ مأساة حارسة البحر تتكرر مجددًا.

تحدَّث هويش، فيما ما زال الصمت يلف هيريك.

- أتسمعني؟ إنكَ راضٍ عما قلتهُ أليس كذلك؟ قال هويش.

- ابتعدْ عن صندوق البوصلة، أجابهُ هيريك.

فألقى هويش نظرة فاحصة مطولة على هيريك، لقد بدا شكلهُ يتلوى وكأنه ثعبان على وشك أن يُضرَبْ. لذلك ارتدَّ على عقبيهِ، وعاد أدراجه صوب المقصورة، وفتح زجاجة شمبانيا أخرى. وعندما دُقَتْ الأجراس الثمانية، استلقى على الأرض بجانب تخت القبطان، وغطَّ في النوم.

ومن بين كل حُرّاس الجانب الأيمن من السفينة، كان سالي داي هو الوحيد من ظهر عندما قُرِعتْ الأجراس، فاقترح الضابط الأول أن يساعده في مناوبته، ويترك العم نيد ممددًا، لأنَّ الأمر قد يستغرق نهارًا كاملًا على سطح السفينة، وربما يمتد إلى ستَّ عشرة ساعة أخرى. بينما، وبمثل هذا الطقس المناسب للإبحار، فقد يتمكن من أخذ قسط من الراحة بين رفاق مناوبته ويخلد إلى النوم، تاركًا أمر إطلاق الشارة لهم فور رؤيتهم أية بادرة على العواصف.

حتى الآن، كان بإمكانه الوثوق بهؤلاء الرجال الذين نشأت بينه وبينهم علاقة وثيقة. ومن بينهم، العم نيد، الذي عقد معه محادثات ليلية طويلة، أخبره خلالها الرجل المسن بقصته المرّة عن النفي، المعاناة، وظُلم البيض القساة. ومن بين هؤلاء الرجال أيضًا، كان الطاهي، الذي كلما يرى هيريك متورطًا بمفردهِ في أمر ما من أمور القيادة، أعدّ له أطعمة مفاجئة، وأحيانًا غير مستساغة يُرغِم نفسه على تناولها. وذات يوم، وبينما كان يتابع تقدم السفينة، شعر بيد ودودة تُربّت على كتفه فجأة، ثم سمع تهويدة سالي داي وهو يقول له: إنكَ رجل صالح. فاستدارَ هيريك نحوه، وصافحَ الزنجي الصغير وهو يغص بعبرته. كانوا مجبولين على رّقة الفؤاد، مفعمين بالفرح ومباهج الطفولة. في كل يوم أحد، كان كل واحد منهم يُحضِر كتابه المقدس على حدة، لأن كل فرد منهم غريب عن الآخر، يتكلمون بلهجات تختلف حتى مع بعضهم بعضا، أما سالي داي فهو الوحيد من بينهم الذي يمكنه التحدُّث بالإنجليزية مع أسياد السفينة. كان كل واحد منهم يقرأ أو يتخيل بأنه يقرأ إصحاحه، حتى العم نيد وهو يضع نظّارات على أنفه. وكانوا يجتمعون معًا عند إنشاد الترانيم التبشيرية. وهكذا كانوا يشكّلون صورة حية بمثابة تقريعٍ قاسٍ، للمقارنة بين أهالي الجُزُر وبين الرجال البيض على متن الفارالون.

تذكّر هيريك عمله السابق، فشعرَ بالعار يجري في عروقهِ عندما رأى هذهِ النفوس المسكينة. فحتى سالي داي الذي ينحدر من قبيلة من آكلي لحوم البشر، والذي في أغلب الظن أنه من آكلي لحوم البشر شخصيًا، إلا أنه في غاية الالتزام لما خَبِرَهُ عن الخير والصلاح. وحقيقة أن هؤلاء السُذج ينظرون إليه بعين الفضل والمحاباة كانت بمثابة غمامة تظلل على ضميره. بحيثُ مرَّتْ عليه لحظات، كان يميل فيها للتصديق بأنه رجل صالح، بحسب ما يقوله سالي داي. لكن ذروة محاباته لم تكن لتظهر إلا الآن.

احتجَّ الطاقم بصوت واحد، قبل أن يدري هيريك بما ينوون فعلهُ. حيث احتشدوا جميعهم حول هيريك -المساعد الأول للقبطان- وهم يتوددون لهُ ويعاتبونه لقلة نومهِ، ويطالبونه بالنوم وأخذ قسط من الراحة، دون قلق على شيء. حتى الطاهي كان منفعلًا، وجاء متطوعًا للعمل بكامل رغبته.

إنهم على حق، يجب أن تنال قسطًا من الراحة. سيتولى الجميع مهامهم ويُتمّونها على أكمل وجه. كل رجال الطاقم يحبونك للغاية قال العم نيد.

شقّ هيريك طريقه بصعوبة من بينهم، وقد استغلقتْ عليه أبسط عبارات الامتنان، فأفسحوا له الطريق، وأخذ يمشي بمحاذاة حائط المقصورة الذي استندَ عليهِ وهو يغالب شعوره. فلحق به العم نيد وتوسَّل إليه كي ينال قسطًا من الراحة.

- إنكم تغمرونني بطيبتكم وبلطفكم. لكن لا جدوى من النوم يا عم نيد.

فأجاب الرجل المسن:

- أوه.. لا تنادني بالعم نيد! لا مزيد من العم نيد. اسمي هو تافيتا، ومعناه ملك الجزيرة، ماذا يدعى ذلك القبطان الهاوايي؟ وايزمان؟ كذلك يدعونني تافيتا.

كانت هذه المرة الأولى التي يُذكَرُ فيها اسم القبطان الراحل، وقد انتهز هيريك الفرصة للحديث عن ذلك. لكن ينبغي أن نوفر على القارئ، عناء فهم لهجة العم نيد الصعبة وأن نُبين له بلغة إنجليزية أقل تعقيدًا، خُلاصة ما يوشك على البوح به.

- لم تكد السفينة أن تعبر مضيق البوابات الذهبية (36) حتى اتّخذَ القبطان ومساعده الأول من السُكْرِ مهنة لهما، والتي بالكاد اعترضها المرض ولم يضع حدًا لها، غير الموت. فطوال أيام عديدة وأسابيع لم يصادفا يابسة ولا أية سفينة. وعندما أدرك الطاقم ضياعهم في خضم هذه الأعماق الهائلة برفقة قادة معتوهين، أفرطوا في شرب النبيذ هربًا من أهوال ما يحيط بهم.

وصلوا في نهاية المطاف إلى مشارف جزيرة منخفضة (37)، ودخلوها. ثم اتّجهَ وايزمان وويشارت إليها في قارب، حيث عثرا هناك على قرية عظيمة، قرية رائعة جدًا، تضم الكثيرين من سكان الكاناكا في ذلك المكان. غير أنهم جميعًا، جبابرة خطرونَ، وفي الجزء الخلفي من المستوطنة، سمع تافيتا أصواتًا كأنها نواح، تعلو وتخبو من الجزيرة.

- لا أحب التحدث عن تلك الجزيرة قال العم نيد، لقد سمعتهم يصرخون وكما أظن، مات الكثيرون منهم هناك!

- غير أنَّ فحوى ذلك النواح الوحشي كان غائبًا عن وايزمان وويشارت. وهكذا، طفقا يمرحان ويعربدان وقد ملآ بطونهما بالطعام وبالنبيذ، غير مكتَرِثَين لشيء، واحتضنا الفتيات اللواتي لم يملكا المقدرة الكافية لصدِّهن.

ثم انصرفا للانضمام بأصواتهما المخمورة، إلى عويل الموت -بحسب ما وصفوه دعوة لهما- ثم، دخلا تحت سقف بيت كان فيه حشدٌ هائل لأُناس جالسين بصمت.

ثم انحنيا أسفل طَنْف باب الدار (38) ودخلا بوجوه محمرة من شدة الضحك. وفي غضون دقيقة خرجا من هناك بوجوه متغيرة وبألسن صامتة كأنما أكلها القط. وبينما أخذت تلك الجمهرة من الناس تفسحُ الطريق لهما، استطاع تافيتا أن يرى، في ظلال البيت الداكنة، رجلًا مريضًا ينهض من على حصيرته برأس مأكول من الإصابة بالجدري. أطلق هذان البائسان ساقيهما مع الريح، وفرّا نحو قاربيهما دونما تردد، وهما يصرخان على تافيتا للإسراع نحوهما. حتى صعدا على متن السفينة بأقصى سرعتهما، ورفعا المرساة وحشدا البحّارة بالضرب وبالشتائم اللاذعة، للإبحار، إلى أن عادا إلى البحر، سُكارى مجددًا قبل غروب الشمس. وبعد أسبوع، ظل الرجلان حبيسي أعماق المقصورة.

سألَ هيريك تافيتا عن موقع تلك الجزيرة، فأجاب أنّهُ، بما فهمهُ من حديث الرجلين عندما عادا معًا من الشاطئ، فهو يظن بأنها لا بد أن تكون إحدى جُزُر الپاوموتس. وهذا في حد ذاته أمرٌ متوقعٌ بما فيه الكفاية، لأن ذاك الوباء الفتّاك -الجدري- اجتاحَ الأرخبيل الخطير في تلك السنة من الشرق إلى الغرب، لكن هيريك، اعتقد بأنه لمسار غريب انتشاره من سيدني ثم، تذكر النبيذ.

- ألم يكونا متفاجئين عندما وصلا تلك الجزيرة؟ سأل هيريك.

- أوه.. سمعتُ وايزمان يقول اللعنة! ما هذا المكان؟، جاءه الرد من العم نيد.

- هكذا الأمر إذًا؟.، لا أظنهما على دراية بوجهتهما قال هيريك.

- أظنُّ ذلك أيضًا، قال العم نيد، وأضاف مشيرًا إلى المقصورة حيث يهجع القبطان المخمور: ولا أظنه أفضل حالًا منهما.. فهو مخمور طوال النهار.

وهكذا، فإن الكلمات الأخيرة المبطنة للعم نيد أكملت الصورة لهيريك عن حياة وموت سلَفِه في المنصب، من خلال رحلتهم الممتدة التي كانت تعج بمعاقرة الخمور والسلوكيات الهمجية، والتي إبان إبحارهم، كانوا لا يعرفون ما إذا كانت هذه هي رحلتهم البحرية الأخيرة.

لم يكن يرى أمامه غير تصوّر لحظي مشكوك بهِ لأي وضع مستقبلي قادم، فكرة العقاب الذي سخر منه. ولكن بالنسبة إليه -كما هو الحال بالنسبة للجميع- ثمة رعب يعتمل تفكيره حول نهاية الرجل الأحمق. تمثّل الوباء في تفكيرهِ بالهيئة التي يتذكرهُ بها، وعندما قارنهُ مع المشهد الذي كان ماثلًا فيه، آخذًا بعين الاعتبار الموت الذي بدا وكأنه يرزح بثقلهِ على المركب، استولى عليه الذعر، ذلك الذعر الذي غالبًا ما كان بمثابة خرافة بالنسبة لهُ. لكنَّ الغريب في الأمر أن هذا الشعور لم يُربكه! فهو الذي أثبت لا أهلّيته في العديد من ميادين الحياة، حيث وجد نفسه في تلك اللحظة الراهنة وسط مهام لا يفقهها، أبدًا، ومن دون عون، وربما يُقال بأنها دون معالم معينة، وحتى الآن، تجاوزت التوقعات. فحتى سوء تصرفه المخجل وبوحهِ الصادم في تلك الليلة على الساحل، بدا ببساطة أنه يقوّيه ويؤازره.

كان قد باع شرفهُ، ولذلك، عاهد نفسه بألّا يُضِّيع ذلك سدى: لا ينبغي أن أكون سببًا في فشل هذه المهمة، قال لنفسه وفي صميم قلبهِ دهشة مما يقوله ويفعله شخصيًا.

ولا شكَّ أن شعور الغضب المضطرم فيه يشدّ من أزره، وممَّا لا شك فيه أيضًا، هو شعوره بطاقم السفينة الراحلين وما لاقوهُ، بالسفن التي أُحرِقتْ، بجميع الأبواب الموصدة إلا بابًا واحدًا، بابًا منيعًا في وجه كل من لا يعدو كونهُ مستضعفًا، وبمنتهى الكآبة، بوجه كل من لا يعدو كونه وضيعًا.

سارت الرحلة على نحو جيد لفترة من الزمن، حيث اجتازوا جزيرة فاكارافا باتجاه واحد، وجرت الرياح كما يشتهون من جهة الجنوب، يهب معها نسيمٌ نقيٌّ ثم أبحروا بين راناكا وراتيو، وواصلوا مسيرهم من المنطقة الشمالية الشرقية باتجاه شرق- نصف شرق سيرًا تحت الريح في جزيرتي بوكامارو المرجانية وهوندين، ولم يستقروا في أيٍّ منها. وفي حوالي 14 درجة جنوبًا وبين خط عرض 134 و135 درجة غربًا، استقبلَ السفينة طقس هادئ يرافقه بحر مائج إلى حدٍ ما.

رفضَ القبطان فكرة خفض مساحة الأشرعة المنشورة، تمَّ تثبيت الدفة، ولم يناوب الحراس، وبقيت الفارالون عائمة في مكانها وهي تتمايل فوق الأمواج التي ترتطم بها لثلاثة أيام متتالية في نفس المكان تقريبًا، وفقًا للملاحظة. وفي الصباح الرابع، قبل بزوغ الشمس ووضوح النهار بقليل، هبّ نسيم منعش على جناح السرعة. كان القبطان مخمورًا من الليلة السابقة ولم يكن صاحيًا عندما تمَّ إيقاظه، وحينما ظهر على سطح السفينة لأول مرة في الساعة الثامنة والنصف، كان من الواضح أنه قد أفرط في شرب النبيذ بالفعل وللمرة الثانية على الإفطار.

تفادى هيريك النظر إلى القبطان، وغادر المكان باستياء شديد من ذلك الرجل، أشد من استياء وجوده وسط البحار.

ومن خلال صوت أوامر القبطان العالية وغناء البحّارة عند الحبال، كان بإمكانه أن يرى من المقصورة أنهم ينشرون أشرعة السفينة، فتخلَّى عن مائدة إفطاره شبه الفارغة، وعاد إلى سطح السفينة مجددًا للتحقق من الشراع الرئيسي والشراع المثلث الأمامي للشراع العلوي. وخرج المناوبون والطاهي للإشراف على الشراع المشدود. وهكذا اتجهت الفارالون إلى مكان بعيد. وكانت السماء محجوبة بسحاب مضبّب تسوقه الريح، ومن موضع هبوب الريح، لوحِظت عاصفة تنذر بالسوء، تهب محلقة عاليًا، وهي تتسع وتصبح أشدّ حُلكة كلما ارتفعت.

أثار الخوف اضطرابًا، سرى في كافة أعضاء هيريك. بات الموت وشيكًا منه كما يراه، وإن لم يكن الموت، فالدمار يقينًا. ولو نجتْ الفارالون من تلك العاصفة المقبلة عليها، فلا بد أن تُخلّفها سفينة محطمة الصواري. وبذلك سوف تتبدد خططهم. وأما بالنسبة لهم، فسوف يُعثر عليهم متلبسين بالجريمة، وسوف يُساقون مكبلين إلى السجن، وهكذا فإن جَسَامة الخطر الذي يترصده من البحر، وخوفهُ الشخصي، كانا كافيين لإطباق فمه. احتدمَ الكبرياء والغضب والعار في عقله دونما مقاومة، وتركه مسمّرًا في مكانه ساكنًا، طاويًا ذراعيه.

جلس القبطان وظهره نحو مهب الريح، وهو يلقي الأوامر ويطلق الشتائم على الطاقم، كانت في عينيه نظرة باردة بليدة، وكانت عروق وجههِ محتقنة. بين ركبتيه زجاجة نبيذ، وفي يده كأس نصفه فارغ، وقد أدار ظهره للعاصفة. كان عازمًا في البداية على فرد الأشرعة، وعندما تم تنفيذ ذلك، وامتلأ الشراع الرباعي الكبير بالريح، ومال مستوى درابزين الفارالون المحجوب عن الريح حتى أصبح بمستوى زبد البحر، انفجر القبطان ضاحكًا، لكنَّها ضحكة خاوية،

احتسى كأسه عن آخرهِ، ثم استلقى بين سقط المتاع في السفينة، وأخرجَ من صدريته رواية مهترئة.

راقبهُ هيريك، واحتدَّ سخطه. ثم ألقى نظرة سريعة على الجهة المواجهة للريح حيث ظهرت العاصفة بمستوى البحر، معلنة عن قدومها بصوت زمجرة فريد وكئيب. فألقى نظرة خاطفة على عامل الدفة، ورآه يتشبث بالكابح بوجه مزرّق شاحب. رأى أفراد الطاقم يتراكضون إلى مراكزهم دون تعليمات. وبدا وكأنَّ شيئًا ما انفجر في رأسه، كأنه شعور بالغضب كبحَ جماحه لفترة طويلة، شعور أكلَ من عافيته في الخفاء لفترة طويلة، ثم انطلق من أعماقه، وغدا حرًا، وتمكّن من خصّه مثل شراع في عين الريح. فمشى نحو القبطان، وألقى بكل ثقل يدهِ على كتف السِكّير.

- أنت أيها المخادع، صاح هيريك بصوته المرتعش، انظر خلفك.

- من هذا؟ صرخ ديفز الذي وثبَ من مكانه مطيحًا بكأسهِ.

لقد فقدتَ حارسة البحر لأنكَ كنت مخمورًا، والآن، فإنك على وشك خسارة الفارالون. سوف تغرق هنا بنفس الطريقة التي أغرقتَ بها رُكاب حارسة البحر، وتهلك. ستجوب ابنتكَ الشوارع كالمتسولين، وسيكون مصير أبنائكَ كمصير أبيهم، لصوصًا!

كان وقع تلك الكلمات على القبطان الأبيض الأحمق، كوقع الصاعقة يا إلهي! صرخ القبطان وهو يحدق في هيريك كمن يحدق في شبح!

- يا إلهي ياهيريك..!

- انظر خلفك، كرَّر هيريك طلبه.

وهكذا فإن القبطان البائس-الذي بدأ يفيقُ من ثمالته إلى حد ما ويتنّبه-، نفَّذ ما طلبهُ منه هيريك، وفي الوقت نفسه انتفضَ واقفًا على قدميه.

- أنزلوا الشراع المشدود، طفقَ يصرخ فجرى البحّارة هنا وهناك لتلبية أمر القبطان بشكل ينّمُ عن اضطراب، وهكذا، أنزلوا الشراع الكبير بصعوبة، حتى سقط نصفه خارج السفينة فوق زبد الأمواج المتلاطمة.

خففوا حبال الأشرعة العلوية، اتركوا الشراع المشدود.... كرَّر القبطان مجددًا. ولكن قبل أن ينطق تعليماته بصورة واضحة، زمجرت العاصفة في وجوههم بصوت جهوري، وضربت الفارالون وكأنها جسد ضخم واحد من الرياح والمطر. وقبعت السفينة تحت العاصفة مثل شيء حي فارقَ الحياة.

فقدَ هيريك صوابه، فتشبث بحبال السفينة وهو على أهبة الاستعداد لمعانقة الموت، مبتهجًا بحريته، متهللًا بزمجرة الريح الجامحة، وبانقضاض وابل المطر. وكان مبتهجًا لموته بهذه الطريقة. وفي تلك اللحظة، ظلت أفكاره تدور في خضم هذه السلسلة من العناصر.

وفي غضون ذلك، كان القبطان يخترق مقدمة السفينة بسكين جيب في خصره، وقد غاص في الماء حتى ركبتيه. وكانت مسألة ثوانٍ على غرق الفارالون في أعماق البحار التي اكتسحتها بقوة. بَيد أنَّ يد القبطان كانت سباقة، حيث قام بقطع آخر حبل في ذراع الشراع الأمامي، فتحطّم كليًا وانهارَ باتجاه الريح. وبغتةً، نطّت الفارالون مع الريح ومالتْ، ثم شرع القبطان بشد حبال الطرف الخارجي والداخلي للقَرِيّة (39) التي ظلت مرتخية لفترة طويلة في اللحظة نفسها. وبعد حوالي عشر دقائق، تحركت السفينة بفعل العاصفة، وأصبح القبطان سيد نفسه وسيد سفينته، وكل ما بدا أنه يشكل خطرًا داهمًا في البداية، قد ولّى.

ثم فجأةً، مثل ساحر محتال يتنقل من خدعة إلى أخرى على خشبة المسرح، تلاشتْ العاصفة، واستحالت الرياح الشديدة إلى نسيم دافئ، وأشرقت الشمس مرة أخرى فوق السفينة المحطمة. وبعد أن ضبط القبطان ذراع الشراع الأمامي، وكلّف اثنين من البحارة بإفراغ السفينة من المياه، مشى نحو مؤخرة السفينة بكامل وعيه، شاحب الوجه، وطرف سيجارته المبللة، ما يزال عالقًا بين شفتيه حتى عندما حلّتْ العاصفة. فتبعهُ هيريك الذي بالكاد تذكر وطأة انفعالاته في الآونة الأخيرة، لكنه شعر أن ثمَّة حدثًا على وشك الخوض فيه، وقد كان تواقًا بل ومتلهفًا إلى المضي قدمًا نحوه.

استدار القبطان عند نهاية المقصورة، وواجهَ هيريك وجهًا لوجه، فحوّل نظرهُ عنه.

- لقد فقدنا اثنين من الأشرعة العلوية، والشراع المشدود.

قال هيريك بنبرة صوت ممزوجة بالصياح والجلبة.

- عمل جيد، يكفي أننا لم نفقد دعامات الصواري. أعتقد أنكَ تظن أننا أفضل دون الأشرعة.

- ليس هذا ما أظنهُ، أجابَ هيريك بصوت هادئ على نحو غريب، ومع ذلك، فقد دوّى صدى ارتباكهِ في ذهن القبطان.

- أعرفُ ذلك، صاحَ القبطان رافعًا يده نحو الأعلى، أعرفُ بمَ تفكر، ولا فائدة من الإفصاح عنه الآن، لأنني لستُ ثملًا!

- لا بد من ذلك، أجاب هيريك.

- انتظر ياهيريك، لقد قُلتَ ما يكفي. قُلتَ ما لا يمكنني تحمُلّه من أي كائن على قيد الحياة ما عداك، لمجرد علمي بأنك على حق!

- ينبغي أن أخبركَ يا قبطان براون، تابع هيريك، بأنني أستقيلُ من منصبي كضابطٍ أول لهذه السفينة. بإمكانك تكبيل يدي بالأصفاد، أو أن تطلق النار عليّ وتقتلني كما تشاء ولن أقاومك، إلا أنني أرفضُ -وبأي شكل من الأشكال- مد يد العون لك أو إطاعتك. وأقترحُ عليك يا سيدي أن تضع السيد هويش في مكاني، سوف يكون ضابط سفينة جدير لقبطان مثلك يا سيدي ابتسمَ، وانحنى للقبطان، ومضى قدمًا.

- أين تذهب ياهيريك؟ صاحَ القبطان على هيريك، ممسكًا إياه من كتفه.

- للانضمام إلى الطاقم عند السلوقية يا سيدي، أجابَ هيريك بنفس الابتسامة المفعمة بالكره، فقد قضيتُ فترة طويلة بما يكفي هنا في مؤخرة السفينة برفقتك يا رجل.

- إنكَ مخطئ في هذا، لا تتعجل بالحكم عليَّ، ليس ثمة مشكلة بيننا سوى الخمر، وقد حصل ما حصل. إنها قصة قديمة يا رجل، دعني أفيق وأتخلص من إدمان النبيذ مرة أخرى ثم سترى. تضرَّع القبطان لهيريك.

- من فضلكَ، لا أرغب برؤيتك أكثر، أجاب هيريك.

وهنا تأوَّه القبطان بصوتٍ عالٍ، وانفجر قائلًا:

- أتعلم ماذا قلتَ عن أطفالي؟

- نعم وأحفظهُ عن ظهر قلب، في حال رغبتَ بإعادة ما قلتهُ لك عنهم.

- كلا! صرخ القبطان وهو يضع يديه على أذنيه، وكأنه يرغب بتدارك الأمر كي لا يسمع ما قاله مجددًا، لا تجبرني على قتل رجل أهتمُّ لأمره! هيريك إن رأيتني أُقرِّب كأس نبيذ من شفتيّ حتى نصل إلى اليابسة، فسيكون لك الحق بإطلاق رصاصة نحوي دون مقاومة مني. أتوسل إليك أن تفعل ذلك، إنكَ الرجل الوحيد على متن السفينة الذي لا ينبغي أن نخسره، أتظنني لا أعرف ذلك؟ هل سبق لي وتخلّيتُ عنك؟ لطالما علمتُ أنّك على حقّ- سواء كنتَ ثملًا أو بكامل وعيك، لقد علمتُ ذلك. ماذا تريدني أن أفعل؟ هل يرضيك تأدية اليمين لتصدقني؟ هيا رجل، أنكَ ذكي بما فيه الكفاية لترى بأنني في غاية الصدق.

- أتعني أنه لن يكون هناك المزيد من النبيذ والسُكّرْ؟ لا من قِبَلِك ولا من قِبَلِ هويش؟ وبأنك لن تسرق أرباحي وتشرب الشمبانيا التي بعتُ شرفي من أجلها؟ وأنك ستنهض بواجباتك وتؤدي مناوباتك وتتحمل نصيبك المناسب من عمل السفينة، بدلًا من ترك كل شيء على كاهل بحّار غير متمرس، وعوضًا من جعل نفسكَ موضع سخرية البحّارة المحليين؟ أهذا ما تعنيه؟ إن كان الأمر كذلك، هلا تكون صادقًا لتؤكد ذلك تأكيدًا قاطعًا؟

- لقد تفوهتَ بأشياء بطريقة يصعب على أي رجل استيعابها، إنكَ لا تريد مني القول بأنني أشعر بالعار من نفسي، ثقْ بي، هذه المرة سأقوم بتسوية الأمور، ويداي شاهدتانِ على ذلك، أجابَ القبطان.

- حسنًا، سأحاول مرة واحدة، ولكن إن خذلتني مجددًا، سوف. قال هيريك.

- لا تقل المزيد، قاطعهُ القبطان ديفز، اصمتْ يا رجل! يكفي كلامًا. تملك لسانًا سليطًا عندما يجنُّ جنونك. هيا يا هيريك، ابتهج! لقد عدنا أصدقاء بحق كالسابق، وأنا على عهدي. سأحرص على ألا تندم مجددًا، لقد كنَّا قاب قوسين أو أدنى من الموت هذا اليوم، -وأرجوك لا تذكّرني بالمذنب في ذلك- وكما أعتقدُ، فقد كدنا أن نبلغ الجحيم أيضًا. كِلانا يعاني من قساوة هذه الحياة ياهيريك، ويجب أن نهوّن الأمر على بعضنا بعضا

كان القبطان ديفز يتحدث بلا وعي منه، ولكن يبدو الأمر وكأنه كان متعمدًا إلى حد ما. فقد كان يلّف ويدور مثل نسر يحوم حول فريسته؛ خِشية قوله ما لا يرغب الحديث عنه، وربما كان يهذر لتزجية الوقت فحسب، خوفًا مما قد يقوله هيريك بعد ذلك. إلا أنَّ هيريك في ذلك الحين كان قد نفث غلّهُ، واستعاد طبعه الطيب. كان مكتفيًا بالانتصار الذي حققهُ، وبدأ يشفق على القبطان في تلك اللحظة.

فحاولَ أن يختتم الحديث ببضع كلمات ملطِّفة، واقترح أن يغيِّرا ملابسهما.

ليس الآن، ثمة أمر آخر أود إخباركَ به أولًا. أتعلم ماذا قلتَ عن أطفالي؟ أريد أن أخبرك لمَ آذاني قولك؟ وأعتقدُ أنك ستشعر بالسوء حيال ذلك أيضًا. إن الأمر يتعلق بحبيبتي الصغيرة آدار. لم يجدر بكَ قول ما قُلتَه، لكن بالطبع أعرف أنك لم تعلم بأنها.. إنها ميتة أجاب القبطان.

- عجبًا يا ديفز! لقد أخبرتني أنها على قيد الحياة عدة مرات، صَفّي ذهنكَ يا رجل! لا بد أن هذا من تأثير الكحول!

- لا يا سيدي، لقد ماتت. ماتت بسبب مرض في الأمعاء، وحدث ذلك عندما كنتُ منفيًا في سجن أوريغون، وهي ترقد في مدينة بورتلاند، ولاية مين.

محفور على شاهدة قبرها:

(آدار، الابنة الوحيدة للقبطان جون ديفيس وزوجته ماريار، تبلغ من العمر خمس سنوات).

كنتُ قد ابتعتُ دمية لها، وكانت معي على متن تلك السفينة. لم أنزع الغلاف عن تلك الدمية يا هيريك، وقد غرقتْ تلك الدمية كما كان مقدر لها مع سفينة حارسة البحر في ذلك اليوم المشؤوم الذي حلّتْ فيه عليَّ اللعنة.

كانت عيون القبطان مسمّرة تحدق في الأفق، وكان يتحدث بِـرِقّةٍ غير معهودة، لكن برباطة جأش كاملة. مما جعل هيريك ينظر إليه بطريقة تنّمُ عن رهبة.

تابع القبطان حديثه: إنكَ لا تظنني مجنونًا أو ما شابه، إنني حاليًا كصلابة الجليد، منطقيٌ أكثر، ويمكنني التعامل مع هذا الشعور. لكنني أظن بأنَّ الرجل المغتم يشبه طفلًا صغيرًا، إنهُ حساسٌ، بسيطٌ، وصريح للغاية. وهذا هو مفهومي من لعبة الأطفال الخاصة بي. ليس باستطاعتي التعامل مع الحقائق الواضحة، لذلك وكما ترى فإنني: أتظاهر بحدوث الأشياء التي لم تحدث، وبعدم حدوث تلك التي حدثتْ. ولأُصدقكَ القول؛ حالما ننتهي من هذا الحديث سأبدأ بالتظاهر من جديد! وكما ترى.. لن يكون بوسعها السير في الشوارع.

ثم أضاف القبطان: لم تستطع حتى أن تعيش وتحصل على تلك الدمية.

وضع هيريك يده المرتجفة على كتف القبطان.

- أبعدْ يدك صرخ القبطان، مبعدًا يدَ هيريك عنه.

- ألا ترى أنني غير مكترث بالطريقة التي تسير بها الأمور؟ عجّلْ معي، تعال أيها المسن ، يمكنك الوثوق بي في الحال. دعنا نحصل على ملابس جافة.

وعندما دخلا المقصورة، وجدا هويش جاثيًا على ركبته، يحاول فتح صندوق شمبانيا بمُخل (40).

- أنتَ هناك! لن يكون هناك المزيد من هذا الهراء بعد الآن، لا مزيد من الثمالة على هذه السفينة، صاح القبطان.

- صِرتَ من جماعة الممتنعين عن الخمور، أليس كذلك؟ قال هويش مستفسرًا!

- مستعد لذلك، إنها مسألة وقت ليس إلا! أليس كذلك؟ كدتُ أفقد سفينة أخرى بسبب الخمر!

استخرجَ هويش زجاجة شمبانيا من الصندوق، وبكامل هدوئهِ، بدأ بتحريك القفص السلكي المثبت على السدادة الفلينية ببريمة نزع السدادات.

- هل سمعتَ ما قُلته؟ صاح ديفز.

- من المفترض أنني سمعتُ، فقد تكلمتَ بصوتٍ عالٍ بما فيه الكفاية. غير أنَّ المشكلة هي أنني لا أكترث بما قلته أجابَ هويش.

فسحبَ هيريك القبطان من كُمّه.

- اتركه وشأنه، لقد واجهنا ما يكفي منذ صباح هذا اليوم.

- إذن، فليحصل على مراده هذه المرة، لأنه آخر ما سيحصل عليه!

وفي تلك اللحظة، فتحَ هويش القفص السلكي المثبت على السدادة بقطع أحد الأسلاك، وأزالَ مقدمة الغلاف المُذهّبة، وانتظر وهو يحمل قدحًا في يده متوقعًا دوش الشمبانيا المعتاد. لكن لم يحدث شيءٌ. لذلك حرَّك الفلينة بإبهامه برفق، ومع ذلك لم يحصل شيء! أخيرًا أخذ البريمة، سحب السدادة، حتى أزالها بكل سهولة.

مصحوبًا بصوتٍ ضئيل.

- اييييه، إنها زجاجة فاسدة! قال هويش.

فسكبَ بعض النبيذ في القدح، ولاحظ بأنها عديمة اللون وغير فوّارة، وبعد أن شمّها وتذوقها قال: عجبًا! ما هذا؟ إنهُ ماء!

- لو سُمع صوت الأبواق وهي تنفخ في الصُور على حين غرة حول السفينة في غمرة البحر، لما كان ذُهول الرجال الثلاثة في تلك الحجرة أشد وطأة من هذا الحادث.

فأخذ القدح يتنقّل من يد لأخرى، ومن فرد إلى فرد، أمسكوه بيدهم ورشفوا قليلًا منه، وتشمموا رائحتهُ. وأخذ كل فردٍ منهم يحدق في الزجاجة إلى أبهة الغلاف الورقي المُذهّب، كما بقيَ روبنسون كروزو يحدق مذهولًا في آثار الأقدام التي اكتشفها بغتة على رمال تلك الجزيرة (41). وهكذا، سرعان ما انصبَّ تفكيرهم على تلك المخاوف المشتركة. فالفرق بين زجاجة شامبانيا وزجاجة ماء ليس كبيرًا، وكذلك بين سفينة حمولة وأخرى. حيث يمتد سُلّم متكامل يأخذ المرء من أعلى درجات الغِنى إلى الدرك الأسفل من الإفلاس.

وهنا، قرروا فتح زجاجة أخرى، ثم اخرجوا صندوقين كانا بالقرب من المقصورة، فتحوهما، وفحصوا محتويات الصندوقين، إلا أنَّ النتيجة كانت

نفسها. زجاجات عديمة اللون، بلا طعم، وساكنة كمطر هطلَ على قارب صيد جنحَ إلى الشاطئ.

- يا إلهي! قال هويش.

- لنتفحَّص عنبر السفينة، قال القبطان وهو يمسح عرق جبينه بظهر يدهِ، واندفع الثلاثة خارجين من المقصورة، وهم يجرجرون أقدامهم بوجوه متجهمة.

تمَّ استدعاء أفراد الطاقم بأكمله، وأُرسِل اثنان من الكاناكا إلى أسفل العنبر، وتمركز آخر عند باب العنبر، وأما ديفز، فقد أخذ مكانه قرب الإطار الحاجز للعنبر وفي يدهِ فأس.

- هل ستخُبر الرجال؟ استعلمَ هيريك هامسًا.

- اللعنة على الرجال! الأمر أكبر من ذلك، يجب أن نعرف بأنفسنا.

وهكذا، نقلوا اثنين من الصناديق إلى سطح السفينة، حيث أخذوا عيناتٍ منها تِباعًا عندما كسر القبطان الصناديق بفأسهِ، ثم بعد ذلك، تفحص محتوياتها زجاجةً زجاجة، ومع كل زجاجة يقوم بفتحها، كانت الشمبانيا تتدفق بغزارة وهي تزبد وترغي.

- ألا يمكنك أن تهبط إلى أعماق العنبر أكثر؟ صاح القبطان على الكاناكي أسفل العنبر.

أعطى أمر القبطان إشارة إلى تحوُّل كارثي، بعد أن صعد الصندوق تلو الآخر على سطح السفينة، وفتح الزجاجة بعد الأخرى. حيث لم يجرِ منها غير الماء.

وصولًا إلى أعمق صف من الصناديق المرتبة بشكل طبقات، حتى وقعوا على طبقة لم يعد في نيتها الخداع أكثر، حيث الصناديق لم تعد موسومة، والزجاجات لم تعد مربوطة بالقفص السلكي، ولا حتى مغلفة بالورق المُذهّب، وحيث تجلت عملية النصب والاحتيال كاشفةً اللثام عن وجهها، محدقةً فيهم.

اكتفيتُ من هذه الحماقات، أعد هذه الصناديق ورصَّها بشكل جيد في العنبر يا عم، ثم اجمع الفخار المكسور على ظهر السفينة وتعالَ معي قال لزملائه المغامرين، ومهّد طريق العودة إلى المقصورة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس:

الشركاء الثلاثة

اتَّخذ كلٌّ من الشركاء الثلاثة جانبهُ من الطاولة المخصصة لهم، وكانت هذه هي المرة الأولى التي جلسوا فيها معًا منذ صعودهم على متن الفارالون. ولكن اليوم على نحو مختلف، فكل شعورٍ بعدم الائتلاف بينهم كان قد انتهى، وكل ذكريات خلافاتهم تبددت أمام خيبة الإفلاس التي جمعتهم.

- أيها السادة قال القبطان بعد صمت، وبملامح جادة تشبه هيئة مديرٍ إداريٍّ يفتتح اجتماعًا: لقد تمَّ خداعنا.

فانفجرَ هويش ضاحكًا وقال:

- هذه أشد وأقوى الألاعيب التي مرت عليَّ، وديفز! الذي ظنَّ أنّه نهض بنفسهِ وعاد إلى رشده هذا الصباح! لقد سرقنا شحنة معبأة بمياه الينابيع بدلًا من الشمبانيا! أووه يا إلهي! قال ذلك وهو يتلوَّى من شدة الضحك. إلا أنَّ القبطان تمكَّن من السيطرة على ملامحهِ، وعلى بوادر ابتسامة كادت أن ترتسم على وجههِ.

- ها هو القدر -كرجل عجوز- يلوّح بيدهِ عابسًا وباغتنا كرَّةً ثانية، لكن هذه المرة أعتقد أنه ركلَ الباب، ولم يطرقهُ! قال القبطان. أما هيريك، فقد اكتفى بإيماءة من رأسهِ.

- يا إلهي! يا لهُ من وضع مضحك! حقيقةً، سيكون الأمر مزحة لطيفة لو أنه حصل مع أشخاص آخرين غيرنا. حسنًا، لا يمكنني تصديق ما يحصل! ما الذي ينبغي فعلهُ الآن؟ وماذا سنفعل مع هذا السفينة اللعينة؟ قال هويش.

- هذه هي المشكلة، هناك شيء واحد مؤكد: لا فائدة من نقل هذا الزجاج المحطم والصابورة (42) إلى بيرو. لا يا سيدي، إننا في وضع سيئ.

- أوه يا إلهي! والتاجر؟ الرجل الذي طلبَ هذه الشحنة؟ سيتلقَّى الأخبار من بريد بريجانتين، وسيفكر بالطبع بأننا متجهونَ مباشرة صوب سيدني.

- نعم وسيكون تاجرًا بائسًا. ثمة أمر واحد جلي، هذا ما يفسر وجود طاقم الكاناكا، وإذا كنتَ ستخسر سفينة، فلن أسأل نفسي أكثر عن معنى وجود طاقم الكاناكا. لكن هناك أمر واحد غير واضح: لماذا قدِمتْ هذه السفينة عبر طرق تاهيتي البحرية؟

- يا إلهي! لكي يتخلصوا منها؟ ولكي تتعامل معها أنت.

- لا أحد يرغب بفقدان سفينته، لكنهم أرادوا التسبب بفقدانها أثناء مسارها. أولئك الأوغاد! يبدو أنك تعتقد بأنَّ مؤسسات التأمين البحرية لا تملك الحس السليم لإيجاد حل وجيه والعودة إلى اليابسة، قال القبطان.

فأجابهُ هيريك:

- حسنًا، أستطيع إخباركم لمَ قطعتْ السفينة كل هذه المسافة صوب الشرق، كما علمتُ من العم نيد، يبدو، مع الأسف، بأنَّ هذين الملعونين التعيسين وايزمان وويشارت كانا مخمورين بالشمبانيا منذ بداية الأمر، حتى قضيا نحبهما سكارى في النهاية.

حدَّق القبطان في الطاولة.

وواصلَ هيريك قول ماعنده بتوتر واضح: حيث رقدَ كل فرد منهما في مهجعهِ، وربما جلسا هنا في هذه الحجرة الملعونة، وهما يعبّان المشروبات المسكرة البغيضة، حتى تمكَّن منهما المرض. وكانا كلما اشتدَّ عليهما المرض وارتفعت حرارتهما، احتسيا النبيذ أكثر، كانا يستلقيان هنا وهما يصرخان ويتأوهان في حالة سُكر واحتضار دفعة واحدة، كانا يجهلان وجهتهما في خضم هذا البحر ولم يأبها بذلك، وعلى ما يبدو، لم يكن بوسعها الشعور بالشمس التي تبث أشعتها فوقهما.

ماذا؟ صاحَ القبطان، وهو يرفع بصره إلى الأعلى. يا إله السموات! يا لهم من حمقى!

حسنًا، لا يهم ذلك، ما صِلة وايزمان ورفيقه بنا؟ سألَ هويش.

أعتقد أننا بمثابة صفقة رابحة مثلهم، فنحن ورثُتهم قال القبطان

يا لهُ من إرثٍ عظيم ردَّ هيريك

طيب، لا أعرفُ مدى صحة ذلك! جاءهم ردّ القبطان ديفز.

يبدو لي الأمر كما لو أنه سيكون أسوأ، ولا يستحق ما قد تساويه الشحنة بالطبع، حتى كعربون، لكنني سأخبركم بما يبدو أنه مناسبٌ. يبدو لي بمثابة المال الوحيد المتبقي لرجل في فريسكو تابعَ القبطان.

تمهَّل تمهَّل، امنحني وقتًا لأفهم. كيف حكمتَ بذلك؟ سأل هويش.

فواصل القبطان الذي بدا أنه استعاد ثقته بنفسهِ حديثه قائلًا:

- حسنًا يا شباب، مقابل التخلص من هذه السفينة الشراعية وحمولتها، كان وايزمان وويشارت سيتقاضيان مكافأة مالية. ونحن نقوم بذلك فعلًا. إننا نتخلص منها كما هو مخطط لها تماما. وأما مسألة تقاضي أجورنا، فستكون من مسؤوليتي. كم كان وايزمان وويشارت سيحصلان مقابل ذلك؟ هذا ما لا يمكنني تخمينه. لكنهما دخلا إلى هذا العمل بأرجلهما، وكانا لصَّين منحطَّين. وفي هذا الوقت فإننا رجال أمناء وصادقون. ربما اخطأنا ولكن، لكل جواد كبوة. أما ذلك التاجر، فلن يكون أمامه سوى العويل والنحيب، وأنا من سيشهد على ذلك.

- كلا يا سادة، ففي نهاية المطاف، ثمة مقتنيات ممنوعة على متن هذه الفارالون.

- لقد وجدتَها يا قبطان صرخ هويش بصوت مشجع، امضِ قدمًا يا قبطان، وعليك بالصبر! دون شك، هذهِ هي عادتك التي تتسم بها لكسب المال! واللعنة عليّ إنْ لم أؤيد ما تقوله!

- لم أفهم الأمر ... أرجو المعذرة .. لم.. لم أستوعب ذلك، قال هيريك.

- حسنًا، اسمعْ ياهيريك. أودُّ التحدث معك بشأن بقضية مختلفة، وإنّهُ لأمر حسن أن يسمع هويش ما سأقوله أيضًا. لقد اكتفينا من مسألة الإسراف في السُكْر، وكلانا يلتمس منكَ الصفح عما بدر منا هنا، والآن، لا بد أن نتوجه لك بالشكر على كل ما فعلته من أجلنا في الوقت الذي كنَّا فيه نتصرف كالخنازير. لكنني تائب من ذلك، وستراني على أفضل حال في الأيام المقبلة.

أما بالنسبة للنبيذ الذي أؤكدُ لك بأننا سرقناه منك، فسأعمل على تقييمهِ، وأحرص على أن تتلقى ثمنه. وعلى ما أعتقد، فإن ما قلتهُ جيد بما فيه الكفاية حتى هذه اللحظة، غير أنَّ ما أرغبُ في توضيحه لك هو كالآتي:

أصبحت الخطة القديمة أمرًا في غاية الخطورة، بينما الخطة الجديدة آمنة كإدارة مخبز في فيينا! كل ما علينا فعله هو توجيه الفارالون صوب هبوب الريح ونتركها للبحر، لنصل إلى مكان ما، حيث يوجد قنصل أمريكي، ثم نودّع السفينة الوداع الأخير، ونُلقيها هناك، ونغادر من الجهة الأخرى. نُجهّز قاربًا ونبدأ رحلتنا التي ستمتد يومًا أو نحو ذلك. وحالما نصل، نحزمُ أمتعتنا ويرسلنا القنصل إلى الديار، على نفقة العم سام. ومنها صوب فريسكو، وإن لم يسدد ذلك التاجر أجورنا، يحق لكم معاتبتي.

- لكنني ظننتُ تكلَّم هيريك، الذي ثار غضبه أوه.. فلنذهب إلى بيرو!

- إن كنتَ تود الذهاب إلى بيرو لأجل صالحك، فلن أعترض طريقك، لكن لو كنت ترغب بالذهاب إلى هناك لأي سبب آخر بدافع الإحساس بالذنب وتحمل المسؤولية ولو بمقدار ذرة، فأرجو أن توضح ذلك بصراحة.

- انظر يا هيريك، نحن لا نرغب بأن نقصد بيرو ومعنا هذه الشحنة الفاسدة. مستعدٌ لأن أراهن بآخر سنت يتبقى معي، لكنني أجهلُ ما يتعلق بالحمولة المتبقية، وفيما لو كانت صالحة أم لا لنتمكن من بيعها على الأقل. لطالما كان هناك شك في قدرتنا على بيع هذه السفينة. لم أكن أتمنى ذلك، ولكنني متأكد الآن، بأنها لا تساوي ثمن جبلٍ من حبات الفاصولياء. ما خطبها؟ هذا ما أجهلهُ. جُلّ ما أعرفهُ هو أمر واحد فقط، وهو أنها لا ينبغي أن تكون هناك وهذه الشحنة على متنها. ومن ناحية أخرى، افترضْ أننا تخلصنا منها وضيَّعناها، ثم قصدنا بيرو، ماذا سيكون موقفنا؟ لن نتمكن من تبيان سبب خسارتها، ولا حتى كيفية وصولنا إلى بيرو. أما ذلك التاجر فإن لم يمسك بيده تأمينات السفينة، فسوف يُشهر إفلاسه. ولا تستبعد عودتنا إلى وضعنا المزري القديم، سترى ثلاثتنا نتسكع كالمشردين على شاطئ كالاو (43) قال القبطان.

- لا يوجد في بيرو قانونٌ ينص على تسليم المطلوبين إلى سلطاتهم، قال هيريك.

- حسنًا يا بني، نحن نودّ أن نصبح مطلوبين، قال القبطان ثم أضاف: ماهو مغزى حديثنا؟ إنَّ هدفنا هو الوصول إلى قنصل يصل بنا إلى سان فرانسيسكو. وفكرتي هي أن يتم إيجاد جزر ساموا البولينيزية كمركز صالح للأعمال التجارية. رغم أنها مدينة تعوزها الحياة. للولايات المتحدة قنصل هناك، حيث صوتُ صفير باخرات فريسكو يدوّي في الأرجاء، وبذلك يتسنى لنا المغادرة حالًا، ومقابلة التاجر.

- ساموا؟ سوف نستغرق وقتًا طويلًا لنصل إلى هناك، علَّق هيريك.

- أوه! والرياح مواتية؟! علَّق القبطان.

- لا توجد مشاكل تتعلق بسجل السفينة، أليس كذلك؟ تساءلَ هويش.

- كلا يا سيد، برفقة النسيم العليل، ثم رياح خفيفة متغيرة. هبّة عاصفة ثم طقسٍ صافٍ والاتجاه الشرقي على بعد خمسة أميال، لا عوائق تحجب الرؤية، مضخات تصريف المياه جاهزة. وأما مقياسيّ الضغط الجوي والحرارة فقد تم ضبطهما من رحلة العام المنصرم، وستقول للقنصل:

- لم أشهد مثل هذه الرحلة من قبل. اعتقدتُ أنها ستستنزف وقتًا أطول.. وتوقَّف القبطان، في منتصف خطتهِ التي رسمها خياله.

ستقول بدأ حديثهُ من جديد، وتوقفَ مرة أخرى. ثم أضافَ بلهجة سافرة بالتصاغُر:

- هل حافظتَ على المؤن يا هيريك؟

- لو طُلِب مني ذلك لفعلتهُ كما ينبغي، وكما حاولتُ الإبقاء على غيرها من الأمور في مسارها، وعلى قدر ما أستطيع. وكما يرضى الطاهي عمَّا يقدمه.

نظرَ ديفز إلى الطاولة، ثم قال في اللحظة الأخيرة:

- لقد خططتُ للأمر على أحسن مايكون وكما ترون، إلا أنَّ أفضل ما في الأمر كان مغادرة بابيت، قبل أن يتسنى للقنصل تغيير رأيه. أتعرفون؟ أعتقدُ أنني سأقوم بجرد المخزون وقامَ القبطان من مجلسه على الطاولة، التقط مصباحًا، واختفى في اللازاريت (44).

- ثمة شخصٌ آخر هنا فقد صوابه، علقَ هويش.

فأجابه هيريك الذي بدتْ على ملامحة نظرة عداوة على حين غرّة:

- يا رجل! حانت ساعة مناوبتكَ على ظهر السفينة، وبالطبع دوركَ في قيادة الدفة

- أرى أنَّكَ مُغْضَبٌ كذلك أيها العزيز؟ قال هويش.

- وقِفْ بعيدًا عن صندوق البوصلة، إنّه دورك يا رجل، يااااه!

فأشعلَ هويش سيجارًا بكل صلف وكبرياء، وعرجَ إلى وسط السفينة وهو يضع يديهِ في جيوبه.

وعلى حين غفلة، عاودَ القبطان الظهور مجددًا خلال فترة وجيزة، لم ينظر إلى هيريك، إلا أنّهُ دعا هويش وجلس.

- حسنًا. لقد أجريتُ جردًا .. على نحو تقديري وهنا، توقف عن الحديث كما لو أنه بانتظار أحدهم ليمد له يد العون على توضيح الأمر لكن دون فائدة. كان كلاهما يحدقان إليهِ بقلق شديد عوضًا عن ذلك، فاستأنفَ حديثه مجددًا، إنما بتثاقل:

- حسنًا؛ لن يكون بوسعنا المقاومة، لا يمكننا فعل شيء، وهنا يكمن جوهر المسألة. إنني آسف بقدر شعوركم بذلك وأشد أسفًا، لن نتمكن من التوجه صوب ساموا، حتى إنني لا أعرف كيف سنصل إلى بيرو!

- ماذا تعني؟ سأل هويش بطريقة همجية.

- لا أعلم، حتى إنني لم أفهم ذلك شخصيًا جاء ردّ القبطان وتابع: لقد خططتُ للأمر بشكل دقيق كما سبقَ وأخبرتكم، إلا أنَّ ما يجري هنا يثير استغرابي، يبدو الأمرُ كما لو أنَّ جنّيًا كان في الجوار. لا بد أنَّ ذلك الطاهي محتال بهيئة قدّيس وَرِع! خلال اثنيْ عشرَ يومًا فقط! أيُّ تصرفاتٍ جنونية هذه! ولأكونَ صريحًا معكما فأعترفُ بشيء واحد وهو: بحوزتنا ما يكفي من الدقيق لكن.. ما تبقّى من المؤن؟ رباه! ثمة الكثير من الإسراف على متن هذه السفينة التافهة التي لا تساوي قرشين أكثر مما يوجد على متن تلك العبّارات التي تجتاز المحيط الأطلسي ثم ألقى نظرة خاطفة على رفيقيهِ، لم يكن وجهاهما المتجهّمان ينبئان بخير، لذلك احتكمَ إلى سبيلٍ آخر يصب عليه جام غضبهِ.

- انتظرا حتى أرى ذلك الطاهي! زمجرَ وضرب الطاولة بقبضة يدهِ.

- سأرى ذلك الشقي ابن اللعينة الذي لم يتحدث إليَّ مطلقًا، سأضع صخرة في...

- لن تمدَّ ولو إصبعًا واحدًا على ذلك الرجل، الخطأ خطؤكَ، وأنت تعرف هذا جيدًا. لقد أطلقتَ سراح رجل محتال في مخزنكَ، ولا بد أن تكون مدركًا لما أنتَ مقبلٌ عليه. لن أسمح لأيّ أحد بإيذاء الطاهي.

- من الصعب التكهّن كيف تمكَّن ديفز من تقبُل هذا الرد! لكنه بدا كما لو أنّه غير آبه.

حسنًا، تشدَّق هويش، إنكَ لستَ سوى قبطان سفينة لعين، نَفّاج (45) ليس قادرًا على فعل شيء سوى الثرثرة وتبديد الوقت. بِتُّ أعرفك جيدًا يا جون ديفز! إنّكَ لا تختلف عن أي رجل آخر، لعين وتافهٍ. أووه إنكَ لا تستوعب كيف حصل الأمر، أليس كذلك؟ وأنَّ ما حصل يثير استغرابك، حقًا تقول؟ آه، أحسبُ ذلك. عجبًا! ألم تأمر بإحضار عُلب الطعام الطازجة في كل يوم؟ ماذا عن وجبة الإفطار؟ أووه يا الهي! تأمر الرجل بتحضير إفطار لعشرةِ أشخاص، وعندما تُجهَز المائدة، تصرخ به طالبًا المزيد؟ والآن تخبرنا بأنكَ لا تعرف كيف حصل ذلك! اللعنة عليَّ، إن لم تكن أنت يا جون ديفز سببًا كافيًا يدفع المرء لشتم الرب! هل خططتَ لكل شيء على أحسن ما يكون يا جون ديفز؟ احذر من التلاعب معي وإغضابي بعد الآن، فما عدتُ مأمون الجانب.

جلسَ ديفز في حالة ذهول! وربما كان من المشكوك فيه أيضًا أنهُ سمع صوتًا آخر غير صوت هويش –العامل اللندني- يرنُّ صداه في أنحاء المقصورة مثل صوت طائر الغاق عند حوافِّ الجرف.

- هذا يكفي يا هويش قال هيريك.

- إذن، ستؤيده أليس كذلك؟ يا لكَ من متشامخ خبيث. كُن بصفّهِ إذن، هيا دافع عنه، هيا تحدّثا كلاكما. لكن بالنسبة لجون ديفز، فليحترس؛ لأنني لم أنس ضربته التي تلقيتها في أول ليلة لي على متن هذه السفينة، تلك الضربة التي لم يسبق لي التفكير بِرَدِها عليهِ مع أنني قادرٌ على ذلك حتى اللحظة. أخبره بأنه سيتوسل حتى أسامحه، وهذا آخر كلامي.

- إنني أقفُ بصف القبطان، وهذا يجعلنا اثنين مقابل واحد، وكلانا رجلانِ صالحانِ، وهذا الطاقم أيضًا، جميعهم رجال أمناء وسوف يساندونني. أتمنى أن أموت قريبًا جدًا، ولا مانع عندي من قتلكَ قبل أن أرحل، وذلك ما أتمنَّى فعله دون أدنى قدر من الشعور بتأنيب الضمير، وبأسرع ما يمكن. خذْ حذرك... خذْ حذرك أيها الوغد الوضيع.

وهكذا، فإنَّ مشاعر الغلّ والكراهية التي قِيلتْ بها هذه الكلمات كانت كافية وواضحة وضوح الشمس، وقد قيلتْ بشعور حقيقي من هيريك لدرجة أنَّ هويش لم يسعه فعل شيء سوى التسمّر أمامه، حتى إنَّ ديفيز المُهان رفع رأسه وبقي ينظر إلى الرجل الذي ركنَ إلى جانبه.

أما بالنسبة إلى هيريك، فقد تمكنت منه انفعالاته والاستفزازات وخيبات الأمل المتتالية في ذلك النهار، وحوَّلته إلى شخصٍ نزقٍ شرسٍ قلبًا وقالبًا، وكان مدركًا أنَّه يومًا ما، سيفيض به الكيل. بدا وكأنَّ عقلَهُ مشوَّشٌ، وعينيه تتقدان بمجرد أن ينظر لما حوله، وكانَ نشفان ريقه كيباس البسكويت. هيريك، هذا الرجل الذي جُبِل على كونهِ مأمون الجانب، مستقيم السلوك -باستثناء كون المستضعف دائمًا ما يكون خطرًا بقدر ما- فإنّه في تلك اللحظة، كان مستعدًا لقتل أحدهم، أو أن تُزهَق روحه بنفس القدر من اللامبالاة.

وهنا في داخل المقصورة، أخيرًا، أُلقيَ العهد على ترك النزاعات بينهم وكذلك بوادر العداء. ومن سيتكلم أولًا سوف يلفت الانتباه إلى خطب آخر ما، في ذلك الزمان والمكان. ثم إنَّ الجميع يدركون أنَّ هذا ما يجب فعله، لأنهم على معرفة بنتائجه، فانكفأ كلٌّ في مكانه.

ولثوانٍ معدودة، جلس الثلاثيُّ قرب ساعة المقصورة، صامتين وبلا حراك، كأن على رؤوسهم الطير. ثم حدثَ ما يقاطع حالة وجومهم، وحلّت البشرى مثل حلول الربيع.

- اليابسة! علا صوتٌ من على ظهر السفينة، هناك معالم يابسة تتضح من مقدمة السفينة المواجه للريح!

- يابسة! صاحَ القبطان الذي وثبَ على قدميه، ما هذا الهراء؟ لا وجود لليابسة هنا!

ومثلما يفر المرء من حجرة بداخلها جثة رجل مقتول، خرج الثلاثة من الحجرة مسرعين، تاركين خلافاتهم وراءهم، معلّقةً.

تجلَّت السماء أمام أنظارهم بلون العقيق الأبيض عند مستوى سطح البحر. والبحر بحد ذاتهِ، بلونهِ الحبري وجبروتهِ، كشفَ عن المدار الدقيق للأفق.

أخذتْ أبصارهم تفتش عن اليابسة وكلهم أمل. لكن، لا يمكن حتى لعين القبطان الخبيرة أن تلمح من هذه المسافة البعيدة أبسط ملمح من ملامح اليابسة، أو أية علامة تدل على ذلك.

وكانت فوقهم مباشرة، سحب رقيقة متفرقة تسير رويدًا.. رويدًا، وثمة طائرٌ مداري أبيضُ، كندفة الثلج، معلَّق في السماء وهو يحوم حول السفينة مستعرضًا ريشة قرمزية طويلة من ذيله فيما يدور، وباستثناء البحر والسماء، لم يكن هناك أي شيء آخر غير هذا المنظر.

- من هذا الصبي الذي صاح بأعلى صوته يابسة؟ إن كان هناك من يود أن يلعب معي لعبة الكلب الظريف، فسوف ألقّنه درسًا يذكره بألاّ يعبث معي مرة ثانية! جاء رد القبطان.

لكن العمّ نيد أشار قاصدًا، إلى جزء من الأفق حيث يمكن استشفاف تقزّح لوني أخضر رقيق يصعب تبيانه، يتموج كالدخان نحو السماء فاتحةِ اللون.

فاستعانَ ديفز بمنظارهِ، وأداره نحو الموضع المقصود، ثم نظر للكاناكي، وانبرى له قائلًا:

- أتدعو ذلك الشيء يابسة؟ ليست يابسة على حد علمي.

- منذ زمن بعيد، رأيتُ جزيرة آرا-آرا (46) بنفس الطريقة قبل أن نقترب بـأربعِ إلى خمس ساعات، وقد عرفَ كابينا ذلك من الشمس حين تشرق وحين الغروب. إنَّهُ يقول بأنَّ البحيرة الشاطئية (تكعس) ما حولك قال العم نيد.

- تفعل ماذا؟ سأل ديفز.

- تكعس، أكَّد العم نيد.

- أوه.. آه.. تكعس؟! فهمتُ. إنكَ تقصد انعكاسات البحيرة، حسنًا. أتعرفون؟ قد يكون أمرًا ممكنًا. رغم أنه غريب لأنني لم أسمع به من قبل. هيا دعونا نلقي نظرة على الخريطة، أجابَ ديفز.

فعادوا أدراجهم نحو المقصورة، ووجهوا السفينة صوب الأرخبيل من الجهة المواجهة للريح، وهي تسبح في غمرة سيل من الزبد الأبيض.

- هاكم، انظروا بأنفسكم! قالَ القبطان.

- ورغم ذلك لم أفهم، أعتقدُ بطريقة ما، أنَّ هناك شيء غريب في الأمر، لكن أريد أن أخبركَ أمرًا أيضًا يا قبطان، كل شيء قالهُ لك العم نيد بشأن الانعكاس صحيح، فقد سمعتُ ذلك في بابيت أجابَ هيريك.

إذن، أحضر ذلك المجلد الخاص بمعرفة المواقع البحرية، سأتحقق من الأمر بشتى الطرق الممكنة، وبهذه الطريقة التي ستحدّد لنا الموضع، لن نضلّ الجزيرة.

وهكذا، تمَّ جلب المجلد الضخم وتسليمه إلى القبطان، مهترئًا وندًّيًا من كلا الطرفين، بسبب آثار العاصفة التي ضربت السفينة، وما زالت أضرارها باقية.

فالتفتَ ديفز إلى حيث وضعوا المجلد، وبدأ يتفحص الكتاب ويقلب الصفحات مُراجعًا النصوص بإصبع مبلول، وهو يغمغم ويتحدث إلى نفسهِ.

- مرحى! أيُعقل ذلكَ! هتفَ القبطان وطفق يقرأ بصوتٍ عالٍ: ثمة جزيرة جديدة، وبحسب خارطة الكُتيب فإنَّ هذه الجزيرة التي ما تزالُ مجهولة لأغراض سرية وخاصة، تقع على خط العرض 12، 49 درجة جنوبًا، وعلى خط طول 113، 6 درجات غربًا.

إضافة إلى الموقع المذكور أعلاه من قبل ضابط بارجة اتش.أم.اس اسكوربيون (47) القبطان ماثيوز، يذكر أنّهُ توجد جزيرة على خط العرض 12 درجة جنوبًا، وتحت خط طول 13، 16 درجة غربًا، ولا بدَّ أن يكون الأمر سيان. هذا إن كان هناك جزيرة من هذا القبيل، وهو أمر مستبعد تمامًا، وموضع شك بالنسبة لتجار بحار الجنوب.

- ياللعجب! قال هويش.

- أو بالأحرى، علامة دالة! أجابَ هيريك.

- هذا ما حدث، وهذا ما نصبو إليه، فهناك كل ما ترجونه، ولكن احذروا من أي خطأ.

أخذَ هيريك يقرأ من فوق كتف القبطان: والتي ما تزال مجهولة لأغراض سرية وخاصة.. ما الذي يعنيه ذلك؟

- لا بد أنَّ ذلك يعني وجود لآلئ، جزيرة لآلئ تجهل السلطات أمر وجودها، أو قد يبدو الأمر وكأنه منطقة حقيقية متروكة، أو لنفترض أنّه لا يعني شيئًا. وقد تكون مجرد جزيرة عادية حيث يمكننا التزود بالسمك وجوز الهند والنبيذ المحلي، ونفرغ من مشروع ساموا قدر الإمكان. كم استغرقوا من الوقت- حسبما قال العم نيد- قبل أن يصلوا آرا-آرا؟ كما أعتقد، خمس ساعات أم أربع؟

- خمس ساعات إلى أربع.

خطا ديفز خطوة نحو الباب، وصاح:

- كم بلغت سرعة الرياح التي حظيتَ بها لبلوغ آرا-آرا يا عم نيد؟

- ستٌّ عقد أو سبعٌ جاءه الرد من العم نيد.

- ثلاثون أو خمسة وثلاثون ميلًا قال ديفز، ثم أضاف مزمجرًا: آن الأوان للحد من مساحة الأشرعة المنشورة، إذن. وإن كان ما نظنه جزيرة، فلا نود أن نصل متأخرين وتطأ أقدامنا عليها في الظلام، وإذا لم تكن جزيرة، فبوسعنا تجاوزها في وضح النهار أيضًا. استعدوا!

وهكذا، تمَّ توجيه السفينة باتجاه ذلك الوميض المُحيّر المنبعث من الأفق، والذي بدأ لمعانهُ يَبهت، وأخذَ حجمه يتضاءل كما يتبدد أثر الأنفاس من زجاج النوافذ. في الوقت ذاته؛ كانت السفينة على وشك ثني أشرعتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الثاني

الرُباعي

الفصل السابع:

صائد اللؤلؤ

زُهاء الرابعة فجرًا، وبينما كان القبطان ديفز وهيريك جالسين سويًا عند درابزين السفينة، ارتفعت من وسط الظلام أمامهم، أصوات مويجات ترتطم وتتكسر على الصخور، فوثب كلاهما على قدميهِ، وهما يصيخان السمع شاخصيْ الأبصار. كان الصوت مستمرًا باطّراد، مثل صوت عبور قطار دون أن يتبينوا فيما إذا كان قادمًا أم مدبرًا. ولحظة بلحظة، أخذ المحيط يموج بالشدة نفسها في وجه الجزيرة الخفيّة، وكلما مرّ الوقت، كلما انتظر هيريك عبثًا لأي تغيرات في ارتفاع صوت ذلك الاصطخاب، حتى شعر بأن إحساسًا بالأبدية، يُثقل كاهله.

بالنسبة لعين الخبير، كان يمكن للجزيرة أن تُستشف في حد ذاتها، من نسق معين من البقع المعلقة على طول السماء المرصعة بالنجوم. من جانب آخر، كانت السفينة تمخر البحر مع اتجاه الريح بثبات، وطاقمها في حالة ترقب بفارغ الصبر قُبيل شروق الشمس. وليس من ضفافٍ على الجانبين تُذكر.

ثم بزغَ بصيصُ نور من جهة المشرق، وارتفعَ سيل من الأمواج البعيدة بألوان تفوق الوصف تتدرج بين اللون الفضيّ والأرجواني، ثم تستحيل بلون الجمر.

كل ذلك، لاح لبعض الوقت عند حدود البحر، وبدا للناظر صوبه وكأنه يرُوُنُ ويُطبق، ثم يزداد قتامة ويمتد والظلام لمّا ينقشعْ والسماء مرصعة بالنجوم.

بدا الأمر مثل شرارة ينبغي على أحدهم أن يتلقَّفها، لكي تشرق وتحبو على طول جدارية ثقيلة، منيعة على اللهب، معلقة على حائط في غرفة قلّما يتهددها الخطر في حد ذاتها. وبعد ذلك بقليل، ارتفعت الشمس في كبد السماء، بأشعتها الذهبية المحمرة، وامتلأ جوف السماء بالنهار. أصبحت الجزيرة -المجهولة الخيالية- أمامهم وعلى مقربة منهم، حتى إنَّ هيريك الذي كان ينظر إليها، اعتقدَ أنّهُ لم يسبق له رؤية مشهدٍ أكثر سحرًا ورِقة مما يراه الآن أمامهُ، ولا حتى في أحلامهِ.

كانت البحيرة صافية على نحو يفوق الوصف، تحدّها سلسلة من الأشجار بلون أخضر فريد. تعلوها اليابسة بعشرة أقدام ربما، وأمَّا الأشجار فكانت على ارتفاع ثلاثينَ قدمًا أخرى. ومن كل حدب وصوب، وفيما كان المركب يتّجه شمالاً، لاحظَ هيريك وجود غابات متفرقة، وكان بإمكانه أن يرى بوضوح من فوق هذا الحزام المهمل من الأرض -كما ينظر الإنسان من فوق سور-

إلى البحيرة الموجودة بداخله، ويرى بوضوح من فوقها أيضًا، جانبًا بعيدًا من جزيرة مرجانية حلقية حيث تمتد حزمة من أشجارها قبالة سماء الصباح. وهنا، أعملَ هيريك خياله جاهدًا للعثور على تشبيهات لهذه الجزيرة، التي بدت أشبه بحافة سفينة هائلة غرقت في المياه، أو مثل حد سكة حديدية مغروسة في غابة. بدت الجزيرة هيفاء للغاية وسط تلك الأمواج المصطخبة، هشّة وجميلة إلى الحد الذي يجعله قلّما يتساءل: كيف سيراها تغرق وتختفي من دون صوت؟ وكيف ستنطبق الأمواج عليها بكل انسيابية ويُسر؟

وفي هذه الأثناء، وقفَ القبطان قرب منصة الصاري الأمامي، المنظار في يد، وعيناهُ تمسحان كل ناحية من حولهِ، عين تبحث هنا، وعين تبحث هناك عن أيّة علامة من علامات الحياة. لكن كلما تقدموا صوب الجزيرة أكثر، كلما تكشفت تفاصيلها أكثر، وكلمّا تضاءلت الألسن البحرية الممتدة منها. ومع ذلك لم يكن ثمة منزل ولا بشر ولا دخان يتصاعد من نار مشتعلة، باستثناء مجموعة من الطيور البحرية تصطاد الأسماك من المياه الزرقاء ثم تحلق عاليًا. وهناك، على مدى أميالٍ، امتدَّ طوق من نخيل الكاكاو ونخيل الكَاذِيّ حول مساحة معزولة، مؤلفة تعريشةً بظلالها الخضراء الجذّابة بحيث لا يمكن لأحد أن يقصدها. ولم يكسر حاجز سكون الموت هذا، سوى صوت هدير البحر المضطرب.

كانت الرياح نسيمًا يهّب بسرعة طفيفة. وكانت الحرارة قائظة، حتى إنَّ سطح السفينة كان يومضُ تحت الأقدام بفعل الشمس المضطرمة في كبد السماء، لدرجة أنَّ القار أخذ يغلي في دُرُوز اللحام الواصل بين كل لوحين، وكذلك الأدمغة في الجماجم.

وطوال الوقت، كانت حماسة المغامرين الثلاثة تتقد وتتوهج في عظامهم، كحرارة الحمى. فبدؤوا يتهامسون ويُومئون ويشيرون بأصابعهم، ويتهامسون بسليقة خفية فريدة وهم يقتربون من تلك الجزيرة بشكل خفي ماكر، كما لو أنهم لصوصٌ أو يسترقون السمع. وحتى ديفز المسمّر عند منصة الصاري، شرعَ بإعطاء تعليماته عن طريق الإيماءات. وساهم البحارة في هذا الأسلوب الأصمّ، مثل الكلاب، ومن دون فهم الوضع. كانت سفينة صامتة تقترب من جزيرة خاوية عبر كل هذه المسافة بين هدير الأمواج التي ترتطم بالصخور.

وأخيرًا، اقتربوا من الحيز الطويل المؤدي إلى سلّم السفينة. ومن إحدى الجوانب، تبدَّى لهم مرفأ من الرمال المرجانية، وعلى الجانب الآخر، ثمة أجمّة غزيرة مرتفعة من الأشجار، تحجب الرؤية. يقبع فيما بينها مصبٌ نهري لحوض ماء حجري هائل (48).

كانت مياه المحيط تمور وتسيل في ذلك النطاق الضيق مرتين في اليوم، وتتوقف بين هذين الجانبين المكشوفين. وبتراجع المدّ فإنَّ هذا الفائض الهائل من المياه، لا بد أن يكافح ليشق طريقه بصعوبة، ويعود مرتين في اليوم أيضًا. وفي اللحظة التي دخلت فيها الفارالون هناك، طفحت المياه، وبدأت تتدفق. وعلى غرار فِطرة الحمام الزاجل، تحول البحر إلى ما يشبه بركة شاسعة هائلة، مكتسحًا دوامات المياه نحو المداخل، وهو يتحول -إن جاز التعبير- إلى أعجوبة من ألوان حريرانية رقراقة، وأخذ يمتد إلى البحر الداخلي القصيّ. فلجأت السفينة إلى الإبحار في اتجاه معاكس للريح. لأنَّ الطوفان كان يتلقفها مرة ويجرفها بعيدًا مرة أخرى وكأنها دُمية. كانت الفارالون تصفُّ في ذلك المصب المزبد ثم ترتفع. بين هذا وذاك، لامسَ ظهرَها ظلٌ لحظي من الأشجار الممتدة على حدود الشاطئ. ولوهلة، تجلى قعر ذلك المعبر ثم بعد لحظات، اختفى.

وفي اللحظة التالية، أصبحت تعوم في قلب البحيرة الشاطئية، حيث تلهو أسفلها أسماكٌ لا تُعد ولا تُحصى من شتى الألوان والأصناف، وحيث أزهارٌ من المرجان بلونها الأبيض تملأ القعر بكل أنواعها.

وقفَ هيريك مأخوذًا بالمشهد الذي أثلج صدره وأرضى عينيه التوّاقتينِ، ومع هذا المنظر، نسيَ الماضي والحاضر، نسي خطر السجن المحدق بهِ من جهة، ونسي أنه كاد أن يموت جوعًا من جهة أخرى، نسي أنه جاء إلى تلك الجزيرة باحثًا عن الطعام وكله يأسٌ، متشبثًا بسُبل الخريطة.

ثم رأى سربًا من الأسماك ذات ألوان زاهية كألوان قوس قزح، وذات أفواه منقارية معقوفة كالببغاوات، ترفرف في ظلال السفينة وتبتعد عنها، وتتلألأ بفعل الشمس الممتدة تحت سطح الماء، كان سربًا جميلًا أشبهَ بأسراب الطيور، وقد أثار إعجابه عبورها الهادئ الشبيه بصوت الألحان، أيّما إعجاب.

وفي هذه الأثناء، تابعت البحيرة الشاطئية بمدّ مياهها الرقراقة على مد بصر القبطان ديفز الماكث عند منصة الصاري، وبدت أطواق الأشجار الممتد عند حدودها وكأنها تندفع وترتخي مثل حبال الصيد الملتفة على بكرة. وماتزال دلالات وجود مسكن بشري معدومة.

انحرفت السفينة عكسَ الاتجاه الشمالي فور دخولها ناحية بدت المياه فيها عميقة. وشرعت السفينة تحرثُ البحر صوب غابة الأشجار الطويلة المنتصبة على ذلك الجانب من المعبر كأنها مصدٌّ يمنع من الرؤية.

ومن بين كل شواطئ الجزيرة المنخفضة، كان هذا الخليج الوحيد الذي لم يُكشَف النقاب عنه بعد. وعلى حين غرّة، رُفِع الستار، وبدأت الجنة تتكشف

أمام أعينهم. فركنَ كل فرد منهم مرفقةُ على درابزين السفينة، وهم يحدقون، بدهشة تفوق الكلمات، إلى سقوف منازل البشر!

وعلى هذا النحو، فإنَّ المشهد الذي تجلَّى فورًا لأولئك الذين على متن الفارالون، لم يكن مظهر مدينة. بل كان بالأحرى، مزرعة ريفية حقيقية بما يصاحبها من قرية صغيرة مؤلفة من سلسلة طويلة من الأكواخ والمستودعات. عند أحد الأطراف يقبع منزل سكني بشرفة غامقة اللون على حِدة، وعلى الطرف الآخر ثمة عشرات الأكواخ المحلية ومبنىً ينتهي ببرج ذي جرس وبضع لوحات لقرابين على المعالم المعمارية التي توحي بأنها معالم كنيسة.

على الشاطئ، وقبالة بضعة قوارب مسحوبة منهُ، تندفع كومة من جذوع الأشجار إلى المياه الضحلة الساخنة للبحيرة. ومن على الطرف الخارجي لرصيف الميناء تنتصبُ سارية رُفعت فوقها راية إنكلترا الحمراء.

ومن كل مكان حولهم، يزخر بستان من النخيل الممتد الذي كان يحجبُ هذه المستوطنة منذ البداية، وامتدت جذوره وتأصلتْ، مكونة سعفات خضراء هائلة أشبه بالمراوح، تتموج بفعل الرياح وتلتف على بعضها بصخبٍ صوب السماء. ومن حفيف تلك السعفات، يُسمعُ لحن الطبيعة البليغ طيلة النهار، الذي تحمله الريح أثناء هبوبها. كان للمكان مظهر يفوق الوصف، وإن كان جليًا من حيث الدلالة، لكن هناك نفحة ريح ينّم عنها إحساسٌ بالهجر والفراق يكاد يكون شجيًا، مثيرًا للمشاعر. فلم يرصد أحدهم أية هيئة بشرية تغدو وتروح حول المنازل، وليس ثمة صوتٌ للمصانع ولا للمباهج البشرية؛ سوى امرأة ذات قوام فائق الطول، وبيضاء كبياض الثلج، تقف أعلى الساحل على مقربة من سارية العلم، وقد شوهدت وهي تلوّح بذراعٍ مرفوعة من اللمحة الأولى. ثم ميزّتها اللمحة الثانية بأنها شيءٌ من قبيل تمثال بحري يوضَع في مقدمة سفينة يبدو أنها تعرضت لتقلبات كثيرة، وقاست من العُباب المتلاطم، ثم جُلبَت إلى الشاطئ لتصبح موضع الدالة والعفريت الدال على تلك البلدة الخاوية.

سارتْ السفينة مع الرياح دون تدخل أي منهم لتوجيه الأشرعة أو شدّها، فيما عدا ذلك، كانت الرياح في الداخل أقوى من الخارج في ظل اليابسة المواجه للريح، وطفقت السفينة الشراعية المسروقة تكشف عن مواضع متلاحقة بخفة المشاهد المرتبة، بحيث تسمَّر المغامرون في أماكنهم، دون أن ينبسوا ببنت شفة. فالعلم الذي كان يرفرف فوق ذلك الخراب الكئيب، غنيٌ عن البيان والتعليق، لأنّهُ لم يكن قطعة قماش مهترئةً، ولا نصبًا تذكاريًا على سارية مجوّف وهالك بفعل العوامل الجوية. ولِبَثّ الطمأنينة أكثر، لمحوا من

الظلال العميقة للشرفة، بريق النوافذ الزجاجية المصنوعة من البلور، ورفرفة الغطاء الأبيض للمائدة، فلو كان تمثال مقدمة السفينة ذاك المستقر عند طرف الميناء بمعية تلويحته الأبدية تلك، وبياضه الشديد، لو حكمَ تلك القرية لوحده كما يبدو فعليًا، لما ساد حكمه طويلًا!

كان رجال الفارالون في حينها منهمكينَ، يتحركون هنا وهناك على مدار الساعة حين تيقّنوا من اختباء أحدهم. فانطلقت أعينهم تنقّب وتبحث في أعمق نقطة من ظلال أشجار النخيل، ولو اشتدت وطأة البحث وعمَّت، لكانت أعين الفارالونيين تخترق جدران المنازل، وهكذا في هذه اللحظات الحافلة بالترقّب، خامرهم إحساس بأنهم مُراقبونَ ويتمُّ التلاعب بهم، وبأنَّ هناك مأساة محدقة بهم، على وشك الحدوث، لا تكاد تُحتمل. ومن الطرف القصي لأشجار نخيل تطوّق جدولًا صغيرًا حيث مروا قربها للتو، والذي كان لآخر لحظة، خفيًّا عن أبصار أولئك الذين على متن الفارالون. ومن هذه النقطة تحديدًا، برز قاربٌ بخفة وعلى نحو مفاجئ، وانبرى صوت ارتفعَ قائلًا: هناك سفينة.

ثم أردف قائلًا:

- توقفوا عند طرف الميناء على بعد كابلين (49)، ستكون المياه بعمق عشرينَ قامة (50)، ويكون القعر مثاليًا للرسو.

كان المركب مأهولًا بمجذِّفين اثنيْنِ من ذوي البشرة السمراء، يرتديان كَلتْية (51) مكشوفة باللون الأزرق. بينما كان المتكلم الذي يوجّه القارب، يرتدي ثيابًا بيضاء بالكامل -اللباس الرسمي للمناطق الاستوائية- وقبعة واسعة تظلل وجهه. لكن، اتضح بأنّهُ من صنف الرجال الشجعان موفوري العضل، وبدا صوته كصوت رجل نبيل حَذِق بوسعه استشفاف الأمور، وفيما عدا ذلك؛ كان من الواضح بأنهم اكتشفوا الفارالون في البحر من بعيد منذ وقت قصير، لذلك كانَ سكان الجزيرة مستعدين لاستقبالها.

امتثلتْ الفارالون للأوامر باختيارها ومن دون إكراه، ورست السفينة. تجمَّع المغامرون الثلاثة في مؤخرة السفينة قرب المقصورة وانتظروا، بذهنٍ خاوٍ وبنبضاتٍ غير منتظمة مجيء الغريب الذي قد ينطوي على شخص ذي شأنٍ بالنسبة لهم، لم يكن بحوزتهم خطة مسبقة لما هم مقبلونَ عليه، ولم يكن لديهم الوقت الكافي لاختلاق قصة. لقد تمَّ القبض عليهم متلبسينَ، ولا بد أن يكونوا على أهبة الاستعداد لما يرسمه لهم الحظ، لكن هذا الترقب المقلق، كان ملونًا بالأمل.

ولما كانت هذه الجزيرة خفيَّة؛ لم يكن من الممكن للرجل الغريب أن يشغل أي منصب أو أن يكون في وضع يسمح له بالمطالبة بأوراقهم الرسمية. وخلاف ذلك، إن كان هناك أقل قدر من المصداقية في كتاب فيندلي، كما يبدو الآن، فإنه كان بمثابة عوامل ذاتية، ولا بد أنه يرى مجيئهم بخيبة أمل بالغة. وربما -كما يوسوس لهم الأمل- سيكون راغبًا وقادرًا على ابتياع صمتهم.

في ذلك الوقت، كان المركب يسير متهاديًا بمحاذاة الشاطئ، فتمكن الثلاثة أخيرًا، من معرفة أيّ صنف من الرجال -هذا- الذي ينبغي أن يتعاملوا معه. كان رجلًا ضخمًا فارع الطول، يبلغ طولهُ حوالي ستة أقدام وأربعة إنشات، وذو بُنية قوية على نحوٍ متناسق. لكن بدا أنَّ قوَّته تلك، قد خارت إلى حالة من الإعياء والتراخي أكثر من كونها حالة من التخاذل، لكنَّ عينيه لوحدهما، هما ما صححتا هذا الانطباع. ففي عينيه خليط عجيب من العبقرية والرِقّة، سوداوان بلون الفحم، يشوبهما بريق يفوق بريق الزبرجد، عينانِ توحيان بالرجولة وبالصحة التامة، وتدعوان المرء إلى اتقاء الغضب شديد اللهجة للإنسان.

كان لونُ بشرته داكنًا بطبيعتهِ، وقد مالت إلى اللون البرونزي بفعل شمس الجزيرة التي لوَّحت جلده إلى درجة يصعب معها تمييزه عن بشرة سُكان تاهيتي. وحدهُ أسلوبه وإيماءاته والقوة الحية التي قطنتْ فيه مثلما تستقر النار في حجر الصوان، وشتْ بعرقهِ الأوروبي.

كان يرتدي ثيابًا بيضاء بالكامل من نسيج قطني متين مصنوع بإتقان، أمَّا ربطة عنقه ووشاحهِ فكانا مصنوعين من الحرير الناعم الملون. وعلى مقعد المُجذِّف بجانبه، اتكأت بندقية وينشستر (52).

- هل الطبيب على متن السفينة؟ صاحَ الرجل الغريب وهو يقترب من الفارالون. أعني الدكتور سيموندز، ألم تسمعوا به من قبل؟ ولا حتى سفينة ترينتي هول كامبريدج؟ هاه؟

لم تبدُ عليه الدهشة، بل بالأحرى، طرحَ سؤاله بتأدُّب يترك أثرًا في المرء. لكنَّ عينيه استقرتا على كل فرد من الرجال البيض الثلاثة تباعًا بدافع من الفضول المباغت الأقرب إلى الأسلوب البدائي.

ثم أردفَ قائلًا: آه، إذن، لا شكَّ أنَّ هناك خطًا صغيرًا، ويجدر بي سؤالكم: لمن أدينُ بمتعة هذه الرفقة؟

وفي غضون ذلك، كان قد ارتقى السفينة، وأصبحَ واقفًا على ظهرها. وتبدّى للثلاثة بأنَّ هذا الشخص يتسم بفن الرجل الذي يصعب الاقتراب منه إلى حد ما، أو الرجل السوقي الأكثر ودًّا. لدرجة أنَّ ثلاثةَ رجال في حالة سُكر كانوا

أكثر فطنة منه في مسألة التصرف على نحو غير لائق. لذلك؛ لم يبادر أيٌّ من المغامرين الثلاثة لمصافحته.

صدفة! بإمكانكَ أن تصفها بذلك كما أظنّ. لقد سمعنا عن جزيرتكم، وقرأنا حولها في دليل (العوامل الذاتية)، وعندما أدركنا انعكاس ألوان البحيرة في وجه السماء، وجَّهنا السفينة صوبها في الحال، وهكذا، ها قد وصلنا أجابَ القبطان ديفز.

أي أننا لم نأتِ إلى هنا متسللين، أضافَ هويش.

نظرَ الغريب نحو هويش، بملامح تنُّم عن دهشةٍ مضمرة! وبعدها أشاح بوجهه عنه بشكل متعمد. وفي مثل هذه المواقف السخيفة، يصعب على المرء أن يكون عرضةً للمزيد من الإهانة.

- ربما يكون مقدّمكم مفيدًا لي، بما أنّه فات موعد وصول مركبي الخاص، لعلني أعرضُ أمرًا عليك. هل أنتَ مستعد لاستئجار مركب؟

- حسنًا، أعتقدُ ذلك، حسب الأحوال، أجابَ ديفز.

- إنَّ اسمي هو آتووتر، أردفَ الغريب قائلًا، وأجزم بأنك القبطان؟

- نعم يا سيدي، القبطان براون. وأنا قبطان هذه السفينة.

- طيب، اسمعني. من الأفضل أن نبدأ بشكل مُنصف، إنّه قبطان على ظهر هذه السفينة وهذا أمر صحيح، لكن ليس داخل عنابرها، فداخل عنابر السفينة جميعنا سواسية. وعندما يتعلق الأمرُ بالعمل، فإنني بارع فيه بقدرهِ، وكل ما أحاول قوله هو.. فلندخل إلى أحد العنابر ونشرب خمرًا، ونكمل حديثنا كرفاق. فبحوزتنا بعض الشمبانيا الفوّارة الممتازة قال هويش، وطرفَ بعينه.

وهكذا، انكشفت الشخصية المبتذلة للعامل اللندني، واشتعلت مثل شمعة في حضرة رجل مثل هذا السيد المحترم. غير أنَّ هيريك تصرَّف بشكل غريزي، وكما يحمي المرء نفسه من الألم، سارع إلى مقاطعتهِ على نحو فطري قائلًا:

- أُدعى هاي، وبما أننا تعرَّفنا على بعضنا، فسيكون من دواعي سرورنا لو تفضلتم بالدخول.

وعلى وجه السرعة، انحنى آتووتر نحو هيريك وقال:

- إنكَ خرّيج جامعي. أليس كذلك؟

- نعم من كلية ميرتون، قال هيريك، الذي سرعان ما اصطبغَ وجهه بلون قرمزي خجلًا مما عدّه تهورًا ورعونة منه.

إنني من المجموعة الأخرى، من كلية ترينتي هول، كامبردج، وقد أطلقتُ على سفينتي الاسم نفسه. حسنًا إنهُ مكان غريب لنتقابل فيه ونجتمع يا سيد هاي وتابع حديثه، بفظاظة ممزوجة باللين تجاه الآخرين.

- لكن، أتشهد على..، أستميحُ عذرًا هذا السيد، لكنني لم أسمع اسمه جيدًا؟

- اسمي هو إيوش. يا سيدي أجابَ العامل الذي احمرّ خجلًا بدوره.

- آه. قال آتووتر، وعاد بحديثه إلى هيريك: أتشهدُ على وصف السيد إيوش لخمركَ المعتق؟ أم أنَّ شاعريته التي جُبل عليها تفيضُ من طبيعته وتطفو كفقاعات؟

شعرَ هيريك بالحرج، فقد أربكهُ الأسلوب الشرس الممزوج باللين من هذا الزائر وجعلهُ يضطرم غضبًا. ذلك أنّهً أصبحَ مسلّمًا به كنِد كفؤ له، وبالتالي عاملَ رفيقيه بتجاهلٍ سافرٍ. مع ذلك، سرّهُ هذا الشعور رغمًا عن أنفهِ، ثم تغلغلَ مخترقًا عروقه كردة فعل عن غضبه.

- لا أعلمُ، إنّهُ معتقٌ في كاليفورنيا، وهذا جيد بما فيه الكفاية كما أعتقدُ.

بدا آتووتر بأنّهُ على وشك اتخاذ قراره.

- حسنًا، سأخبركم أمرًا، أنتم الثلاثة، تعالوا إلى الشاطئ هذا المساء، وأحضروا معكم سلة نبيذ. وأنا سأتولى مهمة البحث عن طعام.

- وبالمناسبة، في جعبتي سؤال كان يجب أن أطرحه عليكم منذ صعودي على متن السفينة: هل سبق لكم الإصابة بالجدري؟

- شخصيًا كلّا، لكن السفينة كانت محملّة بالمصابين قال هيريك.

- وهل سجَّلتم حالات وفاة؟ استعلمَ آتووتر.

- اثنان منهم.

- حسنًا، إنّهُ مرض مروّع قال آتووتر.

- وماذا عنكَ؟ هل هناك وفيَّات هنا على هذه الجزيرة؟ سألَ هويش.

- تسعٌ وعشرون حالة وفاة، وإحدى وثلاثين إصابة من أصلِ ثلاثٍ وثلاثين روحًا على هذه الجزيرة. هذه طريقة غريبة لإحصاء الأنفس! لا أقصدُ شيئًا بالمرّة،

لكنه أمر مفزعٌ بالنسبة لي أجاب آتووتر.

- أوه، ألهذا السبب كل شيء في هذا المكان موحش؟ سألَ هويش.

- لهذا السبب يا سيد إيوش، لهذا السبب المنازل فارغة، والقبور مكتظة.

- تسعٌ وعشرون حالة وفاة من أصلِ ثلاثٍ وثلاثين؟ عجبًا علا صوت هيريك. حسنًا وعندما يصل الأمر إلى دفنهم، مَن يهتم به؟ أم أنكَ من اهتممتَ بالدفن؟

- نادرًا، وبشقّ الأنفس، أو كان هناك يوم واحد على أقلّ تقدير عندما استسلمنا للأمر. في ذلك الصباح، كان هناك خمسة من الموتى، وثلاثةَ عشر فردًا في حالة احتضار، وما من أحدٍ قادرٍ على المضيّ في ذلك سواي أنا والقَنْدلفت (53). عقدنا مجلسًا طارئًا.. حملنا زجاجاتِ الخمر الفارغة.. وألقينا بها في البحيرة، ثم توجّهنا إلى دفنهم أجاب آتووتر. ثم أدار رأسه، وألقى نظرة من فوق كتفه على المياه المتلألئة.

- إذن، ستأتون إلى العشاء؟ فلنقل إنَّ الموعد سيكون في تمام السادسة والنصف، وسيكون أمرًا جميلًا قدومُكم.

وعلى غرار هذه الكلمات التي تفوَّه بها آتووتر، والتي اندرجت تحت خانة المعايير الاجتماعية الشكلية، جاء رد هيريك لاشعوريًا:

- في تمام السادسة والنصف؟ يقينًا سنكون سعداء بذلك. نشكركَ جزيل الشكر.

لأنني دوزنتُ أوتار صوتي على وقعِ لحنِ المدافع، ينشدهُ قلبي عندما تقرع المعركة طبولها، استشهدَ آتووتر بهذه المقولة بابتسامة، والتي سرعان ما حلّت محلها سحنة ذات مهابة جنائزية حزينة.

وعلى وجه الخصوص، فإنني أتوقع مجيء السيد إيوش قال آتووتر، ثم أردفَ قائلًا: سيّد إيوش، آمل أنكَ استوعبتَ طلبي؟

- أظنُّ ذلك يا عزيزي! أجابَ هويش اللطيف.

- حسنًا إذن؛ مفهومة تمامًا، أليس كذلك؟ السيد إيش والقبطان براون في السادسة والنصف ومن دون تأخير. وأنتَ يا سيد هاي، فلتأتِ في تمام الرابعة، الرابعة تحديدًا.

ثم نادى على قاربه.

وطوالَ سائر هذا الحديث، راودَ القبطان ديفز أفكارٌ وقلقٌ عظيمان أثقلا صدرهُ، فدور رُبان سفينة أصيل الذي وهبتهُ إياه الطبيعة بسخاء، كان معدومًا. وطوال ذلك اليوم، لبثَ صامتًا مجردًا من ذلك الدور.

وكانَ بإمكان الذين يعرفونه حق المعرفة، ملاحظة أنّهُ أصغى إلى كلّ لفظ وكلمة، وبدا أنّهُ يتأمل الكلمات حرفًا حرفًا، ويزنها بالموازين.

وأصبحَ من الصعوبة بمكان، أن نجزم كيف يبدو مظهر الرجل الفطن الذي ينبئ بالشر ولا يعبأ بشيء، بالنسبة لرجل يُنضِج خططهُ التي بدأت تثيرُ الضيف الغافل وتشغل تفكيره. فقد كان موجودًا هنا، موجودًا هناك، وموجودًا في اللامكان. لقد شعرَ بأنه قزمٌ في حضرة آتووتر، لدرجة أنَّ هيريك قرّعَ ذاته بسبب ظن عابر -بأنَّه الأفضل- وعمّا قريب، أصبح ظنًّا فظًّا صريحًا إلى درجة القول إنَّ كل شعرة على رأس الرجل أفصحتْ عن نيّة الأذى والتصرف بوقاحة.

وهنا تنبّهَ، كما هو الحال في البداية.

- لقد تحدثتَ عن مسألة استئجار مركب قال القبطان.

- حقًا؟ حسنًا، لنترك الحديث عن هذا الأمر في الوقت الراهن.

- ولكن كما فهمتُ، فإنَّ سفينتك فات موعدها؟

- لقد سمعتُ ذلك جيدًا يا قبطان براون، بحلول ظهر اليوم، يكون المركب قد تأخَّر ثلاثة وثلاثينَ يومًا.

- تأتي وترحلُ أليس كذلك؟. تبحر هنا و.. ألمحَ القبطان.

- تمامًا، كل أربعة أشهر بمعدل ثلاث رحلات في السنة.

- وأنتَ ترافقها دائمًا؟

- كلا، لدى المرء الكثير ليهتم به، لذا أقيم هنا أجاب آتووتر.

- حقًا؟ تقيم هنا؟ إلى متى؟

- إلى متى، يا إلهي أجابَ آتووتر بمنتهى الجدية، ثم أضاف بابتسامة: لم يتَّضح الأمر بعد.

- لا أظنُّ ذلك. لا، لا أحسبُ ذلك، ليس وجميع الأسباب التي تدعو للبقاء حولك، وفي مكان مريح مثل هذا، لأنه مكان مريح بالفعل أردفَ ديفز الذي سرَّح نظره في الأفق.

كما وصفتهُ تمامًا! فهذا المكان بأسرهِ، ليس ثقيلَ الظل على المرء جاء رد آتووتر.

- ثمَّة محار كما أظن؟

- نعم، كان هناك محار أجاب آتووتر.

- إنها بحيرة تأسر الأنظار يا سيدي، وهل ذلك -الصيد- أو أيًّا ما تدعوه، جيدٌ؟

- لا أعلم إن كنتُ سأدعوه -أيًّا كان- يا قبطان، إن لم تُفصِحْ عن قصدكَ بشكل مباشر.

- أهناكَ لآلئ أيضًا؟ سأل ديفز.

- ثمة لآلئ أيضًا.

- حسنًا، لقد عرفتُ ذلك! وضحكَ ديفز، حتى جلجلت ضحكته في الأرجاء بشكل متصدع كأنها قطعة موسيقية زائفة. لو لم تُفصِح عن ذلك، لن تخبر أحدًا بشأنه، هذا كل ما في الأمر.

- ما من سببٍ يدعوني للإخلال بأدنى قدر من سِرّية جزيرتي أجابَ آتووتر، ثم أضاف: والذي انكشفَ كليًا بمجيئكم، ولكن ممَّا لا شك فيه، لطالما كنتُ حريصًا على جعل سادة محترمين مثلك ومثل السيد إيوش أن يتصرفوا وكأنَّهم في ديارهم. وموضع خلافنا الآن- إن كنتم تعدّونه خلافًا - يتمحور حول مواقيت الصيد وفصوله. في جعبتي معلومات تخالون بأنني من الممكن أن أُفصِح عنها الليلة، والتي لن أفصحَ عنها. حسنًا، سنرى هذه الليلة، إلى اللقاء يا إيوش ثم دخل إلى قاربهِ وانطلقَ به.

- كل شيء مفهوم أليس كذلك؟ القبطان والسيد إيوش عند السادسة والنصف. وأنتَ يا هاي في تمام الرابعة، هل فهمتَ ذلك يا هاي؟ انتبهْ، لا أتقبَّل أي رفض، وإن لم تصلوا هناك في الموعد المقرر، فلن يكون هناك مأدبة ولا رقص. سيد إيوش!

ولشدة صفاء البحيرة الشاطئية، بدا القارب الذي اندفعَ بخطى حثيثة على سطحها المتلألئ يتبعه ظلهُ وكأنهُ عائمٌ بين السماء، بأسراب طيورها، وبين محيط البحيرة الذي يتجلى من قعرهِ سربٌ من الأسماك، من مختلف الألوان والأشكال. وأمَّا آتووتر الجالس في قاربهِ، فاستمرَّ في النظر من فوق كتفه إلى الفارلون التي خلّفها وراءه، وإلى طاقمها المسمّر عند مؤخرة سطح السفينة بجانب المقصورة، ولم يرفع بصره عنهم ولو مرة واحدة حتى لامسَ قاربه رصيف الميناء. ومن هناك، وثبَ نحو اليابسة بحركة رشيقة. بينما يراقب

الفارالونيون على الطرف الآخر ثيابهُ التي تومض في الغسق المريب للغابة حتى دخوله المنزل.

وهنا، دعا القبطان رفيقيه إلى المقصورة، بإيماءة من رأسه وبنظرة تغنيهِ عن الحديث. وحالما اتّخذَ كل فردٍ مجلسه، استدار بوجههِ نحو هيريك، وقال: ثمة أمر واحد جيد على الأقل، وهو أنّه تآلفَ معكَ بشكل جدّيٍ.

- ولِمَ يكون ذلك أمرًا جيدًا؟ سألَ هيريك.

- أوه.. سترى كيف يكون جيدًا. سترى كيف يفلح الأمر، ستمضي إلى اليابسة، وتقابله. هذا كل ما في الأمر، وستتضح لك معالم الكثير من الأشياء. يمكنك اكتشاف ما يملكه، ويمكنك معرفة ماهية المركب المستأجر الذي تحدَّث عنه. ومن يكون الرجل الرابع؟ فهناك أربعة رجال منهم، ونحن ثلاثة فقط أجابَ ديفز.

- ولنفترض أنني عرفتُ، ما هي الخطوة التالية؟ أجبني! صاح هيريك

- سأجيبك يا روبرت هيريك، ولكن في البداية، فلنضع النقاط على الحروف، حتى يكون كل شيء واضحًا أجاب ديفز بجدية المعتد بنفسهِ، أظنكَ على دراية بأن صفقة الفارالون وصلت إلى الحضيض وانهارَ كل شيء، أخالكَ تعرف ذلك حق المعرفة، ولو لم تظهر هذه الجزيرة العتيقة في الوقت المناسب حينها، أظنكَ تدري بمصيرنا، وأين سنكون نحن الثلاثة؟

- أجل، أعرفُ ذلك بغض النظر عمّن يقع عليه اللوم! وماذا بعد؟ ما الخطوة التالية؟ أجابَ هيريك

بغض النظر عن المُلام الذي تعرفهُ حق المعرفة، وإنني ممتن لكَ على تلميحكَ لذلك. فلنعد إلى صُلب الموضوع، فالآن هناك هذا المدعو آتووتر، ما رأيك به؟

- لا أدري، مشاعري نحوه متضاربة بين الإعجاب والصد، لقد عاملكما بوقاحة لا تُحتمل.

- وأنت يا هويش؟ سألَ ديفز.

إلا أنَّ هويشًا أقعى جالسًا، وهو منهمك بتشذيب ساق خُلنج شجري؛ ليصنع منه غليون تدخين، وكان نادرًا ما يرفع رأسه عندما يتولى تلك المهمة الشيقة.

- لا تطلب رأيي بهِ، أدعو الله بأن يحلّ اليوم الذي أخبره عن رأيي بنفسي، عندما أستطيع

أتَّفقُ مع هويش في ذلك. عندما اقتربَ ذلك الرجل وهو يتبختر بقاربه في الأرجاء ويقول:

- اسمعْ، إنَّ اسمي هو آتووتر، وكأنكَ لا تعلم بأنه آتووتر (54).باللهِ عليك! لقد علمتُ ذلك من النظرة الأولى، وتفحَّصته بعين ثاقبة! ها هو مثال حقيقي ولا لَبَس فيه عن الأرستقراطية، رغم أنَّ اعترافي هذا لا يروقني لكنّه، أرستقراطي حقيقي من الدرجة الأولى، ويستحيل أن يكون غير ذلك. أوه، إنني أجهلُ من تكون، أرجو المعذرة! لعنة الله عليه. أيمكن أن يكون مثلهُ من صنيعة يد الله؟

- إنّه أرستقراطي خالص، وُلِد بهذه الفطرة وجُبِل عليها، واعتادَ أن يكون من الأعيان، وأن تتم معاملته بعناية، وعلى اعتبار أن يكون جَلِفًا كالفولاذ، لاذعًا كالنبيذ، صعب المراس ويستحيل خداعه. كلا يا سيدي، ولا ذرة فيه تشي بأنه أحمقُ. حسنًا إذن، ما هي دوافع بقائه على متن هذه الجزيرة الموحشة؟ فهو لم يقرر البقاء هنا طوال تلك الفترة من أجل صيد البيض طبعًا. وشخص مثله، لا بد أن يمتلك قصرًا وخدمًا وحشمًا في الديار ولو رغِب، لكان استقرَّ في موطنه، لكنه يدرِك سبب بقائه هنا جيدًا. أُراهن على ذلك.

أوه نعم، أفهمكَ أجاب هويش.

إذن، لقد كانَ يقوم بعملٍ رائع هنا. منذ عشرة أعوام، كان يجني ثروة لا بأس بها دون شك، فهو صياد لؤلؤ. الأمر كله متعلق باللؤلؤ والمحار، والذي لا يمكن إلا أن يوجد بمثل هذه الجزيرة. وليس ثمة مجال للشك بأنَّ الأصداف تنطلق من هذا المكان باطّراد، عن طريق ذلك الطبيب على متن ترينتي هول كامبريدج، مقابل نقود تودع مباشرة في مصرف، وبهذا ما من منفعة مرجوة بالنسبة لنا. لكن، ماذا يوجد غير ذلك؟ ألا يوجد شيء آخر من المحتمل أن يكون السبب الذي يُلزمهُ بالبقاء هنا؟ بالطبع يا سادة! إنَّها اللالئ، اللالئ أولًا. لأنها أثمن من أن يوكِل أمرها لعُهْدة غيرهِ. وثانيهما لأنَّ اللآلئ تتطلب الكثير من أعمال المناولة والمطابقة، والرجل الذي يبيع لآلئه عندما يحصدها يوم هنا، ويوم هناك، عوضًا عن البقاء هنا والانتظار. هكذا رجل مغفَّل، ليس كآتووتر.

- من المحتمل، مغفل، هذا ما هو عليه. رغم أنَّ ذلك أمرٌ غير مؤكد، لكنه محتمل، أجابَ هويش.

- بل أمر مؤكد، تكلَّم ديفز بفظاظة واضحة.

- فلنفترض بأنه مؤكد، فلنفترض بأن كل ما حدث قد حدث، وأنَّ آتووتر بحوزته حصيلة عشرة أعوام من صيد اللآلئ! ردَّ هيريك.

ضربَ القبطان لوح الطاولة أمامهُ بيديه الضخمتين، ومن دون أن يرمش له جفن، حدَّق بوجه هيريك الذي حدَّق بدوره نحو الطاولة وما خلّفه وقع الأصابع عليها. حيث شعروا بتأرجح طفيف في أرجاء السفينة الراسية، حتى إنَّ بقعًا من أشعة ضوء الشمس راحت تتمايل ذهابًا وإيابًا بين الأول والثاني.

- اسمعني! انفجرَ هيريك صارخًا بشكل مفاجئ.

- كلا، حريٌّ بكَ أن تسمعني أولًا.. اسمعني وافهمني جيدًا، لن ينفعنا ذلك الرجل أيًّا كان ما تفكر به. ولأنكما من الطينة نفسها فقد تآلفتُما، لكنه ليس من صنفنا أنا وهويش، ولهذا السبب، عاملَنا بأسلوب مهين. احمهِ إن استطعتْ أجابَ ديفز.

- أحميهِ؟ كرَّر هيريك.

- إن كنتَ قادرًا على ذلك! أجابهُ ديفز بضربة من قبضته المشدودة على الطاولة. ثم أردفَ قائلًا: امضِ إلى موعدك معهُ، وحاول أن تأخذه على محمل الإطراء والكلام المعسول، أي أن تتملقه. وإن نجحتَ بخداعه وأحضرتهُ هو ولآلئه على متن السفينة، فسأعفُ عنه. إن لم تفعل ذلك، ستكون هناك جنازة. هل هذا صحيح يا هويش؟ هل هذا يناسبك؟

- لستُ رجلًا متسامحًا، غير أنني لستُ من النوع الذي يفسد على نفسهِ صفقات كهذه أيضًا. أحضر الرجل على متن السفينة وأجلبُ لآلئه معه، ويمكنك أن تحظى به وتعامله كما تشاء، أو أن تهجره حيث تحبّ، هذا ما يناسبني أجابَ هويش.

- حسنًا، وإن لم أتمكن من ذلك؟ سألَ هيريك فيما أخذ العرق يتفصد من جبينهِ إنك تحدّثني كما لو كنتُ الإله القدير على فعل هذا أو ذاك! لكن، إن لم أنجح في ذلك؟

- حريٌّ بكَ أن تفعل أفضل ما بوسعكَ يا بني، وإلا ستشهد عواقب مهوّلة جاءه ردّ ديفز.

- أوووه، نعم، يا إلهي نعم قال هويش الذي نظر نحو هيريك بابتسامة دَرْداء فظيعة، تثير رَوْع المرء بسماجتها. ثم تناهى إلى سمعه على ما يبدو هُراء لا معنى لهُ، من مقطوعة تتردد في أغنية هزلية لا بُد أنّهُ التقطها من شوارع لندن قبل عشرينَ عامًا، وشرعَ يغني بلغة غير مفهومة في ذلك المكان والزمان الملعونين كلعنة من ينسب لنفسهِ الألوهية: چيكي بيكي كريكي فكي، چلنكا وول آيبي دورِ

فيما تكبَّد القبطان، الذي ظلتْ ملامح وجههِ على حالها، عناء سماع رطانة هويش حتى النهاية.

- لو سارت الأمور كما هي الآن بوجود قبطانٍ غيري على متن هذه السفينة، لما سمح لك بالذهاب إلى اليابسة. لكنني لستُ كغيري من القباطنة. هيريك، إنني أعلم علم اليقين بأنك لن تخذلني وتتراجع عن عهدك، ولكن.. إن اخترت طريق الخيانة، فعليك اللعنة صرخ ديفز ونهضَ بغتة من على الطاولة.

وأخذ ينسحب من المقصورة، وعندما وصل إلى الباب، التفتَ فجأة، ونادى على هويش بنبرة وحشية شديدة أشبه بنباح الكلب. فتبعهُ هويش، مخلّفيْن وراءهما هيريك وحيدًا في المقصورة.

- والآن، اسمعني، همسَ ديفز، أعرفُ هيريك جيدًا، إنْ تفوهتَ بكلمة معهُ، ستفسد كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن:

على معرفة شخصية أفضل.

قبلَ أن يستدير هيريك ليرتقي رصيف الميناء، كان القارب الذي أقلّهُ قد غادر وأصبح بالفعل في منتصف المسافة بين الفارالون والضفة الأخرى. فاستقبلهُ من أعلى الساحل ذلك التمثال المنتصب عند البحيرة بنوعٍ من الملامح الساخرة كما يبدو، فرأس التمثال المخوّذ ملقىً إلى الخلف، وذراعه الهائلة بدت وكأنها تقذف قنبلة أو ما شابه، صوب السفينة الراسية.

وبدا ذلك التمثال كإلهة متمردة ظهرت من الجزيرة، وانطلقت بأقصى سرعتها صوب مشارفها، وهي على وشك أن تفرد أجنحتها وتحلق عاليًا، ثم وبفعل ساحرٍ، تم تأبيدهُ وتخليدهُ على هذه الهيئة المندفعة المفعمة بالحياة. رفع هيريك رأسه ونظر نحوه، حيث أطلّ عاليًا فوق رأسه وأكتافه بمشاعر فريدة من الحب، وبدافع المعرفة وقد أعمل ذهنه ليسافر ويتوغل ويتخيل قصة حياته غدوًا ورواحًا.

فكثيرًا ما عمل تمثال مقدمة السفينة هذا بمثابة مرشد أخرس لسفينة ما في غمرة الأمواج. ولفترة طويلة مكثَ هنا مكتوفَ الأيدي تحت حرارة الشمس المبرحة، التي لم تعد عليه بفائدة غير التعرض للفحاتها.

فأخذ يتساءل: هل هذهِ هي نهاية مغامرات التمثال إذن؟ أم أنَّ الخافي أعظم؟ وفي تلك الساعة العصيبة، لم يكن بيدهِ إلا أن يخامره شعور بالندم لكونه ليس إلهًا من الآلهة، ولكونه ليس وثنيًّا، وإلا لتقدَّم نحوه وركع أمامه طويلًا.

وعندما قرَّر المضي قدمًا، لاحظ أن الطقس رائع للسير والتفكر في ظل العديد من أشجار النخيل الناضجة، التي أخذت أوراقها تتمايل وتحف في وجه السماء بفعل تيارات النسيم العليل. ومن جميع الأطراف، رأى بقعًا من ضياء الشمس كحبات اللؤلؤ المتناثرة في كل مكان تتحرك وتحوم وترحل وتعود بسرعةٍ تفوق سرعة السنونوات واليعاسيب. وأما رمل الطريق، فقد كان متماسكًا إلى حد ما وبمستوى موطئ القدم، فوقعتْ خطوات هيريك هناك دون أن تصدر ضجيجًا كما لو أنّهُ يسير في مكان قد أثلجَ للتو. كان يحمل علامات تشي بغربلتهِ من الحشائش النامية على جوانب الطريق، كما تُزال الحشائش من ممشى حديقة منزلية، إلا أنَّ الوباء كان قد أدَّى عمله، وعادت الحشائش للظهور.

أخذت مباني المستوطنة تتكشف رويدًا رويدًا عبر سلسلة طويلة من صفوف الأشجار، جميعها مطليةٌ ذات مظهر أنيق من الطراز الأول. إلا أنها صامتة كالموتى، باستثناء صوت يصدر عن قبو من حينٍ لآخر، عن حركة هرولة سريعة، وحفيفٍ وصوت نقنقات أسراب الدواجن. ومن خلف المنزل ذي الشرفة، رأى الدخان يتصاعد، وسمع دوي طقطقة النار.

على يمينه، لاحظ بيوتًا حجرية قريبة تقبع بالقرب منه، كان البيت الأول موصدًا، فيما تمكَّن من خلال نافذة البيت الثاني، أن يرى بشكل غير واضح، كومة لا شك فيها من أصداف اللؤلؤ مكدسة في الطرف الأقصى من الغرفة. بينما البيت الثالث المفتوح على مصراعيه في عصر ذلك اليوم وكأنه يقول للمرء: أنتم في موضع ترحيب على الدوام، فقد استحوذَ على اهتمام هيريك، بفوضى لوازمهِ الخيالية وكثرتها.

في ذلك المكان، رأى حبالًا، رافعات وطُوب بناء من كل حجم وسعة، شبابيكَ مقصورة وسلالم، خزاناتٍ صدئة، صناديقَ مرافقة، وعاءً ذا حوامل نحاسية وبوصلة تشير إلى قطب مجهول في فوضى وظلمة تلك السقيفة، حبالًا، مراسيَ، جِرابًا، بدلة غطس غليظة بلون النحاس، تحوَّل لونها إلى الأخضر بمرور الأعوام، دفةَ قيادة، صندوقَ أدوات يعلوه نقش باسم سفينة تدعى: آسيا. ثمَّة متجر متكامل من التحف البحرية اللافتة للنظر، بين أدوات ممتازة وعادية ومتداعية، بعضها ممزوج باللون الأصفر النحاسي أو مكسو بالحديد.

فظنَّ هيريك أنَّه حصيلة حطام سفينتين على الأقل، ساهمتا في تشكيل هذه الكومة المبعثرة التي تعيق الحركة. وبدا له أيضًا، وهو يمعن النظر إليها، كما لو أنَّ طاقميْ السفينتين كانا هناك على أهبَة الاستعداد لما سيحصل، حتى إنّهُ سمع وقع أقدام البحّارة وهمساتهم وهم يذرعون سطح السفينة ذهابًا وإيابًا، لدرجة أنّه لمح بطرف عينيه، أرواح البحارين المألوفة. لم يكن ما يشاهدهُ مجرد صنيعِ مخيلة يقظة، بل كان بحوزته ما يبرر المضي فيه. فالأصوات الخفية مسموعة بالنسبة له من دون ريب.

وبينما كان ما يزال مسمّرًا في مكانه، يحدق إلى سقط المتاع هذا، انطلقَ صوت مضيفه بغتة من الخلف، بألطف من وداعة أسلوب الترحيب المعهود حتى.

- خردة بالية، مجرد خردة قديمة، ولكن هل اكتشفَ السيد هاي فيها، أيَّة حكاية رمزية ذات مغزى؟ سألَ آتووتر.

- وجدتُ انطباعًا قويًا تركَ أثره في داخلي على أقلّ تقدير أجاب هيريك.

واستدار بسرعة، لئلّا يفوّت على نفسهِ فرصة رؤية تأثير كلماتهِ على وجه آتووتر، وتعقيبهِ عليها. وقفَ آتووتر عند مدخل البيت، ويداه ممتدتان فوق رأسه، وتمسكان بالعتبة التي ترتكز إلى رأس العمود، حتى بدا وكأنّه يسدّ المدخل. ثم ابتسمَ عندما تلاقت أعينهما لكن، تعابير وجهه بقيت عصية على فهم هيريك.

- نعم، انطباع قوي. إنكَ تشبهني في ذلك، لا شيء ينال منّي كما تفعل السفن، فتخلّفني خرائبَ إمبراطورية غير واضحة، مثل ملّاح محنك يتكئ على درابزين سفينة قديم إلى حد ما في وسط مناوبته، إنها تجعلني أنخرط في أفكار وتساؤلات أثناء وقوفي أمامها، لكن تعالَ، دعنا نكتشف المزيد من معالم الجزيرة. ليس في هذا المكان سوى الرمال والشعاب المرجانية والنخيل، إلا أن هناك نوع من الغرابة يخيّم عليه.

- إنني أجدُها مكانًا بديعًا، كأنّها الفردوس أجابَ هيريك حاسرَ الرأس في ظلال الباحة، وهو يتنفس الصعداء.

- أها، هذا لأنكَ حديث العهد بحياة البحر، أخالكَ تثمّن ما يطلقُ المرء من تسميات. إنَّ لها اسمًا جميلًا، صفة مميزة، لحنًا هادرًا يوقع المرء في شراك فتنتها، إنها كخالقها البديع، إلا أنَّ الدين فيها شبه معدوم. تذكر نظرتكَ الأولى لهذه الجزيرة، وكيفَ أنك لم ترَ سوى الغابات والمياه، لنفترض أنكَ سألتَ أحدهم عن اسمها؛ فجاءك ردُّه: نيموّروسّا زاكينثوس.

فهتف هيريك: التي تظهر من وسط الأمواج (55):

- يا إلهي، نعم! نعم كم أنت جيد في ذلك أجابَ آتووتر، ثم أضاف: لو أصبحت خريطة المكان لأي رُبان سفينة، فإنه سيقوم بعمله على أكمل وجه هنا. والآن، تعال معي وشاهد مخبأ أجهزة الغوص.

ثم فتح الباب، وانبرى لهيريك مشهد رائع لمعدات مرتبة بعناية فائقة. أنابيب ومضخات هواء، أحذية مرصّصة عالية الرقبة، خوذ ضخمة مخطّطة تلمع في صفوف على طول الجدار، أطقم غوص متكاملة لعشرة أشخاص.

- فليكنْ بعلمكَ، النصف الشرقي من بحيرتي ضحل برمّته. لذلك، كنا حريصين على استخدام أطقم ومعدات ذات جودة عالية، حتى إنني دفعتُ ثمنًا لذلك فاق حدود الخيال. إلا أنَّ منظر الغواصين بدا غريبًا عندما رأيتُهم بهذهِ الحُلّة. أمَّا الاختراعات البحرية الضخمة هذه، وأخذ ينقر على أقرب خوذة عليه، فعندما يضعها الغواص، تأخذ بالاختفاء والظهور في وسط البحيرة. إنكَ مولع بالحكايات الرمزية والمواعظ أليس كذلك؟

- أوه نعم، أجابَ هيريك.

- حسنًا، لقد رأيتُ الرجال الذين يرتدون هذه المعدات وهم يغطسون، ثم يعاودون الظهور ثانية وهم يقطرون ماءً، ويغطسون ثم يظهرون بالطريقة نفسها وطوال الوقت، يظلُّ الرجل بداخلها جافًا كالخبز المحمص! لهذا السبب، فكرتُ بأنه ينبغي على جميعنا الحصول على بزّات كهذهِ ليتسنى لنا النزول إلى ذلك العالم في الأسفل، وأن نعود منه دون أن يمسسنا ضرر. باعتقادكَ بِمَ كنا سندعو هذا الفعل؟

- اعتداد بالنفس، أجابَ هيريك.

- أها، لكنني أعني هذا بجدية، قال آتووتر.

- فلتدْعهُ احترامًا للذات إذن! أجابَ هيريك وهو يضحك.

فأجابه آتووتر بنبرة مفعمة بالتساؤل:

- ولم لا ندعوه نعمة؟ لم لا ندعوه نعمة إلهية يا هاي؟ لم لا ندعوه فضلًا من الرب الذي سوّاك وفداكَ بروحه، هو الذي صُلِبَ من أجلك، هو الذي يشدُّ من أزرك، هو الذي نقوم بصلبهِ كل يوم من جديد بأفعالنا! لا شيء ها هنا قال ذلك وهو يضرب على صدره. ولا شيء ها هناك، قال ذلك وهو يركل الجدار، ولا حتى هنا وأخيرًا ضربَ الأرض بقدمه. لا شيء سوى نعمة الرب. إننا نتنفس ونسير بفضله، نحيا ونموت بإرادته، إنَّ مِنّة الرب هذهِ، هي ما تصنعُ محاور الكون وتثبّت أوتاده، وهي ما تجعل الأحمق الذي يظن أنه الأفضل، يختار سبيل الاعتداد بالنفس.

وقفَ آتووتر، الرجل الضخم الأسمر بجانب صف خوذ الغطاسين وأمام هيريك موقف المعارض لهُ، وبدا وكأنه قد احتدَّ بالانفعال وزاد ضخامةً. وفي اللحظة التالية بدا وكأنَّ شعلة الحياة قد انطفأتْ بداخله.

- أرجو المعذرة، أخالكَ لا تؤمن بالرب؟

- أخشى بأنني لا أؤمن كما تؤمنُ أنت.

- اعتدتُ ألّا أدخل في جدال عقيم مع الملحدين الشبان أو مع السكارى المدمنين، دعنا نجوب أنحاء الجزيرة صوب الساحل الخارجي، أجابَ آتووتر باستخفاف.

كان مجرد طريق صغير، حيث إنَّ أعظم اتساع لطرق تلك الجزيرة نادرًا ما يتجاوز الفرسخ الواحد. كانا كمن يسيران في نزهة، وكان هيريك كمن يسير

مترنّمًا.

لقد قدِمَ إلى هنا بذهنٍ مشتت، متأهبًا للكشف عن النقاب الذي يقبع خلفه وجه رجل ساحِر يكتنفهُ الغموض، وأن يسحب البساط من تحت أقدامه أمرٌ ضروري، وأن يتصرف وفقًا لذلك، إلا أنّهُ ارتأى إرجاءَ قرارهِ حتى يحين الوقت المناسب.

المعاملة القاسية، عدم الإحساس التام بمعاناة الآخرين، والسعي بلا هوادة لتحقيق مصالحه الخاصة، سلوكيات تفتقر إلى الإنسانية، هذا هو جُلّ ما توقّعه من هذا الرجل، وما ظنَّ بأنهُ وجده. غير أنَّ ما رآه، هو رجل يتأجج بأصداء الحماسة الدينية، قلبًا وقالبًا، وهذا ما أدهشهُ أيّما دهشة. فسعى جاهدًا لكنّما دون جدوى في طريقه ذاك، ليربط خيوط كل ما بحوزته من إمكانات وأدوات خبرته، لكي يوائم مجددًا محط اهتمامه مع ذاته، وصورته أمام الرجل الذي بجانبه.

- ما الذي أتى بكَ إلى البحار الجنوبية؟ سأله حالًا

- عدة أمور. الشباب، الحلم، حب المعرفة، حب البحر، الولوع بالبعثات التبشيرية -سيفاجئكَ سماع هذا- إلا أنَّ قدرًا كبيرًا من هذه البعثات تمَّ رفضها -مما سيرد دهشتك إلى محلها- إنهم يسلكون السبيل الخاطئ في ذلك، لأنهم متشددون أكثر مما ينبغي في مسائل الدين، وكأنهم سيدة مسنة ثرثارة، بمن فيهم زوجة بائع التفاح.

- الثياب، فكرتهم هي الثياب الكهنوتية. إلا أنَّ الثياب ليست أمرًا مرتبطا بالمسيحية، تمامًا كما هي الشمس في كبد السماء بل وأعلى مقامًا. حتى إنهم يعتقدون بأنَّ بيت الكاهن المترع بالورود وأجراس الكنيسة والنساء العجائز اللطيفات اللواتي يمشين الهوينى في الأزقة، جزء لا يتجزأ من الدين، غير أنَّ دينهم الذي يدعون إليه دينٌ صارم مثل هذا الكون الذي يلقي الضوء عليه ويزخرفه بالذهب. صارم، وحشي، وفظ، لكنه راسخ على نحو لا متناه.

- ووجدتَ هذه الجزيرة عن طريق المصادفة؟

- كما وجدتَها أنت، ومنذ ذلك الحين أصبح لديَّ عمل ومِصْرٌ (56) ورسالة تبشيرية خاصة بي. كنتُ رجلًا قد خَبِر الحياة وعرَكتهُ قبل أن أصبح متديّنًا، وما زلتُ كذلك بعد أن أدّيتُ مهمتي على هذه الأرض. لا خير يأتي من التعامل برفق وعناية من هذه الناحية. على المرء أن يضع المسيح نصب عينيهِ، أن يؤمن به ويدافع عنه، عليه أن يشعر بثقل رسالته ويحمل عنه بعضًا من أعبائها. حينها يمكنه الوقوف بين يديّ الرب، لكن ليس قبل ذلك. لقد منحتُ هؤلاء الشحاذينِ ما يفتقرون إليه، رجلًا كقضاة بني إسرائيل، حامِل السيف

والويلات. كنتُ أحاول تشكيل عهد جديدٍ هنا من خلال تكوين أناس جُدد. وانظرْ! ها هو ملاك الرب قد ابتلاهم، وأوقع بهم أشد عقابهِ.

وبالكلمات ذاتها التي تفوَّه بها، والتي كانت مصحوبة بإيماءات ذات دلالة، خرجا من بين جذوع أشجار النخيل المتاخمة لحدود البحيرة، وأصبحا بمواجهة الشمس الموشكة على الغروب. ومن أمامهما الأمواج المتلاطمة، تتكسر شيئًا فشيئًا عند حافة الساحل.

ومن كل جانبٍ، تجري سرطانات البحر وتزحف بسرعة حتى تغور في جحورها. ومن كل حدب وصوب، تفوح رائحة أشياء خشبية منقوصة وكأنها جفت في الهواء الطلق، توحي بنشاط رائع.

على يمينهما، أشار آتووتر وتوجَّه بشكل مباغت إلى حيث تقبع مقبرة الجزيرة، أرض من الأحجار المهدمة من مختلف الأحجام، من حجم يد طفل إلى حجم رأسه، محاطة بسياج بسيط يأخذ شكل مستطيل. ولم ينمُ فيها سوى بضع شجيرات متفرقة وبعض الزهور البيضاء، ولم يُشر إلى وجود الموتى سوى عددٍ من الأحجار المخروطية الشكل التي توضع فوق القبور، بشكلها الذي يبعث على الضيق. كلُّ فرد منهم، يرقد في في زنزانته الضيقة، إلى الأبد، أسلاف القرية البسطاء.

اقتبسَ آتووتر من مرثية توماس غراي، وهو يدخل من البوابة الواسعة لتلك البقعة المسوّرة المترعة بالرهبة.

من الشعاب المرجانية وإليها، ومن التراب وإليهِ. كان هذا هو المنظر الوحيد لعملي في جنوب المحيط الهادئ. بعضهم كان صالحًا، وبعضهم سيئًا.

أمَّا الأغلبية العظمى منهم- بطبيعة الحال وعلى الدوام- فقد كانت تافهة. هنا يرقدُ رجلٌ، اعتاد على أن يثب من مكانه جذلًا. إن استدعيتهُ، أتاك مثل سهم انطلقَ من قوسهِ. إن لم تدْعُهُ وحدث أن جاءكَ من تلقاء نفسهِ وهو يسير الهوينا، لكنَّما على غرار رقصة صغيرة معقدة، فسترَ في عينيه نظرة المحتج على إهمالكَ له.

- حسنًا، لقد انتهت مشكلته الآن. وهو يرقد في مثواه الأخير بمعيَّة الملوك والمستشارين. أما بقية أعمالهِ، أليستْ مكتوبة في سِفِر أخبار الأيام؟ (57). هذا الرجل كان من سكان بينرين (58)، ومثل جميع سكان جزيرة بينرين، لا يكاد يتدبر أمره. متهور، غيور، يتسم بالعنف. يا لهذا الرجل ذي الأنف الذي يرقد هنا بهدوء وسكينة كما يرقد أقرانه!

وظلمة القبور تُكفّن أجساد الموتى

وانتصبَ آتووتر على قدميه قبالة وهج الشمس، برأسٍ منحنيةٍ، وتمتزج في نبرة صوته العذوبة بالمرارة كما يبدو، بأحاسيس متفاوتة.

- هل أحببتَ هؤلاء القوم؟ تساءلَ هيريك الذي بدا متأثرًا على نحو يثير الغرابة.

- أنا؟ قال آتووتر، لا يا عزيزي، لا تتخيَّل أنني إنسانٌ خيِّرٌ، إنني أكرهُ الرجال، وأبغضُ النساء، وإن كنتُ أحب الجُزر من الأساس، فذلك لأنك تراهم هنا مجرَّدين من معداتهم، ومن طيورهم النافقة وقبعاتهم ذوات الحواف المطوية، ومن تنانيرهم الداخلية ومن جواربهم الملونة. ورغم ذلك هنا يرقد شخص أحببته وأشار بقدمه إلى حجارة القبر كان رجلًا رائعًا صارمًا، لقد اتَّسم بروحه السوداوية. نعم، وأعجِبتُ بهِ، إنني رجل متقلِب ثم أضاف، وهو ينظر بجدية صوب هيريك. ولكي أغتنم الفرصة. فينبغي الاعتراف بأنني أعجبتُ بك.

استدار هيريك على وجه السرعة، وأشاح بنظره بعيدًا إلى حيث السُحب التي بدأتْ تتجمع وتحتشد حول المكان الذي ستنطلق منه جنازة هذا اليوم.

- ليسَ بإمكان أحد أن يحبني قال هيريك.

- إنكَ مخطئ في هذا، فالإنسان ما هو إلا نتاج أفكاره عن نفسهِ، وإنني أراك رائعًا، ورائعًا للغاية.

فجاء صوت هيريك مدويًا في المدفن المقفر: لستُ كذلك، لا يمكن لأحدهم أن يحبني، لو أنكَ تعرف كيف أحتقرُ نفسي ولماذا.

- علمتُ ذلك، عرفتُ أنكَ ازدريتَ ذاتك من رؤية جبينكَ يندى خجلًا حالما ذكرت اسم جامعة أكسفورد اليوم، وقد خامرني شعور بالإحراج لأجلك، لرؤية رجل نبيل مثلك بصحبة ذئبيْن مبتذلين مثل هؤلاء.

فالتفتَ هيريك نحوه، وقال بنبرة يشوبها الفزع:

- ذئبان؟

- ذئبانِ، وأجزم بأنهما ذئبانِ مبتذلان. ألديكَ علم بأن فرائصي ارتعدت خوفًا عندما أصبحتُ على متن السفينة اليوم؟

- لقد أخفيتَ الأمر بشكل جيد أجاب هيريك.

- هذه من صفاتي، لكن رغم ذلك، كنتُ خائفًا من هذين الذئبين ثم رفع آتووتر يده بروّية وقال:

- والآن يا هاي، ما الذي ستفعله مع هذين الذئبين يا أيها الجرو المسكين التائه؟

- ماذا سأفعل؟ لن أفعلَ شيئًا، ليس ثمة مشكلة، فجميع من على متن السفينة يـ... القبطان براون شخص صالح، إنه... إنهُ. وهنا همسَ صوت ديفز الشبح في إذنه بما قاله قبل أن يتجه هيريك نحو الساحل ستكون هناك جنازة وبدأ العرق يتفصد وينضح من جبينه.

- إنه ربُّ أسرة، لديه أطفال وزوجة خلّفهم وراءه في الديار أضاف هيريك.

- وربُّ أسرة رائع أيضًا. وكذلك السيد إيوش من دون ريب، علق آتووتر.

- لم أقُل ذلك تحديدًا، إنني لا أستلطف هويش، ومع ذلك فله مزاياه.

- إذن باختصار، هل أعدّ كل طاقم تلك السفينة صالحًا، كما يأمل المرء؟

- أوه، نعم بالضبط! أجاب هيريك.

- إذن، فإننا نقترب من المسألة الأخرى؛ لمَ تحتقر نفسك؟

- فصرخ هيريك: أفلا نحتقر أنفسنا جميعًا؟ أليس كذلك؟

- أوه، ربما كذلك، لكنّ هناك شيئًا وحيدًا أعرفهُ حق المعرفة على الأقل يا هاي، وهو أنني لم أُطلِق يومًا تلك الصرخة مثلما فعلتَ أنت، وهذه الصرخة لم تصدر من فراغ، بل من ضمير فاسد، من عقدة الشعور بالذنب. آه يا رجل، إنَّ طقم الغوص المتواضع ذاك والذي قلتَ إنّهُ يوحي بغرور النفس قد بلِيَ لسوء الحظ. وبما أنَّ الشمس آخذة بالأفول، وفي هذا الزمان والمكان الذي يرقد فيه هؤلاء الأبرياء من ذوي البشرة السمراء. اركعْ على ركبتيك وألقِ بخطاياكَ وأحزانك على المسيح الفادي .. يا هاي.

- لا تدعُني هاي، قاطعهُ هيريك بصرخة مكبوتة، لا تنادِني بهذا الاسم حبًا بالله، ألا ترى بأنني مُعَذَّبٌ على حافة الجنون؟

- أرى ذلك وأعرفهُ، ابقَ هادئًا حيث أنت. أرجوك يا رب، سوف أحضرُ التائب هذه الليلة أمام عرشك. اقترب، اقترب من عرش الرحمة! إنه بانتظار رحمتك، رجل ينتظر أن تهبه عطف رحمتك!

وهنا، بسط آتووتر ذراعيه مثل المسيح المصلوب، وأشرق وجهه بنور ملائكي، وجاشَ صوته لآخر كلمة، بنبرة من على وشك أن يذرف الدموع.

فانطلقت صرخة شديدة من أعمق أعماق هيريك الذي قال:

- آتووتر، إنكَ تدفعني لقول ما لا طاقة لي على قوله. ماذا عساي أن أفعل؟ إنني لستُ مؤمنًا، بالنسبة لكَ، الإيمان حقيقة مسلَّمٌ بها، وبالنسبة لي، فإنَّه أمر يثقل ضميري، مثل تقليد شعبي.

لا أعتقدُ أنَّ هناك أي نوع من الكلمات على وجه الأرض أستطيعُ من خلالها تخفيف العبء عن كاهلي ولا بد لي من التخبّط حتى النهاية في هذا الحِملْ. لا يمكنني تدبُّر الأمر.

- أتظنني لن أفعل لو كنتُ موقنًا؟ لا أستطيع! ليس بمقدوري ذلك، ولنكتفِ بهذا القول.

تبددت بهجة الحماس الديني كلّها من ملامح آتووتر، واختفى الحواري داكنُ البشرة، وفي مكانه، حلَّ رجل مهذب خلع قبعته، وانحنى بطريقة ساخرة، لقد فعل ذلك بشكل صريح، واتَّقد وجه هيريك غضبًا.

- ما الذي تعنيه بذلك؟ صاح هيريك.

- حسنًا. هلّا نعودُ إلى المنزل؟ فضيوفنا على وشك الوصول قال آتووتر. فلَزِم هيريك مكانه لوهلة، بأسنان مصطكة وبقبضة يد مشدودة. وفيما هو واقف هكذا، رأى مهمته التي جاء من أجلها تلوح مبتعدة عن ناظريه، كما يلّوح القمر المختبئ بين السحاب. لقد جاء لاستدراج ذلك الرجل إلى السفينة، إلا أنه أخفق، حتى لو أمكن القول بأنه حاول وبذل كل ما بوسعه، لكن فشلهُ في مسعاه أصبح يقينًا، وعرف ذلك، وعرف أن ذلك أفضل، وبالتالي ماذا سيحدث؟

وبامتعاض، استدارَ هيريك ومشى في إثر مضيفه الذي وقفَ ينتظره وعلى وجهه تعلو ابتسامة تنّم عن أدب، وعلى الفور، مهَّد له الطريق بشكل مبالغ فيه بين جذوع أشجار النخيل المعتمة، ومن هناك تابع كلاهما المسير، وكان ثالثهما الصمت. حيث جادت الأرض برائحة ترابها المحببة، ووقع النسيم بدفئه وشذاه صافيًا على النفوس، حتى لاح أمامهما عبر جانب جميل من الغابة، ألقُ شعلة النار وضياء منزل آتووتر.

في تلك الأثناء، كافح هيريك ليكبح جماح غواية تدفعه للمضي وإيقافه من ذراعه، وأن يقول له بصوت لا يسمعه سواهما:

- احذر، إنهم على وشك إراقة دمك.

وبهذه الطريقة سينقذ حياة إنسان واحد فقط، لكن ماذا عن حياة رفيقيْه الآخرَين؟ فأخذت حياة الثلاثة تتأرجح هنا وهناك أمام ناظريه كما يتأرجح الدلو في بئره، ومثلما تتمايل الموازين في كِفتي الميزان.

حتى بلغ الأمر إلى حدّ الاختيار، ولا بُد أن يكون خيارًا سريعًا. ولدقائق معينة لا تقدَّر بثمن، دارت أمامه عجلة الحياة، وأصبح بإمكانه تدويرها لصالح أحدهم بلمسة واحدة منه. بيده اختيار مَن سيعيش منهم، ومن سيموت. فأخذ يزِنُ خياراتهِ، وبدأ يأخذ كل واحد منهم بعين الاعتبار.

بالنسبة لآتووتر الذي أثار فضوله وحيّره، أبهره وسحره، وأثار غريزة التمرد فيه، بدا له رجلًا نابضًا بالحياة صالحًا، غير أنه غامض. وفكرة موته كانت فكرة لا يستسيغها عقله، لدرجة أنها لاحقته مثل كابوس لحادثة مروعة. كثيرًا ما راودَت ذهنه صورٌ لهذه العجينة الآدمية المقدسة وهي تسقط صريعة في مختلف المواقف، وبقدر متباين من الجراح. كأن يسقط أحدهم منكبًا على وجهه، أو منبطحًا على ظهره أو صريعًا على جانبهِ. أو أن يكون متشبثًا بعضادة الباب بملامح مشوهة وأصابع مرتخية من سكرة الموت. وكثيرًا ما تناهى إلى سمعه صوت النقر على الزناد، جلجلة صراخ الضحية، وخبطة سقوطها على الأرض. كثيرًا ما راودته صورٌ عن منظر الدم وهو يسيل، وكان هذا التصور لتلك المواقف أشبه بترقيةِ الإنسان ومنحه درجة كهنوتية، حتى يبدو وكأنه يمضي مثل ذبيحة.

ثم انتقل إلى ديفز، ذلك الرفيق غليظ الأصابع، المعروف بطبعه الخشن وسماته الاعتيادية، لكن بشجاعته التي لا تُقهر وقدرته على بثّ المرح بينهم في الأيام الخوالي حينما كانوا يتضورون جوعًا، وبذلك المزيج المحبب من عيوبه وفضائله. تذكر رقرقة عينيه بدموع العطف والرقة النابع من قلبه حالما يأتي أحدهم على ذكر أطفاله، طفلتهُ أدار ومرض أمعائها، ودميتها. لا لا! لم يكن من الممكن أن يسمح للموت أن يقترب من هذا الشخص ولو في خياله! وفي غمرةِ انفعالاته وشدّتها، استنتج هيريك أنَّ والد آدار يجد فيه ابنًا له حتى الموت.

وحتى هويش، كان يرى فيه شيئًا من القداسة المفروضة عليه، لأنهم باتوا إخوة في التعايش الخفي لحياتهم اليومية على متن تلك السفينة، ثمة رابط خفي من الشعور بالولاء أوجدهُ تعايشهم جنبًا إلى جنب ورسخته مصائبهم العابرة، وحريٌ بهيريك الاعتراف بهذه الحقيقة وإلا سيشعر بوضاعته.

ذعر القتل المفاجئ في أهوال الميتة المفاجئة، لم يكن هناك أي تردد محتمل فيما توصل إليهِ هيريك، لا بد من أن يكون آتووتر الضحية، ولم تكد تتشكل هذه الفكرة -التي كانت جملة في الأصل- في ذهن الرجل حتى دخل في نوبة ذعر إلى العالم الآخر. وعندما انتبهَ لنفسه وأخذ يراقب بواطنهُ، لم يدرك إلا ارتباكًا وبلبلة، وصرخة يعجز عن إطلاقها.

وفي وسط معمعة الأفكار هذهِ، لم يكن هناك وجود لفكرة عن روبرت هيريك أو أي اعتبار له. لأنه كان قد امتثل لحركة المد والجزر في شؤون الإنسان، حتى حمله المد بعيدًا. لقد سمع بالفعل زمجرة دوامة اضطراباته التي يسبح تحت وطأتها دون محالة، لذلك لم يكن ثمة مجال للتفكير بنفسه في ظل روحه المعذَبة الملوثة.

منذ متى يغذُّ السير صامتًا برفقة مضيفه؟ لا يدري! إلا أنَّ السحب انقشعتْ بشكل مفاجئ، ومعها تلاشى اضطرابه، وبدلًا من ذلك؛ وجد نفسه في حالة سكون قوي بعد عاصفة الأفكار اليائسة تلك. وعادت له القدرة على نطق الكلام المألوف حتى سمع صوته بدهشة وهو يقول: يا له من مساء جميل!

أليس كذلك؟ أجابه آتووتر بالفعل، فالأمسيات هنا ممتعة للغاية لو أن لدى المرء عملًا يقوم بهِ. يمكن للمرء خلال النهار أن يمرّن يده على التصويب.

- أتُطلِق النار؟ سأل هيريك.

- نعم، ويمكنكَ عدّي راميًا ماهرًا، ويقيني هذا ينبع من الإيمان، أؤمن بأنَّ تسديدتي ستكون موفقة، لو وضعتُ نصب عيني فكرة مفادها بأنني لو أخطأتُ طلقة واحدة فمن شأن ذلك إفساد مزاجي، وسلب راحتي لتسعة أشهر مقبلة.

- إذن، فأنت لا تخطئ هدفك؟

- إلا إذا كنتُ أقصدُ ذلك، وأن أخطئ هدفي بدقة، هنا تكمن البراعة، ثمة ملك مسن يعرفه أحدهم في الجزر الغربية، اعتاد أن يفرغ بندقية وينشستر في سائر أنحاء جسد المرء، ثم يقلب جثته ويخلع عنه ملابسه قطعة قطعة مع كل رصاصة يطلقها من بندقيته باستثناء الرصاصة الأخيرة التي يبقيها لتستقر بين عيني الضحية بشكل مباشر. يا له من تمرين رائع!

- أتستطيع فعل ذلك؟ سأل هيريك الذي بدا على صوته رعشة مفاجئة.

- بإمكاني فعل أي شيء، إنكَ لا تفهم؛ ما يتحتم وقوعه، سيحدث أجاب آتووتر.

وهنا أصبحا على مقربة من الطرف الخلفي للمنزل، حيث شوهد أحد الرجال منشغلًا بإعداد نارٍ للطهو، والتي أخذت تتلظى بأشعة فريدة واضحة بفعل قشور جوز الهند. كانت رائحة لحوم غريبة تملأ الجو، وكانت مصابيح الشرفات تضيء في سائر أنحائها، حتى إنَّ المكان صار مشرقًا وسطَ ظلمة الأشجار المتشابكة كثيرة الظلال.

- تفضَّل، واذهب لتغسل يديك قال آتووتر ثم دلّه على الطريق إلى غرفة نظيفة مغطاة بالسجاد، وتحوي سريرًا نقالًا خفيف الوزن، خزانة، بضعة رفوف من الكتب المحاطة بإطار زجاجي، ومغسلة ذات قاعدة مصنوعة من الحديد.

وحالما نادى آتووتر على أحدهم بلغة محلية، ظهرت خلال لحظات، امرأة شابة ممتلئة وجميلة عند الباب، تحمل بيدها منشفة نظيفة.

- أهلًا حياها هيريك الذي رأى للمرة الأولى رابعَ ناجٍ من الوباء، ثم وكأنه بوغِت بصوت يذكّره بأوامر القبطان.

- أجل، المُستعمرة بأكملها -أي ما تبقّى منها- تعيش قرب المنزل، فجميعنا نخشى الأعاصير الطفيفة. تانيرا وهيَ ينامان في الصالون الأمامي، والفتى الآخر في الشرفة.

- إنها جميلة! قال هيريك.

- آية في الجمال، ولهذا السبب قمتُ بتزويجها، فالرجل لا يعرف أبدًا متى قد يصبح جمال المرأة مصدر غواية له، لذلك عندما تُركنا بمفردنا، أخذتُهما إلى المعبد، وعقدتُ مراسم زفافهما. مع أنها أثارت الكثير من الضجة بسبب ذلك، إلا أنني لا أعترف على الإطلاق بالنظرة الرومانسية للزواج.

- وهذا يُعد بمثابة ضمانة لك؟ تساءلَ هيريك بذهول!

- بلا شك، إنني رجل صريح وواقعي، وأحبُ وقع تلك الكلمات حالما ألفظها: والآن، أجمع بينكما بما لديَّ من سلطة من الله وهكذا يكون أحدهم قد جمعَ بينهما، واحترمَ قدسية الزواج.

- أها، قال هيريك.

ثم أسرَّ لهيريك:

- انظر، إنني أتطلّع إلى عقد زواج عظيم حالما أعود إلى الديار، ثم أضاف:

- أصبحتُ ثريًا، فهذه الخزانة وحدها ستشكل ثروة معقولة بالنسبة لي حالما يُتاح لي الوقت لعرضها في الأسواق، في هذه الخزانة حصيلة صيدٍ من البحيرة منذ عشر سنوات، حيث عملَ عندي ما يربو على عشرة غواصين طوال اليوم، وقد عملتُ أكثر مما يعمل الناس عادة في هذه البحيرة، كما أنني أفسدتُ الكثير من الأصداف، ومع ذلك، قمتُ بعمل رائع هنا. أتودُّ رؤية اللآلئ؟

وقع هذا البرهان المؤكد لحدس القبطان كالصاعقة على هيريك، فتمالكَ نفسه بصعوبة وأجاب:

- كلا شكرًا لك، لستُ من النوع الذي يأبهُ لمسألة اللآلئ. لا يهمني كل هذه الـ...

- الحُلي الرخيصة؟ قال آتووتر مُلمِّحًا ومع ذلك أعتقد أنكَ يجب أن تلقي نظرة على مجموعتي الفريدة حقًا، والتي.... أوه! والتي هي مثال عنّا ولنا، نحن بني البشر جميعًا. رغم أنّها مسألةٌ معلقةٌ بخيط رفيع، اليوم تكبر وتزدهر، وغدا تقلُّ قيمتها وتُلقى في المطابخ بين القدور والنيران. اليوم هنا سوية في هذه الخزانة، ثم غدًا...وربما الليلة قد يتفرق شملها.

يا أحمق! هذه الليلة تطلب نفسك منكَ، فهذه التي أعددتُها لمن تكون؟ (59)

- إنني لا أفهم ما تقول.

- لا تفهم؟ استغربَ آتووتر.

- يبدو وكأنكَ تتحدث بالألغاز قال هيريك بلهجة متثاقلة، إنني لا أفهم أي نوع من الرجال أنت، وما الذي ترمي إليه بكلامك؟!

فوقفَ آتووتر ويداه على وركيه، أحنى رأسه إلى الأمام باتجاه هيريك، وقال:

- إنني رجلٌ قَدَري، أؤمن بالقضاء والقدر. لكن الآن -في حال كنتَ مُصِّرًا على فهمِ ماهيّتي- فإنني رجل تجريبي (60). وبمناسبة الحديث عن الأمر، مَن الذي كتبَ اسم السفينة بهذا الشكل؟ تساءلَ آتووتر بطريقة تنّم عن سخرية ناعمة، لأنه من يرى طريقة كتابة اسم السفينة سيفكر بأنَّ عليكم إعادة العمل على كتابتها بطريقة أوضح. صحيحٌ أنَّ جزءًا من الاسم ما يزال يمكن قراءتُه، وأيًا كان ما يستحق القيام به، فهو بالتأكيد يستحق القيام به على نحو متقن. - ألا تتفق معي في هذه النقطة؟ حسنًا، هذا لطيف للغاية، هلاّ خرجنا إلى الشرفة؟ معي خمرة مخلّطة بالبراندي، أريد أن أعرف رأيك فيها.

فلحقَ هيريك بمضيفه إلى حيث أضيئت الطاولة المفروشة بالبياضات المزينة بكؤوس بلورية، تحت ضوء المصابيح المعلقة، تبعهُ كما يتبع المجرم جلّاده، أو كما تلحق الخراف بجزّارها.

تناولَ النبيذ بطريقة لا شعورية، امتدحَ مذاقها بعد ذلك على نحو لا إرادي. حتى استحال شعورهُ بالخوف مما سيحدث وتبدَّل بغتة، فحتى ذلك الحين كان يرى آتووتر الماثل أمامه كضحية لا حول لها ولا قوة ستُقيَّد وتُعذب حتى الموت. وقد كان تواقًا ليفرد ساقيه مع الريح ويسرع لإنقاذه، إلا أنّهُ يراه بصورة

مختلفة هذه اللحظة، إنه يراه كملاك إلهي غاضب، وقف ماثلًا بهيئة ملغزة متوعدة بالخطر. كان متسلحًا بالمعرفة ومنذِرًا بالقضاء.

أنزل هيريك كأسه، وفوجئ عندما رآه فارغًا تمامًا مرة أخرى.

- هل أنت مسلّحٌ على الدوام؟ تساءلَ هيريك، ولم تمرّ عليه سوى لحظة واحدة حتى ودّ لو كان بوسعه أن ينزع لسانه من فمه.

- على الدوام، لقد عشتُ ومررتُ بأعمال تمرد هنا، وهذه إحدى الوقائع التي يمر بها المبشر في رحلته التبشيرية.

- وفقط، بعد ذلك، تناهى إلى أسماعهما صوت ما، ثم وقعُ خطوات قادمة تقترب، فتطلعا من الشرفة وشاهدا هويش والقبطان على وشك الوصول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع:

حفلُ عشاء

جلسَ الضيوف لتناول عشاء من خيرات هذه الجزيرة، كان عشاءً استثنائيًا من حيث تنوعه وجودته، حيث احتوت المائدة على شتى الأصناف والأنواع من الأطعمة من حساء السلاحف باللحم والسمك والدجاج المشوي، إلى خنزير صغير مشوي، وسلطة جوز الهند، وفطيرة جوز الهند المحمصة للتحلية. سوى الزيت والخل المضافين للسلطة وبعض رؤوس البصل الأخضر التي زرعها آتووتر وحصدها بيديه، لم يكن هناك شيء أوروبي، ولا حتى التوابل.

ثم تعاقبت الخمرة المخلّطة ونبيذ هوك الألماني الأبيض والكلاريت الفرنسي، الزجاجة تلو الأخرى لاستكمال فرادة هذهِ المأدبة، وفي النهاية، خُتمت وجبة العشاء بالشمبانيا الفارالونية والتحلية. وكان من الواضح أنَّ آتووتر، مثله مثل العديد من المتدينين للغاية، لا يحبذ الانغماس في الملذات حتى في الأيام العادية، وليس فقط في يوم الامتناع عن المسكرات، ولكن بالنسبة لشخصيات حذقة وذكية مثله، يعلم متى يجيد الإفلات عن المعتاد، فإنَّ تناوله الطعام بشكل جيد، وبعضًا من كؤوس الشمبانيا من شأنه أن يُدخل الأمان إلى نفوس ضيوفهِ ممَّا يمكن أن يكون مجهولًا، أضفْ إلى ذلك تخطيطه وتحضيره لمآدب مثالية للآخرين، ونتيجة لذلك هدأت شكوكهم بشكل ملحوظ.

جثمتْ قطة ضخمة على كتف آتووتر دون أن تبرح مكانها وهي تخرخر، وفي بعض الأحيان، كانت تستولي بغتة على لقمة مرفوعة بيد أحدهم في الهواء بكف في غاية البراعة والخفة. رُبما يماثل آتووتر القط بذاته في أنَّه يلتف على رأس طاولته، يوزع المجاملات المبطّنة، مستخدمًا أسلوبًا ناعمًا مرة، وعنيفًا مرة أخرى دون أن يثير انتباهًا، وهكذا وقع كلٌّ من القبطان وهويش تحت تأثير سحر حسن ضيافته، ويمكن القول إنَّ مجريات وجبة العشاء قد مرَّت دون أن يلتفت لها الضيوف الثلاثة.

استجابَ هيريك لكل مَا عُرِضَ أمامهُ من ضيافة، أكل وشرب دُونَ أَنْ يعي مذاق مأكله ومشربه، وسمع ما قيلَ دونما استيعاب. كان عقله غارقًا بالتفكُر في هذه الظروف المروعة التي وُجد في غمرتها، بينَ ما بات آتووتر مدركًا له، وبين ما يعتزم القبطان فعله، وبين الطرف الذي سيبادر بالخيانة المتوقعة أولًا، كان هذا هو المحور الذي تدور حوله أفكارهُ المحتدمة. مرَّت عليه لحظات كان يتوقُ فيها لمغادرة الطاولة، وإلى أن يفرّ بجلده في ظلام الليل، إلَّا أنَّ توقه هذا بات مستحيلًا عليه. ولم يكن لقول أي شيء أو للقيام بأية

حركة منه، سوى التسبب في تعجيل فاجعة في غاية القسوة. فلزم مكانه كشخص مسحور وهو يأكل بشفتين شاحبتين، وقد لاحظهُ عن كثب، اثنان من رفاقه، آتووتر بنظراته الجانبية الطويلة دون أن يوقف حديثه، والقبطان ديفز بنظرة حادّة مرتابة.

- حسنًا، لا بدَّ من الاعتراف بأن هذا البراندي المخلّط من أجود أنواع النبيذ، كم كلّفك، إن كان السؤال ممكنًا؟ سأل هويش.

- مائة واثني عشر شلنًا في لندن، بالإضافة إلى الشحن إلى فالبارايسو، وجلبهِ إلى هنا أيضًا. يبدو أنّهُ مشروبٌ جيد إلى حد ما، أجابَ آتووتر.

- يا إلهي! مائة واثني عشر شلنًا؟ غمغمَ هويش مستلذًا بطعم النبيذ، وبالرقم الذي طرحه آتووتر بفرح غامر.

- سعيد للغاية لأنهُ نال رضاك. تفضَّل يا سيد إيوش وخذ منه ما تشاء، وأبقِ الزجاجة قربك

- إنَّ اسم رفيقي هويش وليس إيوش، علّق القبطان الذي علا وجهه استياءٌ واضحٌ.

- إنني على ثقة من ذلك، وأرجو المعذرة. هويش وليس إيوش بلا شك، لقد أبقيتُ على ثماني درّيناتٍ، أجاب وهو يحدج القبطان بنظرهِ.

- ثماني درّيناتٍ من ماذا؟ تساءلَ القبطان.

- من البراندي المخلّط، ثماني دزيناتٍ من البراندي المخلّط الفاخر، عجبًا، يبدو أن الأمر بحد ذاته يستحق بالنسبة لرجل مولع بالنبيذ.

لامستْ حقيقة هذه الكلمات الملغزة ضمائر المذنِبَين هويش والقبطان، وأيقظت فيهما شعورًا بالضيق، فاستويا في جلستهما، وحدجا آتووتر بنظرة من يوجس خيفة من الآخر.

- يستحق ماذا؟ سألَ ديفز.

- مائة واثني عشر شلنًا، جاءه ردّ آتووتر.

أخذ القبطان نَفَسًا عميقًا للحظات، وبذل قصارى جهده لإيجاد خيط يربط بين هذه التعليقات، وبجهد كبير غيَّر الموضوع.

- أظن بأننا البيض الأوائل الذين وطأت أقدامهم أرض هذه الجزيرة يا سيدي، قال ديفز.

استدركَ آتووتر، وحوَّل نظره صوب ديفز على الفور، متتبعًا مقصده:

- فيما عداي أنا والدكتور سيموند، وأجزم القول -الوحيدان- أجابَ آتووتر ثم أردفَ قائلًا: ومع ذلك من يستطيع أن يجزم؟ ربما عاشَ أحدهم هنا على مر العصور، ومكثَ لفترة طويلة. هذا أمر بديهي، ونحن نتصور ذلك أحيانًا. عندما رسونا على هذه الجزيرة المحاطة بأشجار الكاكاو النادرة كندرة البذار الطبيعية، وجدنا إلى جانبها مَعَلَمًا حجريًا لا تخطئه العين، متاخمًا لحدود البحيرة، غير معلوم فيمَ يُستَخدَم؟! لكنَّه حتمًا نُصِّب من قِبل بعض الأعيان الحمقى الذين أصبحتْ عظامهم رمادًا تذروه الرياح، على أمل إرضاء سجاياهم المطبوعة على بعض الخزعبلات التي اندثرت وأصبحتْ في غياهب النسيان. ومنذ حيازتي المكان، شهدتْ الجزيرة دويًّا لمرتين من خلال حطام سفينتين تُرِكَتْ كلتاهما، وما تبقى من القصة، فهو مجرد رجمٍ بالغيب.

- على ما أعتقد، فإنَّ الدكتور سيموند رفيقك؟ سأل ديفز.

- سيموند الرفيق العزيز، كم سيأسف لعدم حضوره معنا الليلة؛ لو علمَ بوجودكم هنا!

وهو على متن سفينة ترينتي هول، أليس كذلك؟ قال هويش.

- ستسدي لي معروفًا لو أخبرتني أين هي ترينتي هول يا سيد إيوش! جاءهُ الرد من آتووتر.

- أظنها مجهزة بطاقم محلي؟ سأل ديفز.

- بما أنَّ السر بقيَ طي الكتمان لعشر سنوات، فيُفترَض بالمرء أن يظن ذلك.

- حسنًا، اسمعني الآن، قال هويش، إنكَ تجعل كل ما يتعلق بك مبالغًا بهِ وبلا أخطاء، لكن، لأصدقكَ القول: فإن الحياة هنا لا تناسبني، فالجسر الريفي القديم متاخم للطاحونة أكثر من اللازم، ومنعزل تمامًا، حبًا بالله، أسمعني أصوات أجراس بو! (61).

- لا ينبغي أن تفكر بالأمر على هذا النحو، لقد كانت هذه الضفة مكتظة بالسكان في السابق. وحتى الآن، أصغِ! بإمكانكَ سماع صوت الوحشة، وإنني لأجدها مثيرة، وبالحديث عن صوت الأجراس، لطفًا، اتبعْ تجربتي الصغيرة الآتية في هدوء تام.

كان ثمَّة جرس فضي اللون موضوعا قرب يده اليمنى، يستخدمه لينادي على الخدم. فأشار إليهم ليلزموا أماكنهم دون حراك، ثم قرع الجرس، وانحنى إلى الأمام قليلًا كمن يود أن يعتني بشدة الرنة، ويصيخ السمع إليها. صدح الجرس

بوضوح وحِدّة، وأخذَ صداه يرتفع ويمتد مع الريح في سكون الليل وفوق الجزيرة المهجورة، ثم بدأت جلجلة الصدى تتلاشى من أبعدِ مسافة حتى تلاشت، ولم يبقَ منها سوى ذبذبات بسيطة علِقتْ بين أروقة الأُذن، ثم لم يعد الصوت واضحًا.

- البيوت فارغة، البحيرة موحشة، والسواحل معزولة! وبالرغم من ذلك، ثمة رب يسمع قرع الأجراس، ومع ذلك نجلس في هذه الشرفة تحت مشهد مضيء، والسماء مكشوفة علينا من جميع أطرافها، وأنت تدعو كل هذا بالعزلة؟ قال آتووتر، ثم أعقب حديثه حالة صمت تامة، لزم خلالها القبطان مكانه مأخوذًا بما سمعه.

أطلق آتووتر ضحكة بصوت منخفض، واستأنف حديثه:

- هذه هي التسليات الوحيدة بالنسبة لرجل يعيش بمفرده في مكان مثل هذا، وأدري، لعلها لا تنّمُ عن أهمية بالنسبة لكم. قد يسرد المرء لنفسه حكايات وقصصًا خرافية من باب الاستئناس ليحظى برفقة، وإنْ كان لا بدَّ من شيء يواتي طقوسنا يا سيد هاي، فهنا يأتي دور الخمرة الفرنسية، لا يتسنى للمرء عرض ضيافة نبيذ لافييت الفرنسي يا قبطان، فبحسب اعتقادي، إنها تُباع جميعها في بلدكَ العظيم؛ ليتم تقديمها في عربات الجر الحديدية، لكن هذا النبيذ المعتق في مزارع نبيذ غرب فرنسا لسنوات سيفي بالغرض، والسيد إيوش سيُعلمني برأيه عنه حسب خبرته.

- إنها فكرة غريبة!، هتف ديفز الذي عادَ للحديث فجأة، بعد أن سلب لبّه سحر آتووتر. إذن، أتحاول القول بأنكَ تجلس هنا في المساءات وتقرع..... أي تدق الجرس لملائكة السماء، بمفردك؟

- على سبيل الحقيقة، وبما أنكَ ذكرت ذلك بشكل مباشر، فالمرء لا يعرف لماذا يقرع الأجراس! ومتى يتدفق من ذاته ومن كل شيء يتعلق به صمتٌ أكثر نجوعًا من غيره؟ بالنسبة لي، سيظلُّ صدى آخر خفقة من خفقات قلبي وأدنى فكرة تجول في ذهني، يتردد إلى أبد الدهر. دائمًا وأبدًا.

- حسنًا، اسمعوني جميعًا، اخفضوا الإنارة، وسوف تعود أدراجها في الحال فرقة الأمل البريطانية (62)، فهذه ليستْ جلسة طقوس روحية! قال هويش.

- لا يرغب السيد إيوش.. أوه -أستميحك عذرًا يا قبطان، أقصد السيد هويش بلا شك-، لا يبدو أنّه يرغب بسماع الحكايات، علقَ آتووتر.

- وفيما كان الصبي الخادم يملأ كأس هويش، أفلتت زجاجة النبيذ من يده وانكسرت، واندلقَ النبيذ على أرضية الشرفة.

وكمَنْ حلّ الموت بأهله، علا وجه آتووتر تقطيبة العبوس، قرعَ الجرس بشكل متجبر، فارتدَّ الرجلان الأسمران من سكان الجزيرة الأصليين إلى الخلف متخذين موقف المترقب للقصاص الذي سيحلُّ بهما، ولزما مكانيهما كالأبكمين يرتعدان خوفًا.

سادتْ لحظة صمتٍ جارحةٍ متبوعةٍ بنظرات ثاقبة، ثم تلتها كلمات توبيخ بذيئة تفوّه بها آتووتر باللغة الدارجة لسكان الجزيرة. وما إن أعطاهم شارة للانصراف؛ حتى عاد الوضع كما كان.

لم يلحظ أيٌّ من الطرفين الهندام الجميل للخادمين، لقد كانا صبيّين بلون بشرة داكن، يبدوان أصغر مما ينبغي لهذا العمل، لكنهما يتقنان الصنعة بشكل أنيق. وبعد طلب سيدهما، تراجعا إلى الوراء برفق، ثم توقفا بلباقة وأعادا النبيذ والصحون إلى موضعها، فيما كانت أعينهما مسمّرةً على سيّدهما بحرصٍ شديد.

- من أينَ تحصل على خدمكَ؟ سأل ديفز.

- بل قُل، من أين لا أحصلُ عليهم؟

- ليس عملًا سهلًا على ما أعتقد، قال ديفز.

بقدر اختيارهم وجمعهم، وبطبيعة الحال، وبما أننا لم نستطع أن نحدد وجهتنا، كان علينا أن نبحث في كل حدبٍ وصوب، وأن نبذل قصارى جهدنا. لقد ذهبنا غربًا إلى كينجسملز وإلى رابايتي جنوبًا. من المؤسف أنَّ بيتي سيموندز ليس هنا، ففي جعبته الكثير من الحكايا المدهشة. كان دوره هو العمل على جمعهم وجلبهم، ثم يأتي دوري، وهو العمل على تهذيبهم وتعليمهم

- أتقصد القول تعليمهم، تكليفهم بمهام؟ تساءل ديفز.

- آه بكل تأكيد!

- انتظر قليلًا، لم أفهم الأمر لأنهُ ليس من اهتماماتي. كيف تقوم بهذا؟ أتعني القول إنكَ تشرف على تعليمهم بمفردك؟

- على المرء أن يؤدي عمله بمفرده، لأنهُ لن يكون هناك من ينتظره ليمدَّ له يد العون، ردَّ آتووتر.

- بحق الله! لا بد أنكَ كنت صارمًا معهم! صرخ ديفز مغمورًا بإعجاب شديد له.

- على المرء أن يفعل ما بوسعه.

- عملتُ في العديد من السفن في حياتي، وكنتُ أعدَّ قبطان السفينة رجلَا حكيمًا لا عدوًا. لقد شققتُ طريقي كمساعد ثالث على متن سفينة أبحرتْ صوب كيب هورن، آخر بقعة من الجزء الجنوبي لأمريكا الجنوبية، بعزم من يتسم بمعرفة كل شيء إلى الحد الذي يجعل إبليس يعودُ إلى الجحيم ويوصد الباب خلفه يائسًا من محاولة إخفاقي. وأؤكد لكم، بأنَّ طريقة تعامل السيد آتووتر هذه هي الأسوأ على الإطلاق. على متن السفن، لا يوجد شيء من هذا القبيل! لأنَّ القانون معك. لكن أنزلْني على ساحل الملامة هذا بمفردي، بلا أي شيء سوى سوطٍ ولسانٍ سليطٍ، واطلبْ مني أن .. لا يا سيدي.. هذا أمرٌ يصعب عليَّ، ولا أملكُ الشجاعة الكافية لفعلهِ. إنه القانون، إنه القانون من يقف وراء ذلك، كل مرة!

- القاضِي ليس سيئًا كما يُشاع عنه أحيانًا، جاء تعليق هويش من باب الدعابة.

- طيب، على المرء أن يطبق القانون إلى حدٍّ ما، قال آتووتر وعلى المرء أن يؤدي وظائف متعددة، ومن شأن ذلك أن يصبح مملًا في بعض الأحيان.

- عندما أفكر في الأمر، لا يَسعُني سوى الابتسام، أجابَ ديفز.

- أكاد أجزمُ القول بأننا نعني الأمر ذاته. وعلى أية حال، كان على المرء أن يوبّخهم بين الفينة والأخرى؛ لكي يستعيدوا همَّتهم ويؤدوا عملهم بإتقان، وهكذا.. عملوا .. حتى حصد أرواحهم ملاك الرب.

- أوووه. يبدو أنك كنتَ قاسيًا معهم إلى الحد الذي يجعل فرائصهم ترتعد خوفًا منك، قال هويش.

- نعم يا سيد هويش، عندما يلزم الأمر أجابَ آتووتر.

- أراهنُ على أنك تعاملهم بصرامة وقسوة، صرخ القبطان الذي تدفق الدم في عروق وجهه ورقبته بشكل ملحوظ، وانعكست نظرات الثمالة من عينيه، إلا أنَّ هذه السَوْرَة لم تكن من تأثير النبيذ، بقدر ما كانت من شدة إعجابه واستحسانه لإجابات آتووتر.

- أُراهن أنك تفعل ذلك، وأراهن على أنكَ تستطيع فعل ذلك أمام ناظري. بالله عليك، إنكَ رجل، وها أنت تؤكد كلامي!

- غمرتَني بلطفك، إنني على يقين من ذلك، أجابَ آتووتر.

- هل اقترفتَ.. هل وقعتْ جريمة هنا من قبل؟ سأل هيريك الذي كسرَ حاجز صمته بنبرة حادة.

- نعم. شهدنا وقوع جريمة هنا.

- وكيف تعاملتَ مع تلك الجريمة يا سيدي؟ سألَ القبطان بلهجة التوّاق لمعرفة ما حصل.

- حسنًا، إنّها قضية غريبة من نوعها، كانت قضية من شأنها أن تثير حيرةَ الملك سليمان (63) لو احتُكِم إليه بها. أترغبُ بسماعها؟

- فأومأ القبطان منتشيًا.

- حسنًا، أجابَ آتووتر متشدقًا إليكَ ما حصل؛ هناك صنفانِ من المواطنين الأصليين كما تعرف، المتزلف والحرُون. حسنًا، ويبدو أنَّ أحدَ الصنفين يحمل الصفتين معًا –الخضوع والعناد- وأما الصنف الآخر فلا بد أن ترى هذا عليهم جليًا. كان المتزلف ينضح تفاهةً وإذعانًا كما يسيل النبيذ من عنق الزجاجة، أما الحرُون فقد كان معروفًا بعناده وبغلظته. كان الأول حريصًا على توزيع ابتساماته طوال الوقت وإثارة انتباهك، وكان مولعًا بالثرثرة وبوسعه التحدث ببضع كلمات تعلَّمها من السواحل الإنجليزية، ويخفي تحت مسوحهِ الزائفة نزعة دينية. أمَّا الحرون، فكان دؤوبًا، مثل نحلة كبيرة في وجهها سماجة وقبح. عندما يتحدث المرء إليه، يجيب بملامح ملؤها الغضب والحقد هازًا إحدى كتفيه بلا مبالاة. إلا أنّهُ ينجز أعمالهُ على أكمل وجه. إنني لا أحاول أن أقدمه لك بموضع القدوة في الأخلاق، لا شيء في شخصهِ يمكن أن يوصف بأنه رائع من هذه الناحية، بيد أنه كان منظّمًا، رزينًا، وممتثلًا للأوامر رغم خشونة طباعه. ثم سرعان ما أوقع نفسه في ورطة متمثلة بانتهاك أنظمة المستوطنة -بغض النظر عن كيفية حدوث أمر مثل هذا- فعُوقِب الحرون نتيجة لذلك، لكن ما من فائدة!

وهكذا، أعادَ الكرّة في اليوم التالي، واليوم الذي يليه، يكرر خطأه في كل مرة، حتى بدأت أشعر بالملل من عقابه، وهو أيضًا. ثم حلَّ يوم أخطأ فيه مرة أخرى لـ... أوه ربما كرر خطأه للمرة الثلاثين، وكان كلما يقع في مشكلة، يرمقني بعينيه الغائمتين بنظرة تحدٍّ، ويبدو وكأنه على وشك أن يتكلّم ويدافع عن نفسه.

ثم حلّ الوقت الذي أصبحتْ فيه أنظمة المكان تتمحور حول نقطة واحدة: لا نسمح بأية تفسيرات تخص المستوطنة، أو بتلقّي أيٍّ منها ولا حتى إبدائها. وبهذا أكونُ قد وضعتُ حدًا لهُ، غير أنني لاحظتُ أمرًا في اليوم التالي، لم أجدهُ، كان قد رحل. ولا يمكن أن يكون هناك شيء أكثر إرباكًا لصائد اللؤلؤ من اختفاء عمَّاله. فلو اعتادَ صبيانه على الهرب، ينتهي أمر العمل، وتنهدم مغاصة اللؤلؤ. وكما ترى، تبلغ هذه الجزيرة بأسرها مسافة ستينَ ميلًا، وكأنها

طريق عام من الطرق التابعة للرعاية الملكية، وفكرة البحث عنه في هذه الجزيرة كانت ضربًا من الجنون، ولن يأخذها أحدهم على محمل الجد.

في اليوم التالي، اكتشفتُ أمرًا ما شعرتُ بوقعهِ بلمح البصر، وهو أنَّ هذا الحرون عوقِبَ ظلمًا من بداية الأمر وحتى نهايته. وأنَّ الجاني الحقيقي في كل ذلك كان المتزلف، ذلك المواطن الذي يتحدث مثل امرأة متورعة، في حالة من الارتباك، والذي أفسحتُ له المجال للحديث وللثرثرة وللتفوّه بالأكاذيب، وهو يتحدث ويكذب ويراقب ملامح وجهكَ؛ ليعرف فيما إذا كان ما يقوله يرضيك أم لا. وفي النهاية، اعترفَ بالحقيقة وقالها بنفسه! لم أُجبه بشيء، سوى الطرد وفي وقت متأخر، لأنَّ الليل كان قد خيّمَ بالفعل، انطلقتُ للبحث عن الحرُون.

ولم يكن عليَّ أن أذهب للبحث بعيدًا أكثر من اللازم، فقد دلّني ضياء القمر عليه، من على بعد مئتي ياردة تقريبًا من الجزيرة. كان معلقًا من نخلة كاكاو -لستُ عالمًا بالنباتات كفاية لأخبركم كيفية تعليقه- ولكنْ هناكَ تسعُ حالاتٍ من أصل عشر، ينتحر فيها هؤلاء السكان الأصليين. كان لسانهُ متدليًا خارج فمه، والطيور تقتات عليه. يا للبائس المسكين! أُعفيكَ من تفاصيل المشهد، فقد كان منظرًا قبيحًا. عدتُ إلى المنزل واستغرقَ منّي الأمر ستَ ساعاتٍ كاملة من التفكير جالسًا هنا في هذه الشرفة، التفكير بطريقة تعاملي، بإنصافي الذي بات أضحوكة! فخامرني شعور شديد بالغضب، أشدّ من أيّ وقت مضى، وذات فجر؛ استدعيتُ كل العمال عبر بوق المحّار (64) وخرجنا قبل شروق الشمس. حمل أحدهم سلاحًا ومهَّد الطريق برفقة المتزلف، وقد ظنَّ هذا المتسول المهذار أنَّ كل شيء على ما يرام كونه اعترفَ لكنه، بصراحة كان يتملّقني، ويذكر حسن نيته وسلوكه القويم، وهو لا يتذكر فعلًا حاصل واحد جمع واحد!

وما أن بانت النخلة، وأصبحت هي والرجل المتدلي منها أمام الأنظار، حتى انفجر الجميع بالنحيب والتحسر على رفيقهم في الجزيرة، ومن بين جميع النادبين، كان صوت المتزلف هو الأعلى، وبالرغم من شخصيته المؤذية، ومن عدم إحساسه التام بالذنب، إلا أنّه كان صادقًا تمامًا في مشاعره تلك اللحظة. ولكي أختصر عليك هذه القصة الطويلة، طلبتُ منه أن يرتقي تلك النخلة، فرمقني بنظرهِ للحظات، وفي عينيه مسحة قلق وعلى شفتيه ابتسامة متخوفة إلى حدٍ ما. بيد أنّه امتثل للأمر، وتسلّق النخلة. كان شخصية مطيعة حتى آخر رمقٍ فيه، كما أنّه ذو مناقب جمّة، إلا أنه مجبولٌ على الكذب. وسرعان ما تسلّق النخلة، استدار ونظر إلى الأسفل حوله.

كان ثمة بندقية مصوبة نحوه، ما أن رآها حتى أطلق نشيجًا مكتومًا كالكلب، وحتى هدأت أصوات العويل والبكاء الحاد من الدهشة، إلى الحد الذي صار بإمكانكَ معه، إلقاء دبوس وسماع صوت سقوطه على الأرض! وبعيون متورمة من البكاء، لزم كل الموجودين مكانهم على الأرض دون أن يبرحوهُ، ولزمَ مكانه-هو الذي استحالَ جلده بلون الرصاص المشوّه- على قمة النخلة وفيما بينهما، يترنح الرجل الميت معلقًا في الهواء.

كان مذعنًا حتى النهاية، ففوَّض أمر روحه للرب، وهو يتلو جريمتهُ، ويعترف بها. ومن ثم.. سكتَ آتووتر لبرهة، وأحدثَ هيريك الذي كان يصغي بانتباه شديد، حركة التفات مصحوبة باختلاج من شدة ترقّبهِ؛ فانقلبَ كأسه واندلق على الأرض.

- ومن ثمَّ؟ سأل القبطان بأنفاس منقطعة من شدّة انبهاره.

- أطلقتُ النار عليهما وأرديتهما أرضًا، سويةً!

وثبَ هيريك على قدميه دفعة واحدة، مطلقًا صرخة مدوية، بفعل لا شعوري. ثم طفقَ يصرخ قائلًا: - لقد كانت جريمة قتل، جريمة قتل بلا رحمة ارتكبها سفاح مجنون! إنكَ كائن وحشي! قاتل ومنافق، قاتل منافق، قاتل منافق... أخذ يردد، إلا أنَّ الكلمات بدأت تشق طريقها بصعوبة من بين شفتيه.

كان القبطان بجانبه في تلك اللحظات.

- هيريك! تمالكْ نفسك وأحسنْ التصرف، كفَّ عن التصرف بغباء.

حاولَ هيريك جاهدًا، والذي بدا مثل صبي جنَّ جنونه، استيعاب ما سمعه. ولم يلبث أن طأطأَ رأسهُ وأسندهُ بين يديه، حتى غصَّ ببكاء مرير، ومن هنا بدأ شعوره الأول من بين العديد من مشاعر الألم والمرارة، حتى إنَّ جسده طفق يتلوى ويهتز دون إحداث ضجة، وأخذ يطلق أصواتًا، يعجز عنها الوصف والمعنى.

- يبدو أنَّ صديقك ينفعل أكثر من اللازم علّق آتووتر الذي لزم مكانه بلا تأثر، لكن على أهبة الاستعداد لأيّ طارئ.

- لا بدَّ وأنّهُ من فعل النبيذ، فهو غير معتاد على الخمر كما ترى، أظنني.. أظنّ أنّهُ من الأفضل أن أصطحبه في جولة. فمن شأن ذلك أن يعيده إلى وعيه، فلعله يستفيق أجابَ ديفز.

ومن دون ممانعة، قادهما آتووتر من الشرفة إلى باب المنزل الخارجي، حيث غادراه وغاصا في ظلام الليل الذي سرعان ما ذابا فيه كما تذوب قطعة

السكر في الشاي. ولكن بعد مرور الوقت، وفيما أخذا يبتعدان، سُمِعَ صوت آتووتر الخفيض، وهو يتفوه بكلمات تطيّب الخاطر مرة، ويتذمر منددًا مرة أخرى، بينما أخذ هيريك يرد عليه بالتتابع، في خضم هذيانات انفعالاته.

- إنّه أشبه بديك مقيّد في حظيرة دواجن، علّق هويش الذي عبَّ الكثير من النبيذ، وأراقَ الكثير منه دون أن ينتبّه للأمر، بهدوء رجل نبيل.

- تصرّف سيئ إلى حدٍ ما، أليس كذلك؟ حسنًا.. حسنًا، تركونا بمفردنا لنخوض محادثة وجهًا لوجه. أرغب باحتساء كأس من النبيذ برفقتكَ يا سيد إيوش!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر:

الباب المفتوح.

في تلك الأثناء، أدار هيريك والقبطان ظهورهما لشرفة آتووتر وضيائها، واتّجها صوب رصيف الميناء وساحل البحيرة الشاطئية.

كانت الجزيرة في هذه الساعة بأرضيتها المفروشة بالرمل الناعم، وبقبة سمائها وبأضواء المصابيح المنتشرة، تُضفي على المنظر مُسحةً خيالية مثل مسرح مهجور أو حديقة عامة في منتصف الليل. نظرَ ديفز حوله باحثًا عن تمثال مقدمة السفينة وجدول، فيما كان الهواء يحرك أشجار النخيل بين الفينة والأخرى. وما جعل صوت الصمت جليًّا أكثر، هو الصخب المتتابع للأمواج المتكسرة من شاطئ البحيرة، حتى بدا وكأنّه زحام مروري في شارع متاخم. ولما كان القبطان مستمرًا في محادثة هيريك والتهدئة من روعه طوال طريق سيرهما، حتى وصل به أخيرًا إلى جانب البحيرة الشاطئية، ثم أخذَ بيده أسفل الشاطئ، وغمر رأسه ووجههُ بالمياه الباردة.

أخذت النوبة الهستيرية تتلاشى شيئًا فشيئًا، وأصبحَ النحيب أقل شدةً، ثم توقفَ. وبهذا الاندماج الغريب نوعًا ما، تبدَّد سيل كلام القبطان المهدّئ في الوقت ذاته تدريجيًا، ولبث الرفيقان غارقين في لجة الصمت الذي لم تكسر رتابته سوى مويجات انطلقت من البحيرة، وارتطمت بأقدامهما بصوت رقيقٍ كرهافة الهمس.

ومن السماء، أطلتْ النجوم من كل حدب وصوب متلألئة، وكأنها ناظرة لانعكاساتها في تلك البحيرة الواسعة، ومصباح الفارالوان الراسية شديد التوهج، يضيء نصف المسافة بين الرصيف والسفينة، وهو يتميز اضطرابًا.

ولمدة طويلة، لبثا على هذه الحال، وهما يمعنان النظر في هذا المشهد الماثل أمامهما، ويستمعان بتوتر إلى هدير تلك الأمواج الصغيرة، أو يصغيان إلى صدى ساحلٍ بعيدٍ صاخب. ولأنَّ قوة الكلام تنصَّلتْ منهما لفترة من الوقت، فعندما جاءتهما الكلمات في النهاية، جاءت لكليهما في آنٍ واحد. وكان القبطان من استهلَّ حديثه أولًا: قل شيئًا يا هيريك.

لكنَّ هيريك، التفتَ بسرعة نحو رفيقهِ، وجثا أمامه، وقال بنبرة تعج بالتوسل: لنرحلْ أيها القبطان.

- لنعدْ إلى البحر.

- إلى أينَ يا بني؟ أين سنذهب؟ أجابَ القبطان. القول أسهل من الفعل، إنّهُ لأمر سهل أن نرفع المرساة ونغادر، لكن أين سنذهب؟

- إلى البحر، البحر واسع بما فيه الكفاية، إلى البحر. بعيدًا عن هذه الجزيرة المروعة وذاك.. ذاك الرجل الشرير!

- أوه.. سوف ننظر في أمر ذلك الرجل، استجمعْ قواك وسننظر في أمرهِ. إنكَ مُرهقٌ تمامًا، وهذهِ نقطة ضعفكَ الآن، إنك مثل حمامة في أقصى حالات رعبها وانفعالها، لا بدَّ أن تتمالك نفسك، وتعود إلى طبيعتك ثم سنتحدث.

- إلى البحر، كرَّر هيريك قوله مؤكدًا، فلنعدْ إلى البحر هذه الليلة، لا بل هذه اللحظة!

فأجابهُ القبطان بصرامة: لا يمكننا ذلك يا بنيّ، لن يتسنى لسفينتنا أن تمخر عباب البحر من دون مؤن، ضع ذلك في الحسبان، قُضيَ الأمر.

- يبدو أنكَ لن تفهم، لقد انتهى الأمر برمته، ليس ثمة ما نفعله هنا أؤكد لك ذلك، عندما يكتشف كل شيء. ذاك الرجل ذو القطة! إنهُ يعرف كل شيء. ألا يمكنكَ أن تستوعب الأمر؟

- أي شيء؟ سألَ القبطان الذي بدا عليه الارتباك بشكل واضح ولماذا؟ فقد استقبلنا كرجال نبلاء تمامًا وعاملنا بسخاء بالغ، حتى بدأتَ أنتَ بحماقاتك. ولا بد لي من القول إنني رأيتُ رجالًا يقتلون أُناسًا لأسباب لا تستحق القتل، ولم يحزنْ عليهم أحد! ما الذي تتوقعه أكثر من ذلك على أية حال؟

فأخذَ هيريك يذرع المكان جيئةً وذهابًا على الرمال، وهو يهز برأسه.

- إنّهُ يهزأ بنا. كان يسخر منّا وحسب. وهذا كل ما نجيدهُ نحن، أن يهزأ الآخرون بنا!

- ثمة أمر غريب واحد لا بدَّ من التأكد منه اعترفَ القبطان بصوتٍ تخالجه الريبة، الأمر متعلق بالبراندي المخلّط، ملعونٌ أنا لو لم أكتشفه! اعترفْ ياهيريك، هل كشفتَ سرّي؟

- أوه. أكشفُ سرك؟! كرَّر هيريك بنبرة تنّم عن ازدراء وتبرُّم ما الذي نملكه لنخشى افتضاحَ أمره؟ - إننا مكشوفون! أمامنا وغد يصمنا بالعار، وغد اكتشف أمرنا، نذل يعلم بالأمر! عجبًا! لقد لاحظَ اسم السفينة المكتوب بطريقة تثير الريبة، قبل أن يصعد على متنها، لقد اكتشفَ الأمرَ برّمته وتأكَّد من أننا سنقتلهُ هنا بعد ذلك، ورغم ذلك وقفَ أمامنا مجازفًا، متوجسًا منكما، لكنّه وقفَ ليهزأ منكَ ومن هويش. عندما ذهبتُ إليه قبلكما، أخذني إلى الساحل،

ويا لهُ من وقت رائع حظيتُ به هناك! إنّهُ يصمكما بالذئبين-أنت وهويش- هكذا ينظر إليكما، وأنا الجرو المغفل الذي يرافقكما. لقد سألني ما الذي يفعله جرو مثلكَ مع ذئبين ضاريين مثلهما؟! ثم عدنا إلى منزلهِ، وأطلعني على لآلئه التي تنبأ بأنها قد تختفي قبل حلول الصباح، وأن جُلَّ ثروته هذه على المحك، معلقة بخيط رفيع. وابتسمَ حالما قال ذلك، ويا لها من ابتسامة مبطنة تنطوي على الكثير!

- أوه، لا جدوى من الأمر يا ديفز! أؤكد لك ذلك، إنهُ يعرف كل شيء، إنهُ ينظر من خلالنا، لقد سبر أغوار نفوسنا، نحنُ نجعل من أنفسنا أضحوكة له بمزاعمنا. إنه يرى دواخلنا ويضحك علينا، لكنّه يمهلنا بعض الوقت كما يفعل الرب أجابَ هيريك.

سادت لحظة صمت، وقف ديفز خلالها يحملقُ في الظلام مقطبًا حاجبيه.

- اللآلئ؟ استدركَ ديفز. هل أطلعك عليها؟ هل اللآلئ بحوزته؟

- كلا لقد نسيتُ أن أخبركَ، لم يُرني اللالئ، بل الخزانة التي تضمّها، إلا أنكَ لن تحصل عليها أبدًا، لديَّ كلمتان لأقولهما بشأن ذلك.

- أتظنّه سيكون بمنتهى اللطف والبساطة على مائدة الطعام لو لم يكن متأهبًا؟ صاحَ هيريك الخادمان كلاهما مسلّحان، وآتووتر شخصيًا مسلح كما هي عادته. لقد أخبرني بذلك شخصيًا يا ديفز، إنكَ لن تجابهَ حذره. أعرفُ ذلك! انتهى كل شيء، كل شيء، لم يعد هناك ما نفعله، لا شيء البتة. انتهى كل شيء. الحياة التي كنتُ أتوقُ إليها، الاحترام، الحب. يا إلهي! يا إلهي! لمَ ولدتُ؟ قال هيريك، وأعقبَ نوبة غضبه هذهِ، صمتٌ آخر. وبعد ذلك، وضع القبطان يده على جبينه، وقال:هناك أمرٌ آخرُ! لماذا يعمد آتووتر إلى إخبارك بكل ذلك؟ يبدو الأمر بالنسبة لي، وكأنه حماقة منهُ!

هزَّ هيريك رأسه بحركة متكررة، وبوجه مغتمّ ثم أجابهُ:

- لا أظنّكَ ستفهم إن أخبرتك عن السبب.

- أظنني سأفهم أيَّ أمرٍ لعين ستخبرني به أجابَ القبطان.

- حسنًا، إنّه رجلٌ قَدَري.

- وما هذا؟ ما الذي تعنيه بـ قَدَري؟

- إنه رجل يؤمن بالكثير من الأشياء. إنه يؤمن بأنَّ رصاصاته ستصيب الهدف لو أيقن بذلك، ويؤمن بأنَّ كل شيء يحدث كما يشاء الله، وافعلْ ما يحلو لك

لمنعه إن استطعتَ. وما إلى ذلك.

عجبًا، ولكنّني أؤمن بذلك أيضًا، كما اعتقد أجابَ ديفز.

- أو تؤمنُ حقًا؟!

- نعم بالطبع، أجابَ ديفز.

فهزَّ هيريك كتفيهِ بلا اكتراث، ثم أسندَ رأسه على ركبتيه، وقال له:

- حسنًا، لابدَّ أنك أحمق.

انتصبَ القبطان واقفًا وهو يعضّ على يديه، وأردفَ قائلًا:

- ثمَّة أمرٌ واحد متأكد منه الآن. يتحتم عليَّ إخراج هويش من منزل ذلك الرجل، فهو ليس مهيًّا ليحافظ على حياته وهو برفقة رجل كالذي وصفتهُ لي.

ثم استدارَ لينصرف.

انسابت كلمات القبطان بمنتهى البساطة. صحيحٌ أنّه قالها بصوت خفيض، إلا أنَّ هيريك سرعان ما تمكّن من فهم مغزاها.

- لا، لا، ديفز لا تفعلْ ذلك، ارحمني ولا تذهبْ. حافظ على نفسك، دعهُ وشأنه بحق الرب عليك، اتركه حبًا بأولادك نادى هيريك بصوت مرتفع مشبوب بالغضب، فلحظة أخرى من هذا الصراخ، وربما يسمعهم آتووتر -ضحيّتهم المفترضة القريبة- غير أنَّ ديفز التفتَ نحو هيريك بإشارة شتيمة فاضحة، فسقطَ الشاب البائس، وهوى بوجهه على رمال الساحل. ووقعَ بلا حول ولا قوة عاجزًا حتى عن الكلام.

في غضون ذلك، انطلقَ القبطان على جناح السرعة صوب منزل آتووتر، وأثناء سيرهِ انشغل عقله بتمحيص الأمر، وأخذت أفكاره تحتدم. لقد أدركَ القبطان أنَّ آتووتر كان يسخر منهم منذ البداية، وعليهِ، سيلقّنه درسًا يعلّمهُ من خلاله، كيف يسخر من جون ديفز!

يخالهُ هيريك إلهًا! فليمنحهُ هيريك لحظة؛ ليضع هدفه نصبَ عينيه ويُطيح بهذا الإله. فضحكَ بصوت منخفض وهو يتلمس عقب مسدسه، لا بدَّ أن يتم الأمر بأقصى سرعة، هل يباغتهُ ويأتيه من وراء ظهرهِ؟ بيدَ أنّه من المتعذر الوصول إلى هناك.

أيفاجئه من الناحية الأخرى من المائدة؟ كلا! ارتأى القبطان أن يطلق النار عليه وهو واقفٌ حتى يتسنى له التأكد من وضع يده على سلاحه، وعندما

يصل، فمن الأفضل أن يستدعي هويشًا، وحالما يستدير آتووتر واقفًا، عندئذٍ، ستحين اللحظة المنشودة.

ومشى القبطان صوبَ المنزل حانيًا رقبته، غارقًا برؤيته المسبقة لتلك الأحداث.

- ارفعْ يديك إلى الأعلى، والزمْ مكانك ارتفعَ صوت آتووتر صارخًا، وقبل أن يدرك القبطان ما كان على وشك فعله، امتثلَ للأمر ورفع يديه، كان وقعُ المفاجأة شديدًا ولا سبيل للخلاص، وفي ذروة تفكيره بنواياه الإجرامية، مشى برجليه نحو الكمين الذي نصبه بنفسه، ووقفَ عاجزًا بين يديّ آتووتر، ويداه مرفوعتان إلى الأعلى محدقًا نحو الشرفة.

وبعد أن انفضَّت هذه الجلبة، استندَ آتووتر إلى ركيزة جدارية، فيما أبقى على بندقية وينشستر مصوبة نحو ديفز. كان أحدُ الخدم على مقربة منه، حملَ السلاح بيده خلال لحظات، واتَّخذ وضعية الدفاع بعد أن انحنى دافعًا بجسده إلى الأمام، وأخذَ يترقب بعينيْن يقظتيْن، وعند أعلى السلالم المتاخمة لمساحة مفتوحة، أُسنِد أمر هويش لرجل آخر من سُكان الجزيرة الذين يخدمونه. كان وجههُ مكللًا بابتسامات لا معنى لها، وعلى ما يبدو، فإنَّ ذهنه غارقٌ في تأمل سيجارة غير مشتعلة.

- حسنًا، يبدو لي أنكَ قرصان تافه لا يساوي ثمنهُ بنسيْن قال آتووتر.

ولأنَّ القبطان غصَّ بغضبهِ، أطلقَ صوتًا من حنجرته نعجز عن وصف كنههِ.

- سوفَ أُسلِمك السيد إيوش! أو ما تبقى من مدمن الخمر هذا، إنّه يهذر كثيرًا عندما يثمل يا قبطان ديفيز مالك حارسة البحر، لكنّني انتهيتُ منه تمامًا -و ها أنا أعيدُ إليك هذه الخرقة المغموسة بالخمر مع جزيل الشكر. الآن ثم صرخ بعنف وأضافَ قائلًا، حركة خاطئة أخرى مثل هذه، وستضطر عائلتك للأسى على فقدان والد لا يقدّر بثمن. الزمْ مكانكَ يا ديفز

تفوَّه آتووتر بكلمة بلغة سُكان الجزيرة، فيما أبقى عينيه مسمرّتين على القبطان، وفي هذه الأثناء، دفع الخادم هويشًا إلى الأمام من حافة السلالم بشكل ذكي.

ومع هذه الجلبة، وتشتّته واضطراب أعضائه، ركضَ ديفز أمامه، لدرجة أنّه ضرب الأرض بقدميه! ثم رفعَ ذراعيه عاليًا حول نخلة قريبة. بدت هذه التصرفات غير مفهومة بالنسبة إليه، وبدا على وجهه الغمّ، لحظة قفزتهِ لا شعوريًا. وبديهيًا، كان قد عانى كثيرًا قبل ذلك من هذه الاضطرابات، متشبِّثًا

بشجرة كطفل صغير، وبدا أنه يظهر لهم، من أسفله، من تراجعاته، كما لو أنّه خاطبٌ في لعبة التقاط التفاح! (65).

ولو كانَ أكثر تأنيًا ومرونة وتعاطفًا، لانتبهتْ عيناه قليلًا أمامه على الرمال، والذي ما يزال بعيدًا عنه، إلى السيجار غير المشتعل.

ها هي جيفة حي وايتشابل (66) قال آتووتر لعلكَ تتساءل: لمَ لا أضع نهاية لحياتكَ على الفور وكما تستحق أن تُحاسَبْ؟ وسأخبرك بالسبب يا ديفز، هذا لأنه ليس لي علاقة بحارسة البحر والناس الذين أغرقتَهم معها، أو بالـ فارالون والشمبانيا التي سرقتها معها، هذا الأمر بينكَ وبين الله، هو من يبتُّ به، وهو من سيقوم بتسوية الأمور عندما تحين الساعة. أما أنا، فليس بحوزتي حجة لأنطلقَ في حسابكَ سوى الظن، وأنا لا أقتلُ إنسانًا لمجرد الظن بهِ ولا حتى حشرة مثلك! لكن ما عليكم فهمهُ هو إن رأيتُ أيَّ أحدٍ منكم هنا مرة أخرى؛ فسيكون الحساب مختلفًا، وسوف تتلقون الرصاص كما تعبّون النبيذ. والآن، انصرفْ من هنا ما دمتَ تثمّن تلك التي تدعوها حياتكَ وأبقِ يديكَ مرفوعتين حيث هما وأنت تغادر.

بقيَ القبطان على حالهِ، يداه مرفوعتان، فاغرًا فاهُ من شدة الغضب.

تحرَّك صرخ آتووتر واحد، اثنان، ثلاثة

فاستدار ديفز، وأخذَ يسير على مهلهِ مبتعدًا. إلا أنّهُ حتى أثناء سيرِه كان يترقب هجمة سريعة عليهِ من وراء ظهره، وبطرفة عين، وثبَ واختبأ خلف شجرة، جثمَ هناك وسلاحه بيدهِ، حيث أخذ يختلس النظر مكشرًا عن أنيابهِ كثعبان على أهبة الاستعداد للهجوم سلفًا، من جانبي المكان الذي كمنوا له فيهِ. بيدَ أنَّ الأوان كان قد فات بالفعل، لأنَّ آتووتر وخدمه كانوا قد اختفوا، ولم يبق سوى المصابيح التي تضيء على الطاولة المهجورة والرمال المتلألئة حول المنزل، والتي تلقي بظلال أشجار النخيل الفارعة الجميلة في كل اتجاه من الليل.

أخذَ ديفز يصرّ على أسنانه من شدة الغضب، وأخذ يتساءلُ مع نفسه: إلى أينَ ذهب هؤلاء الجبناء؟ إلى أيّ جُحر ناءٍ عادوا أدراجهم وغاروا؟ كانَ من العبث أن يحاول فعل أي شيء، وهو بمفرده وبمسدس مستعمل، ضد ثلاثة أشخاص مدججين بالأسلحة وببنادق وينشستر، والذين لم يصدروا أيَّ صوت من أيٍ من فتحات ذلك البيت المضاء المدجج بالأسرار. فبعضهم كان يتوارى قبل ذلك، في الطابق السفلي من الجزء الخلفي منه، وهو يسحب حجارة فوقه لحظة نزولهِ من مدخل سرداب بمستوى الأرض. حاوية الزجاجات الفارغة والأواني الفخارية المكسورة.

ما الذي يمكن فعلهُ الآن؟ كلا، ليس بيده شيء يفعله سوى التخلص، إن كان ذلك ممكنًا، من تعبه.

- هويش، تعالَ إلى هنا قال القبطان.

- خسر...تُ سيجاري، قال هويش مشيرًا إلى الأمام على نحو غامض.

فأطلقَ القبطان سيلًا من الشتائم بصوتٍ أجشّ، ثم قال: تعال هنا في الحال.

- حسـنًا، دعنا نبيتُ هنا عند آتووتر، وننطلق غدًا صباحًا على متن السفينة، أجابَ هويش بنبرة مبتهجة.

- إن لم تأتِ هنا في الحال، قسمًا بالرب سأطلق النار عليك، صرخَ القبطان.

ولن تظن -أيها القارئ- بأنَّ القصد من هذه الكلمات قد نفذَ بأي شكل من الأشكال في عقل هويش، بل إنّه شرع يسعى بشكل ساذج صوبَ السيجار، حتى فقد توازنه وأخذَ يتقدم بخطىً عشوائية إلى أن باتَ في متناول يد ديفيز.

- والآن، امشِ بشكل مستقيم، قال القبطان ممسكًا بهويش، وإلا سأعرفُ كيف أتصرف معك.

- أخذَ مني سيجاري، جاءهُ رد هويش.

ولوهلة، فقد القبطان صوابهُ، وثارت ثائرة غضبه الذي لطالما كبتهُ، فأحكم وثاقه حول هويش، وأمسكهُ من ياقة معطفه، وأخذَ يدفعه أمامهُ صوب طرف رصيف الميناء، حتى رماهُ أرضًا وسقط منكبًا على وجهه بقسوة ووحشية.

- ابحثْ عن سيجاركَ إذن أيها الخنزير، قال القبطان، وانتبهَ إلى وقعِ أصواتٍ بعيدة على متن الفارالوان، ثم أصوات حركة قريبة على متن سفينة فارالون، ثم غدتْ بعيدة مرة أخرى، وسرعان ما تناهى إلى أذنهِ صوت مجاديف تمَّ رميها في البحيرة. وفي الوقت ذاته ظهر هيريك من جانب قريب، وأخذَ يمشي الهوينى فاتر الهمة. ثم مال على جسد هويش الهزيل المعفر في التراب، والذي بدا أنّه فاقدٌ للوعي أسفل قاعدة تمثال السفينة.

- أهو ميت؟ سأل هيريك.

- كلا، ليس ميتًا، أجابَ ديفز

- وماذا عن آتووتر؟ سألَ هيريك.

- اخرسْ، إن لم تصمت سوف أشبعك ضربًا.

- أخالكَ قادرًا على فعل ذلك، وقسمًا بالرب، سأجعلكَ تفعل ذلك! ليس بوسعي تحمل المزيد من هرائك.

ووفقًا لذلك، لزما مكانيهما وهما ينتظران في سكون تام، إلى أن ارتطم القارب بالنهاية البعيدة للرصيف البحري. حينها، استدارا صوب هويش، وقام أحدهما برفعه من كتفيهِ والآخر من كعبيهِ، وحملاه وهما يجتازان معبر السفينة حتى ألقياه سريعًا، في قاع السفينة.

وفي طريق خروجهما، سمعاه وهو يهذر ويتذمر مغمغمًا لفقدانه تلك السيجارة. وبعد أن انتهيا من أمرهِ وتركاه جانبًا لغفوتهِ مثله مثل أية حمولة مركونة في ممر ضيق، فإنَّ آخر عبارة تمكّنا من سماعه يقولها: آتوور رجنن ممزز والتي بوسع الضليع بتفسير حديث السكارى أن يفهمها على هذا النحو: آتووتر رجلٌ مميز.

وبهذا القدر من السذاجة في هذه الروح العظيمة، نبعتْ تلك الكلمات كنتيجة لمغامرات ذلك المساء.

مضى القبطان يتمشى هائمًا في وسط السفينة ترافقهُ نوبات غضب بين لحظة وأخرى. أما هيريك فقد اتكأ بيده على درابزون الكَوْثَل، في حين تفرَّق الطاقم، وانصرف كلٌّ منهم إلى عمله.

كانت السفينة تسير بحركة هادئة كما يُهزُّ مهد الطفل، وأحيانًا مثل طير مغرد يشق طريقه بشق الأنفس. وعلى الساحل عبر صفّ من أشجار النخيل، ما زال بإمكانهم رؤية منزل آتووتر يشعُّ بمصابيح عديدة، وعلى وتيرة واحدة.

ولم يكن هنالك شيء آخر ماثل للعيان سواء في السماء فوقهم، أو في البحيرة الشاطئية أسفل منهم، سوى النجوم وانعكاساتها. ربما مرَّت دقائق أو ساعات، وهيريك على حاله هناك، محنيًا على الدرابزين، مسرّحًا النظر في مياه البحيرة العظيمة، وينهل من لحظات السلام تلك.

بُرْكةٌ من النجوم قال لنفسه وهو يفكر، عندما وُضِعتْ يدٌ على كتفهِ.

- هيريك، إنني، ظللتُ أتنصل من مشاكلي، قال القبطان.

وهنا، نفذ إلى روح الرجل الصغير إحساسٌ بالضيق، إلى درجة أنهُ لم يرد على القبطان ولم يلتفت إليه حتى.

- أعتقدُ أنني تحدثتُ إليك بفظاظة نوعًا ما عندما كنّا على الساحل، كل ما في الأمر هو أنني كنتُ غاضبًا للغاية، لكن الآن انتهى الأمر وهدأتُ. وأنا وأنتَ علينا أن نطوي ما حصل بيننا، ونفكر بمآل أمورنا.

- لن أفكّر بشيء، أجابهُ هيريك.

- هيَّا يا رجل، هذه ليست معركة، وأنتَ تعرف ذلك حق المعرفة، لا بد أن تتماسك وتساعدني في تصحيح الأمور. إنكَ لن تفكر بأن تخذل رفيقكَ، فهذا ليس من شيمك يا هيريك، أضافَ القبطان بلهجة مفعمة باللطف.

- بلى من شيمي، ردَّ هيريك.

- تعالَ، أرجوك قال القبطان، ثم صمتَ كما لو كان في حيرة من أمرهِ.

- اسمع، فلتحصل على كأس من الشمبانيا، أنا لن أقرّبه من فمي أبدًا، وذلك سيثبتُ لك مدى جديتي في الأمر. لكن بالنسبة لكَ، فسوف يشحن معنوياتك، ويشحذ همتك على الفور أضافَ القبطان.

- أوه.. دعني وشأني، واستدار مبتعدًا، إلا أنَّ القبطان أمسك به من كُم قميصه، فحاول هيريك التملص منه، وانقلب عليه خلال لحظات، كمن تلّبسه الجن!

- اذهبْ إلى الجحيم كما تشاء صرخَ عليه، ثم ابتعد مرة أخرى، وهذه المرة من دون رادع، وتقدَّم إلى حيث يوجد مركب معلق يترنح بمحاذاة السفينة، ويرتطم بها من حينٍ لآخر.

وهنا، أخذ ينظر حوله. فرأى أنَّ زاوية المقصورة هي ما يفصل بينه وبين القبطان. كان كل شيء يسير على ما يرام، لكن لو انتبهَ لهُ أيُّ شخصٍ كان، فلن يصبَّ الأمر في مصلحته، فهبط في الزورق بكامل هدوئه.. ثم، بكامل هدوئه، في المياه المرصعة بالنجوم.

ودونَ أن يشعر، قطع مسافة لا بأس بها وهو يجدّف في ذاك الزورق، وعما قريب سيكون هناك الوقت الكافي للتوقف.

وسرعان ما التمعتْ صدمة الانخراط الكامل لهذه الخطوة الجريئة في ذهنه. وقد مرّت أمامهُ أحداث ذلك اليوم الدنيء في أفاريز محفور بداخلها صور، وحمدَ الرب -كيفما كان - على هذا الباب المفتوح أمامهُ للانتحار، وفي مثل هذه الفترة القصيرة سينتهي من الأمر، وسوف يُنهي هذه الصفقة الجزافية، ويعود -هو - الابن الضال إلى دياره وبيته.

لقد تألَّق أمامهُ عالمٌ في غاية الصفاء والبهجة، وحرّكَ فيه صحوة محددة المعالم على طول طريقه بين المياه، فتبنّى ذلك كطريقٍ لهُ، يسير في إثره. حيثُ سيكون هذا آخرَ أمرٍ دنيوي -ينبغي- أن يمعن النظرَ فيه. وسرعان ما تجسَّمتْ هذه البقعة المتألِّقة أمامهُ على هيئة مدينة لاپواتا (67)، حيث يسير

في محاذاةِ شرفاتها رجالٌ ونساء ذوو سمات خبيثة وحميدة، وهم ينظرون إليه بعين الشفقة المواتية. حيثُ عمد هؤلاء الحضور النابعونَ من رحمِ خياله إلى مواساته، وحيثُ حدَّث نفسه بحديثهم من فرد لفرد، لقد كان حديثًا عن ذاته وعن قدرهِ البائس، ومن مثل رحلاته الخيالية هذهِ، أيقظته لسعة برودة المياه التي بدأت تتفاقم.

لمَ يتحتمُ عليه المماطلة؟ فهنا، حيث يقبع الآن، فليُسدِل الستار، وليسعَ خلف ملاذ أقدس من أن يُذكر، وليرقد بمعيَّة سائر الأعراق والأجيال البشرية في عالم الإغفاءة الأبدية بين القبور. لم يكن الإتيانُ على ذكر ذلكَ هيّنًا بالنسبة لهُ، فكيفَ بالسعي وراءَه؟ فالأمر برمتهِ، لم يكن فيهِ أسرارٌ وخبايا، كل ماعليه فعلهُ هو: أن يردع رغبتهُ بالسير مع تيارات المياه، إن كان يجرؤ على فعل ذلك. أيجرؤ؟ كلا! ليس بمقدوره التوقف، لقد أدركَ الأمر بطرفة عين، لقد أدركَ وجود اختلاف بين جماعته، اختلافٌ مُتَفَقٌ عليه، لا يُقهر، اختلافٌ متشبّثٌ بالحياة وثاقًا بوثاق، عصبًا بعصب، وبعزيمة راسخة لا مثيل لها.

وفي آنٍ واحد، ثمة أمرٌ ما يخبره بأنّه هو وليس هو، وفي الوقت ذاته ثمة أمرٌ يعيش بداخلهِ ومن دون وجوده. كأنْ يوصد الباب في وجهِ ممر صغير في عقله، وأن تكون فكرة رجولية واحدة كافية لفتحه على مصراعيهِ. إنه الشعور بمصيرٍ شكلّي لا يمكن تفاديه بأية طريقة، كما الجاذبية. فعبر كل تفصيلة من تفاصيلِ جسد أي إنسان، ثمة شعور يخامرهُ في بعض الأحيان، بهبّة رياح لا تصبُّ في مصلحتهِ بالكامل، فيثور عقله، وفي وضع آخر، يهزأ بهِ ويحمله إلى حيث لا يرغب. والآن، فإنَّ ذلك الشعور وصلَ إلى هيريك بسلطة الإلهام والتجلي، إلا أنّهُ لم يكن هناك مفرٌ محتملٌ أمامهُ، فالباب المفتوح أضحى موصدًا في وجهه المترع بالفزع، ولا بدَّ له من العودة إلى عالمهِ ومواصلة حياته بين البشر دونما أوهام وتغييب، ويتعيَّن عليه أن يتهادى حاملًا عبء مسؤوليّتهِ وهوانه حتى النهاية، إلى أن يغسل خطيئتهُ، بضربة حظ رؤوفة، أو على يد جلاّدٍ أوفر رحمة وشفقة .

ثمة أُناسٌ يجرؤون على فعل الانتحار، وثمة أُناس لا يجرؤون على فعل ذلك. وهيريك كان من الصنف الثاني الذين لا يجرؤون. وربما لفترة من الوقت، ظلت تعصف في ذهنه معاناة هذه الحقيقة التي تلاها يقينٌ متأصلٌ قابضٌ للصدر. وبسهولة لا تُصدق، أذعنَ للحقائق الماثلة أمامهُ، استدارَ وجدَّف في محاولة منه للوصول إلى الضفة.

ثمة شجاعة في قرارهِ لم يدرك ثمنها، لأنَّ لؤم جُبنِهِ من كل شيء كان قد تملّكهُ بكل ما في الكلمة من معنى. ومثل هبّة نسيم مباغت على وجهه، ثمة تيار شديد يستهدفه، فأخذَ يتبارى معه بكل جهدهِ متبرمًا وبلا همة ولكن، بطابع

جوهري، مصححًا التقدم الذي يحرزه في ذلك الوقت بمشقة، بِجوار الحدود المتاخمة للنخيل المُطلّ على البحيرة.

وحالما راودتهُ لحظة أمل، سمعَ أصواتَ اندفاع ما يشبه صوت أسماكَ ضخمة صوب مركز البحيرة إلى الجنوب منه. وممَّا لا ريبَ فيه أنها أسماك القرش! فلبثَ لبرهة مترددًا، يضرب المياه بحذر شديد. أو ليسَت هذهِ يد الجلّاد التي مَنّى النفس بها؟ غير أنَّ أصوات الاندفاع تبددت، واستحالت إلى صمت أطبقَ على المكان مرة أخرى، وواصلَ هيريك طريقه باتجاه الضفة، والغضب العارمُ يعتمل في داخله على عادتهِ.

كان لينتظر سمكَ القرش، لكن! لو أنه سمعَ وقع اندفاعه عبر البحيرة قاصدًا إياه.. قد يبصق على نفسه، بابتسامة مأساوية تعلو وجهه.

وحوالي الثالثة صباحًا، وبتظافر قوته الجسمانية مع يدهِ اليمنى وموجة التيارات والحظ وصلَ هيريك إلى الضفة المتاخمة للساحل الذي يطل عليه منزل آتووتر. وهناك جلس، وهو يتطلع إلى عالمٍ خالٍ من أي بصيصٍ للأمل.

فثوبُ الغوص السيئ ذاك -الذي كان يُذكّره بالتكبر والخيلاء- كان مهترئًا للأسف، فبحكاية الانتحار الخيالية تلك، والملاذ المتاح له على الدوام، كان حتى ذلك الحين يضلل نفسه بها، ويأنس بها في محن الحياة. وانظروا! حتى تلك أيضًا كانت مجرد قصة خيالية، تلك أيضًا كانت خرافة.

وبما يترتّب على أفعالهِ من عواقب، رأى نفسه في مواجهة عنيدة طوال حياته: ممدودًا على صليب، ومسمّرًا هناك بمسامير حديدية منحوتة من خوفه. لم يكن ثمة سبيل لذرف الدموع، ولا أن يسلّي نفسه بسرد القصص.

وهنا، فإنَّ الشعور بالامتعاض من نفسه كان على أشد حالاته، لدرجة أنَّ حجة الندم والتبرير لها قد زالتْ، كان مثل رجل منبوذ سقط من فوق عمود، حتى انكسرت كل عظمة في جسده.

فلزمَ مكانه وأخذَ يُسلّم بالقدر، ولم يحاول النهوض، وبدأ الفجر ينقشع على الجانب البعيد من الجزيرة المرجانية، وأشرقت السماء، وصُبغت السحب بألوان رائعة، وزالت ظلال الليل. وفجأة أدرك هيريك أن البحيرة الشاطئية والأشجار ارتدتْ من جديد كسوة ضوء النهار، ورأى ديفيز وهو على متن الفارالون يخمد نور الفانوس، والدخان يتصاعد من السفينة.

وممَّا لاريب فيه، أنَّ ديفز لاحظ وتعرف على هذا الشكل الجاثم عند الساحل، أو لربما وقع في حيرة التعرف إليه بسبب المسافة. فبعدما كان يحملق بانتباه

من تحت يده فترة طويلة، دخل المقصورة وعاد بمنظار غاية في الدقة لطالما استخدمهُ هيريك، والشعور بالخزي يرافقه، فأخفى وجهه بين يديه.

وما الذي أتى بكَ إلى هنا يا سيد هيريك -هاي أو السيد هاي- هيريك؟ جاءه صوت آتووتر، إنَّ نظرتك للحقائق من موقعي الحالي جيدة إلى حد ما، وإنني مستمر في تبيان ذلك. بوسعنا المضي قُدمًا بكل لطف كما نحن، لكن أعتقد أنَّ الأمر سيكون محرجًا وشاقًا عليك في حال كنتَ تفكر باللف والدوران. تعرفُ ذلك

وشيئًا فشيئًا، أخذَ هيريك يقف على قدميه وقلبه يكاد ينخلع من صدره، ومشاعر الانفعال بادية عليه، إلا أنه تمالكَ نفسه وتحكَّم بها. ثم استدارَ وواجهَ أتووتر وفوهة بندقيته مصوبة نحو هيريك.

- لماذا لم أتمكن من القيام بذلك الليلة الماضية؟ أخذَ يفكر مع نفسه.

- حسنًا، لمَ لمْ تُطلق النار؟ سأل هيريك بأعلى صوته الذي طغى عليه الانفعال.

وضع أتووتر بندقيته ببطء تحت ذراعه، ثم حشر يديه في جيوبه.

- أيّة رياح أعادتكَ إلى هنا؟ كرَّر آتووتر سؤاله.

- لا أدري أجابَ هيريك، ثم أضافَ بصوت أعلى أشبه بالصراخ:

- أيمكنك فعل شيء حيال أمري؟

- هل معكَ سلاح؟ إنني أسألك كإجراء شكلي قال اتووتر.

- مسلح؟ كلا.... أوه نعم نعم أنا كذلك قال هيريك، ثم أخرجَ مسدسًا يقطر ماءً، وألقاه على الساحل.

- إنكَ مبلل!

- نعم، إنني كذلك! هل يمكنكَ فعل شيء حيال أمري؟ سألَ هيريك. فأخذَ اتووتر يمعن النظر في وجه هيريك.

- يعتمد الأمر إلى حد كبير على حقيقتك.

- حقيقتي؟ إنني مجرد جبان، أجابَ هيريك.

- لا يوجد الكثير لفعله حيال ذلك. ومع ذلك، فإنَّ الوصف لا يكاد يكون شاملًا.

- أوه، ما الذي يهم في ذلك؟ ها أنا ذا أمامكَ، مثل آنية فخارية محطمة، مثل طبل ممزق لكثرة ما قُرِع عليه. جُلُّ حياتي ضاعت سدىً في البحر، ولم يبق لديَّ شيء أؤمن بوجوده باستثناء هذا الخوف المضطرم بداخلي. لمَ لجأتُ إليكَ لا أدري! إنكَ رجل فظ ذو قلب قاس، مكروه وأنا أكرهك، أو أخالُ أنني أكرهك، لكنك رجل صادق، إنكَ رجل أمين. وها أنا أضعُ نفسي بين يديك بلا حول ولا قوة. ما الذي يجب أن أفعلهُ؟ وإن لم يكن بوسعي فعل أي شيء، فكن رحيمًا بي، وأطلق نحوي رصاصة الرحمة، فلستُ سوى جرو بساق مكسورة!

- لو كنتُ مكانك، كنت سألتقط ذلك المسدس، وأذهب إلى المنزل، وأرتدي بعض الملابس الجافة، قال آتووتر.

- أتعني ذلك حقًا؟ أنتَ تعرف بأنهم ... أقصدُ نحنُ... أولئكَ.. لكنكَ على علم بكل شيء

وأعلمُ ما يكفي...، هيا فلندخل المنزل، أجابَ آتووتر.

- ومن فوق ظهر سفينة الفارالون، رأى القبطان الرجلين يسيران سوية تحت ظلال الأيكات الوارفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر:

داوود وجالوت

التفَّ هويش على نفسه منكفئًا عن وهج النهار، وركبتاهُ منكمشتان إلى صدرهِ ووجهه باتجاه المقصورة. أمّا عظامه الواهنة، فبدت في تلك الثياب الخاصة بالمناطق المدارية أكثر وضوحًا وشبهًا بعظام الطيور. أمَّا ديفز الجالس عند الدرابزين وذراعه تحيط بحبل الدعم الرئيسي، فكان ينظر إلى هويش نظرة تعج بالكآبة وهو يتساءل مع نفسه عن نوعية المشورة التي تنطوي عليها هذه الشخصية التافهة. فمنذ أن تخلى عنه هيريك وفرّ إلى عدوه، لم يبقَ معه من الرجال سوى هويش، ليكون له بمثابة المعين والمشاور الحكيم.

طفقَ يفكر في موقفهم بقلب يعتصر من خيبة الأمل. السفينة كانت مسروقة، والمؤن التي أهدروها لسوء إدارته أو لطيشهم وإهمالهم في ذروة نوبات سكرهم أثناء الرحلة، لم تكن كافية لإيصالهم إلى أيّ ميناء. باستثناء العودة إلى پابيت، حيث يكون القصاص بانتظارهم على هيئة دركيّين يعتمرون قبعات غريبة الشكل، وأهوال نوميا البعيدة، وفي ذلك الجانب، لن يكون هناك أية بارقة للأمل. أما هنا على هذه الجزيرة، فبانتظاره تنانين متيقظة يصعب التعامل معها على هيئة آتووتر ورجاله وبندقية وينشستر خاصته، وهم على أتمّ الاستعداد. يحرسون المنزل، ويجوبون حوله، والويل لمن يجرؤ على الاقتراب منه. فماذا عساه أن يفعل غير البقاء في مكانه؟ وأن يذرع سطح السفينة جيئة وذهابًا مكتوف اليدين؟ إلى أن تصل سفينة ترنتيهول ويقعوا على عذر قوي، أو حتى تنتهي المؤونة وتكشر المجاعة عن أنيابها؟ فمن أجل سفينة ترنتيهول كان ديفز على أهبة الاستعداد وكان ليحصّن المقصورة، ويموت هناك دفاعًا عنها، مثل جرذ محشور في شُق جدار! لكن، بالنسبة للسفينة الأخرى؟ رحلة الفارالوان التي أقحم نفسه فيها قبل أسبوعين فحسب بمثل تلك التوقعات الذهبية، أيُعقل لذلك أن يكون نهاية الكابوس؟ أن تتعفن السفينة هنا في هذا المرسى، ويكبو الطاقم ويحتضر عند بالوعات السفينة؟ حتى يبدو كما لو أنَّ أيّة ظروف محفوفة بالمخاطر ستكون أفضل من هذه الحقيقة المروعة. وكما لو كان من الأفضل له رفع مرساته والشروع بالإبحار في مغامرة وربما يهلكون على يد آكلي لحوم البشر في واحدة من أكثر جُزر الپاوموتس غموضًا.

كانت عيناهُ تجوبان الأفق بشكل خاطف بحثًا عن أية بادرة لهبوب الريح، غير أنَّ منافذ الرياح التجارية بدت عقيمة. فبعدما هبَّت بالأمس ولأسابيع ماضية

حتى صار هدير النهر الأزرق يسابق السحب في السماء، أما الآن فقد ساد الصمت، وركد الهواء بأسرهِ.

على الامتداد الفسيح اللامتناهي للجزيرة الذي يحفّ بكلا جانبيه صفٌّ من أشجار النخيل الذهبية والخضراء والفضية، ومع ذلك لم تُلاحظ أيّة حركة ولا حتى من أكثر السعفات علوًا وتمايلًا. غير أنَّ السعفات تدلَّت لتعكس ظلالها على وجه البحيرة الشاطئية كمنظرٍ منحوتٍ من المعدن. ومنذ ذلك الحين، وصفوف النخلات الطويل يعكس حرارة الجو.

لم يكن هناك مفرٌ محتملٌ من كل هذا في ذلك النهار، ولم يكن هناك مفرٌ محتملٌ في الغد. والمؤونة في طريقها إلى النفاد! حينئذٍ، غمرت ديفيز موجة من الحكايات والأساطير التي انطلقت من أعمق أعماق كيانه، أو على أقل تقدير، من ذكريات طفولته وبراءته. هذا الكم الهائل من الحظ السيء كان شيئًا يفوق حدود طاقته، وكانت فرص هذه المتاهة أكثر تفاوتًا بحد ذاتها، حتى بدا كما لو أنَّ الشيطان جزءٌ لا يتجزأ منها! الشيطان؟

وهنا، سمعَ مرة أخرى رنين جرس آتووتر يُقرَع بوضوح، ويصل صداه خارجًا في ظلام الليل حتى يتبدد. كيف لو أنَّ الرب..؟ وسرعان ما انصرفَ بأفكاره نحو آتووتر:

- كان هذا هو بيت القصيد. فلدى آتووتر طعام، وكنز من اللآلئ. فاستحالة فكرة الهروب ممكنة في الوقت الحاضر، والثراء وشيكٌ فيما بعد، وجُلّ هذا الأمر مرتبط بشخص واحد. لا بد أن يتصدوا لآتووتر ويقبضوا عليه، لا بد لهذا الرجل أن يموت!

ثم اتّقدتْ وطغتْ نيران الغضب على ملامح وجهه، وهو يستذكر شخصيته العاجزة التي كانها الليلة الماضية، والكلمات الهازئة المترفعة التي اضطر لتحمل وطأتها بصمت.

الغضب، العار، وحب الحياة، كلها تشير إلى الطريق نفسهِ وتؤدي إلى مبدأ واحد: كيف يصل إليه؟ أكانت لديه القوة الكافية لذلك؟ هل يتعشم بأيّة مساعدة من كتلة العظام الممسوخة الراقد أمام المقصورة؟

استقرَّت عينا ديفز عليه بحرص غريب، كما لو أنه يود أن يسبر أغوار نفسهِ. ثم حرك النائم جسده بجهد ومشقة، واستدار بغتةً، وألقى على ديفز نظرة وامضة. حافظَ ديفز على النظرة الخبيثة النفيسة، أشاحَ هويش بوجهه بعيدًا وجلس منتصبًا.

- يا إلهي، أشعر بصداع شديد، أظنني ثملتُ أكثر من اللازم إلى حد ما في الليلة الماضية، أينَ ذلك الصغير البكّاء هيريك؟

- لقد رحلَ، أجابَ القبطان.

- إلى الساحل؟ صرخ هويش، لقد علمتُ ذلك! وكنتُ سأذهب أيضًا.

- حقًا؟ استعلمَ القبطان

- نعم، أرغبُ في ذلك. لقد انسجمنا مع بعضنا بشكل ممتاز عندما غادرتما أنتَ وهيريك. أليس نبيذه المخلّط هنا؟ إنَّ مذاقه مثل نبيذ سبيرز المعتق في المزارع الإفريقية وخمر الأمونتيلادو الإسباني، أتمنى لو بإمكاني أن أحتسي رشفة منه في الحال، قال هويش الذي أخذَ يتنهد حسرة.

- حسنًا، لن تحصل على المزيد منهُ، وهذا أمر قال ديفز بنبرة خشنة.

- إيبيه! ما خطبكَ ياديفز؟ أتعاني من العطش الشديد بعد ليلة خمار بامتياز؟ حسنًا انظر إليَّ،

- إنني لستُ في مزاج نكِد، بل مرح مثل طائر الكناري، أجابَ هويش.

- نعم، إنكَ مرحٌ، وأنا أشهد على ذلك، كما أنكَ كنتَ مرحًا في الليلة الماضية مثلما رأيتُ. وبفضل ذلك، قمتَ بعرض رائع أيضًا.

- هالووو. ما هذا؟ أي عرض الذي تتحدث عنه؟

- حسنًا، سوف أخبركَ، أجابَ القبطان وهو ينهض ببطء من على الدرابزين.

وأدى كل ما فعلهُ هيريك بالأمس على أتم وجه، مكررًا مرة بعد أخرى مع التشديد والتأكيد، كل النعوت الجارحة التي تفوَّه بها، وكل تفصيلة من التفاصيل السخيفة التي أقدمَ على فعلها، لقد أدى ديفز العرض بطريقته الخاصة، مزهوًا، منتقدًا هويش في موقفه المحرج ذاك بحدة. وبينما يتحدث، كان يلاحق ويصمد في وجه مآسي الهوان. كان عرضًا رائعًا لرجل بسيط عانى من التهكم.

- ما رأيكَ في ذلك؟ قال القبطان حالما انتهى، وهو يحملق في هويش، ودماء الحنق تتفجر في عروقه، ولكنهُ يحادثه بسخرية رغم ذلك.

- سأخبركَ برأيي في ذلك. أعتقدُ بأننا-أنا وأنتَ- بدونا سخيفَين للغاية.

- بالفعل، شخصان بمنتهى التفاهة. بحقّ الرب، أريد ذلك الرجل راكعًا عندي قدمي.

- أهاـ وكيف تحضرهُ هنا؟ قال هويش.

- هنا بيت القصيد، كيفَ نمسك به وهم أربعة ونحن اثنان! رغم أنَّ هناك رجلًا واحدًا بينهم ذا أهمية، وهو آتووتر. تقفَّى أثر آتووتر، وسوف ينفضّ شمل البقية، ويهربون كالفراخ المذعورة.

وذلكَ العجوز هيريك، سيعود وقبعته في يده للحصول على حصة من اللآلئ. لا ياسيدي. يكمن الأمر في كيفية الوصول لآتووتر! ونحن لا نجرؤ حتى على التوجه صوب الساحل، كان ليقتلنا ونحن على متن سفينتنا كالكلاب!

-هل تريدهُ حيًا أم ميتًا؟ سأل هويش.

- أريدُ أن أراهُ ميتًا، أجابَ ديفز.

- آه، حَسنًا! أعتقدُ أنني سأتناول الفطور قال هويش ثم تحول إلى المقصورة، وتبعه القبطان بإصرار وتصميم.

- بماذا تفكر؟

- أوه.. دعني بمفردي. أيمكن ذلك؟ قال هويش وهو يفتح زجاجة شمبانيا ستستمع إلى فكرتي عمَّا قريب، فقط انتظر حتى أروي عطشي فشربَ كأسًا عن آخرهِ، وتصنَّع الإصغاء.

- أصغِ لأزيز فورانها، إنّه يشبه صوت فرقعة القلي في المقلاة أؤكد ذلك. هيا كنْ ودودًا وتناولْ كأسًا معي.

- كلا، أجابَ القبطان بنبرة تشدِّد على رفضه كلا، لن أفعل، ثمة عمل بانتظارنا.

- أسمعتَ من قبل بالقول المأثور الذي يقول: ادفع نقودكَ، وتحمَّل نتائج اختياراتك؟ أنتَ من سيتحمل نتائج قراراته يا صديقي الخبير. يبدو الأمر عبثًا عليّ إلى حد ما لو حاولتُ إفساد الفطور عليك بقصص قديمة!

قضى هويش على ثلاثة أرباع زجاجة الشمبانيا، وأخذَ قضمة جانبية من قطعة بسكويت، والقبطان جالسٌ أمامهُ توّاقٌ لسماع ما بجعبتهِ مثل جواد نفد صبره. ثم انخرطا في مناقشة حادة، فأسند هويش ذراعه على الطاولة، وشرع ينظر في وجه ديفز.

- أنتَ جاهز! قال هويش.

- حسنًا، أخبرني بمَ تفكر؟ أجابَ ديفز، بآهة عميقة.

- كنْ نزيهًا في اللعبة، وأخبرني عن فكرتكَ أولَا، قال هويش.

- المشكلة هي أنَّه ليس بحوزتي أية فكرة أجابَ ديفز، وخاضَ معه حوارًا بلا هدف لفترة من الوقت عن الصعوبات التي تعترض طريقهم، وتفسيرات غير مجدية عن فضيحته وفشله الذريع.

- هل انتهيتَ من حديثك؟ قال هويش.

- سأتوقف عند هذا الحد، أجابَ ديفز.

- حسنًا إذن، ناولْني يدك عبر الطاولة وقُلْ: فليرديني الرب قتيلًا إن لم أساندكَ وأعيدك إلى هنا.

قال ذلكَ وصوته لا يكاد يُسمَع، إلَّا أَنَّهُ أثارَ اضطرابًا في نفس القبطان. بدا وجهه عنوانًا للدهاء والمكر، فنكصَ القبطان عنه، كما لو أنَّهُ يفّر من مصيبة.

- لأيِّ غرض؟

- الحظ، الضمان الحقيقي مطلوب، قال هويش ويدهُ ما تزال ممدودة.

- لا أرى أية فائدة تُرجى من مثل هذا التصرف الصبياني، أجابَ ديفز.

- ناولْني يدك، وردّد تلك الكلمات، وسوف تعرف وجهة نظري وفكرتي عن الموضوع. لن تمد يدكَ، لن تسمع شيئًا مني، قال هويش.

فمضى القبطان بتنفيذ طلب هويش، وأخذ يتنفّس بعجالة وصعوبة وهو يحدج هويشًا بنظرة مغتمة. لكن، ممَّ يخشى؟ لم يكن يدري، لكنّه خشي من ذل ما سيخرج من شفتيه المتيبستين.

- والآن، من بعد إذنكَ لنصف ثانية، سأذهب لإحضار الصغير، قال هويش.

- الصغير؟ وما هذا؟

- شيء دقيق، ينبغي التعامل معه بحرص. سأذهب في هذا الاتجاه أجابَ هويش ثم اختفى بطرفة عين.

وسرعانَ ما عاد مبتسمًا لوحده، وهو يحمل في يده منديلًا حريريًا، وما أن رآه ديفز حتى علْت التجاعيد التافهة جبين ديفز. حينها أخذَ يفكر بما قد يحتويه هذا المنديل؟ ولم يخطر على باله شيءٌ أكثر سرّية من فرد مسدس.

اتَّخذ هويش مكانهُ، وأردف قائلًا:

- الآن، هل أنتَ جريء بما يكفي لتتولى مسؤولية هيريك والزنوج؟ لأنني سأتولى أمر آتووتر.

- كيف؟ صاحَ ديفز لن تستطيع!

- أَمهلني بعض الوقت، ما هي مشكلتنا الأساسية؟ المشكلة الأساسية هي أننا لا نستطيع الوصول إلى الساحل، وسأقترح عليك أمرًا لهذه المسألة الصعبة. ما رأيك أن نتوجَّه صوب الساحل ونحمل معنا راية هدنة؟ هل هذا سيفي بالغرض؟ أم أنَّ آتووتر سيطلق النار علينا في هذه السفينة اللعينة كالكلاب؟

- كلا، لا أخاله سيفعل ذلك!

- ولا أنا، لا أظنّه سيطلق النار أيضًا، وأنا على يقين من ذلك- وآملُ ألا يفعل- إذن يمكنك حينها أن تسير بنا إلى الساحل، الخطوة التالية هي أن نقترب من المسؤول الأول عن الجزيرة، ولأجل ذلك سأجعلكَ تكتب رسالة تقول فيها: إنكَ خجل من مقابلته ووضع عينكَ بعينه، وأنَّ السيد ج.ل. هويش مخوّل بالنيابة عنكَ محملًا بما يبدو أنه ذريعة سهلة، وأنَّ السيد ج.ل. هويش سيتابع المهمة.

ثم صمتَ، مثل شخص أنهى حديثه، إلا أنَّ عينيه ما زالتا تصبّان تركيزها على ديفز.

- كيف؟ سأل ديفز ولماذا؟

- حسنًا، كما تعرف، إنكَ شخصٌ لا يُستهان به، وهو يعلم أنَّ في حوزتك سلاحًا، وبعين واحدة يمكن لأيِّ شخص أن يرى أنكَ لستَ الرجل الذي سيتردد في استخدام سلاحه، لذلك سوف يستبعدك، إنكَ خارج دائرة الشبهات يا ديفيز، لكنّه لن يكون خائفًا مني، إنني مجرد شخص تافهٍ غير مسلح، ولا مزاح بشأن هذا الأمر، وسوف أرفعُ يدي عاليًا تأكيدًا لذلك.

صمتَ هويش لوهلة، ثم استأنفَ حديثه قائلًا:

- إذا تمكنتُ من التسلل، ومن أن أكون على مقربة منه كما نتحدثُ الآن، سيكون أمرًا جيدًا، وأنتَ من مكانك سوف تراقب وتعمل على إعادتي بسرعة، وإن لم أتمكن، سنرحل دون أن نؤذي أحدًا، أفهمت؟

- كلا لم أفهم! لم أستوعب شيئًا مما تقوله، ما الذي تعنيه؟

وصاحَ هويش، باندفاع من حقَّق انتصارًا ساحقًا:

- أعني ما سأفعله بذلك الوحش! سأحضر ذلكَ المتنمر الثرثار عنوةً، وأصنعُ منه أضحوكة، أضحوكة مسلية، كما فعلَ معي، سأنال منه.

- ماذا تقصدُ؟ تساءلَ القبطان بصوت لا يكاد أن يكون مسموعًا.

- أمتأكدٌ أنك تريد أن تعرف؟ سألَ هويش.

نهضَ ديفز من مجلسه، وأخذَ يدور في المقصورة ثم قال بعد عناء: نعم أود أن أعرف.

- عندما تجدُ نفسك في وضع صعب للغاية، ستبذلُ قصارى جهدك للخروج منه. أليس كذلك؟ أقولُ ذلك، لأنني أعرف بأنك ستصدر حكمًا مسبقًا ضد ما يدور في ذهني، حتى إنّه يعدّ مبتذلًا، مبتذلًا وعلى نحو مروّع وفتحَ المنديل الحريري، ونشره أمامهُ كاشفًا عن جرّة بسعةِ أربعِ أونصات خذ، هذا زيت الزاج.

فأخذ القبطان يحملقُ فيه بتوجس.

صمتَ هويش وحمل الجرّة بإحكام، ثم أردفَ يقول:

- هذه المادة سوف تشتعل فيه حتى تحوله إلى عظام ورماد، سوف تضطرم فيه حتى يرتفع منه الدخان وينتشر مثل نيران جهنم، قطرة واحدة منه وحسب على بصرهِ، ولن يعود آتووتر مصدر عائقٍ لك.

- لا، لا بحقّ الربّ صرخَ القبطان مندهشًا.

- حسنًا، اسمعني ياظريف، هذه خطتي أنا كما أظنّ؟ إنني ذاهبٌ إلى ذلك الرجل أعزلَ وبمفردي، وهو مسلّح ببندقية وينشستر، أنا بطول خمسة أقدام، وهو بطول سبعة تقريبًا، وسوف يكون على أتمّ الاستعداد، فهو ليس شخصًا ساذجًا. هذهِ المعركة أشبه بمواجهة داوود وجالوت، أؤكدُ لك. لو أنني طلبتُ منك أن تمضي وتتحمل المسؤولية وتواجه الأمر بنفسك، لم تكن لِتفهم غير أنَّ كل ما طلبتهُ منك هو أن تكون على أهبة الاستعداد، وأن تتعامل مع أولئك الزنوج وتبيدهم، سيكون كل شيء على ما يرام وسترى. علاوة على ذلك؛ فإنَّ أول مَن ستراه يركض في الأرجاء ويعوي بأعلى صوته هو آتووتر.

- لا لا تفعل، لا تكلمني عن ذلك.

- يا لكَ من رجل تافه ومغفل، صرخَ هويش ما الذي تريده بالضبط؟ أردتَ قتلهُ وبالفعل حاولتَ ليلة أمس. أردتَ أن تقتل كل من هناك وحاولتَ. ها أنا

أضع بين يديك كيفية قتلهم. وها أنتَ تثير كل هذه الضجة، بسبب وجود بعض التراكيب الطبية في هذهِ الجرّة.

- أحسبُ ذلك أيضًا، غير أنَّ هذهِ الطريقة لا تبدو مقبولة إلى حد ما.

- إنَّها نتائج العلم، حسبما أظنُّ قال هويش بابتسامة ساخرة على وجهه.

- لا أعلم، أجابَ ديفز وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، وضعتُ حدًا لهذه الأمور، لا يمكنني التورط بأدنى شيء من هذا القبيل، إنّهُ أمر مكروه للغاية.

أعتقد، أنَّ كل ما تقوله من نسج خيالكَ، فعندما تلتقط سلاحًا وحفنة من الرصاص، وتقوم بإفراغه في دماغ أحدهم، فإنَّ ذلك لا يؤخذ في الحسبان؟

- لا أُنكر ذلك، إنّه شيء هنا في أعماق نفسي، إنه غباوة! وأكادُ أجزمُ لك بأنها حماقة مفرطة ولا أزعم غير ذلك، لقد انتهيتُ وحسب من فعل أمور كهذه، ألا يوجد حل آخر؟ قال ديفز.

- ابحثْ بنفسكَ عن حل إذا كنتَ تحسبُني متمسكًا بهذه القضية؛ فلستُ كذلك. فأنا لستُ شخصًا طموحًا، ولا أهدف لأن أكون البطل في هذه القضية. كل ما في الأمر أنني أخبرتك بفكرتي، وإن لم يكن بوسعك تقبّلها، فبحق الرب اقترحْ غيرها، وسوف آخذ على عاتقي تنفيذها.

- لكن، بالنسبة للمخاطرة! صاحَ القبطان.

- إذا سألتَني بصراحة، يمكنني القول إنَّ سبعةَ أشخاص من أصل شخص واحد لا يغتنمون فرصة كهذه، هذه وجهة نظري للموضوع يا ظريف، وأنا مستعدٌ ومعك، هذا ما أنا عليه. معك حتى النهاية.

أخذَ القبطان ينظر إلى هويش الجالس أمامهُ وهو يتبجح بغروره المنذر بالشر، ويتفاخرُ بأنَّه يحظى بالصدارة في مسائل الشر، ودناءة جرأته واستعداده يشعّان منهُ مثلما تشع الشمعة من الفانوس.

وعلى الرغم من أنف ديفز، فإنَّ شعورًا بالرهبة وبقدرٍ من الاحترام قد خامراه وسيطرا عليه، فحتى تلك اللحظة، كان يرى هويشًا في حالة تردد دائم، كسولًا على الدوام، غير عابئ بمَن وبما يدور حوله، ويتذمر بصريح العبارة من أي شيء يفعله. أما الآن، وكأنما بلمسة من عصا ساحر، ها هو ينظر إليه وهو جالسٌ على أهبة الاستعداد، ثابتَ العزم، بوجهٍ وضّاء.

وبحسب ما رأى القبطان، إنّه أثارَ في هويش روحًا شيطانية، فأخذ يتساءل:

- مَن سيُحكم سيطرته على هذه الروح الشريرة، وهو بعزيمة فاترة وروح هرِمة؟

- تأمَّلني قدر ما تشاء، أنا لستُ بهذا القدر من السذاجة كما تحسبني. لستُ خائفًا من آتووتر، لستُ خائفًا منكَ، ولستُ خائفًا من الكلام. إنكَ تريد قتل الناس، وهذا ما ترغب بهِ صراحةً، غير أنكَ تريد أن تقتلهم بمنتهى الرفق، وهذا ما لا يمكن أن يحصل، جريمة القتل تبقى جريمة قتل. وهي ليست أمرًا لطيفًا، وليست هيّنة ولا مطمئنة، وتتطلب رجلًا يجرؤ على ارتكابها. وها هو أمامكَ الرجل المناسب.

- صاحَ هويش القبطان بعزم، ثم صمتَ، وطفقَ يمعن النظر في هويش بجبين متغضن.

- حسنًا، انسَ الأمر! ألديكَ أيّ تعليق آخر تُدلي بهِ؟ أهناكَ فرصة أخرى نسعى وراءها؟ قال هويش، فلزمَ القبطان الصمت.

- ها أنتَ ذا إذن أجابَ هويش بلهجة تنّم عن استخفاف، وعادَ ديفز يجوب المكان مرة أخرى.

- يمكنكَ أن تذرع المكان ذهابًا وإيابًا، كمَن ينوب في مهمة حراسة حتى يصطبغ وجهك بالزُرقة من الغم والكمد، ولن تجد حلًا آخر، قال هويش.

أطبقَ الصمت على الأجواء لبرهة، والقبطان مثل رجل انطلقَ متأرجحًا على أرجوحة، يحلق ويرتفع ويهبط فيما بين الحدود القصوى للظن والرفض.

ولكن لحظة نطقَ القبطان ثم صمتَ فجأة، وعاد ليقول:

- أتستطيع؟ أيمكنكَ فعل ذلك؟ إنه.. إنه ليس بالأمر الهيّن.

- إذا اقتربتُ منه بحوالي عشرين قدمًا؛ فسينتهي الأمر على أتمّ وجه. لذا تنبّهْ أجابَ هويش بنبرة مفعمة باليقين.

- كيفَ بإمكانك الجزم بهذا؟ وأخذ القبطان يتحدث بصرخة مكتومة، أيّها الوحش، أظنكَ أقدمتَ على فعلها من قبل.

- أوه. هذه شؤون خاصة، وأنا لستُ ثرثارًا.

وسرعان ما اعترى القبطان شعورٌ بالكراهية والاشمئزاز نحوه، حتى شعر بأنّهُ يسري في جسدهِ وينتفض منه، وكادت صرخة مكبوتة أن تفر من بين شفتيه وتنطلق في الأرجاء، لربما كان سيُلقي بنفسه على جسد هويش في تلك اللحظة، ولربما كان سيرفعه بيد واحدة ويطرحه أرضًا ويمسح بهِ أرضية

المقصورة، في لحظة جنونية من التعذيب المبرح الذي سيبدو شبهَ أخلاقيٍّ. لكنَّ اللحظة ولَّتْ، وخلّفت الرجل في حالة من العجز الشديد، بلا جدوى. كان سقفُ تطلعاته مرتفعًا، فاللآلئ من جهة، والموت جوعًا ومشاعر الخزي والعار من جهة أخرى. حصيلة عشر سنوات من اللآلئ، ترجمها خيال ديفز إلى حياة جديدة وعظيمة له ولعائلته، ومستقَرّ هذه الحياة الجديدة لا بدَّ أن يكون في لندن، فله أسبابه التي عدّها فظيعة وضد الاستقرار في بورتلاند، مين. والتصورات التي استوحاها من مخيّلته كانت مرتبطة بالعادات الإنجليزية.

فقد رأى أولادهُ يسيرون في موكب مدرسي يرتدون ثيابًا، ورأى مرشدًا ينظّم مسيرتهم ويقرأ في كتاب عظيم وهو يمشي، وتخيَّل أنّهُ أقام في قصرٍ شبه منفصل، وعلى بوابات القصر محفورٌ اسمه روزمور، وأنّه جالس في كرسي في حديقتهِ على ممشى مفروش بالحصى، وبدا وكأنَّه يدخّن سيجارًا ويرتدي ثوبًا من الحرير يحيط بعروته المطرزة شريط أزرق، منتصرًا على نفسه وعلى الظروف التي خاض في غمرتها، وعلى شرّ المصرفيين.

ورأى أيضًا، صالة الاستقبال ذات الستائر الحمراء والأصداف على رفّ الموقد، وفي ظل ذلك التضارب الرائع في تخيُّله، أنّه يمازج خليطًا من المشروبات الكحولية على طاولة مصنوعة من شجر الماهوغني قبل أن يخلد إلى النوم.

في غضونِ ذلك، اهتزّت الفارالون، وأصدرت حركة تافهة ولا يمكن وصفها -حتى بالنسبة لسفينة راسية وفي أجواء هادئة للغاية- تذكّر المرء بتحرّك السوائل. وهكذا أيقظتهُ تلك الهزة من أحلامهِ، وأعادتهُ مرة أخرى إلى أرض الواقع تحت سقف المقصورة حيث الضياء الشديد لأشعة الشمس، تحيط بها من كل جانب كاشفةً حتى عن الشروخ في تلك الغرفة. وحيثُ هويش الذي بدا بوضعية متهللة في انتظار قرار القبطان.

ومرة أخرى، شرعَ يجوب الغرفة متفكرًا، كان في قرارة نفسهِ يصبو إلى تحقيق هذه الأحلام، مثل جواد يصهل توّاقًا من أجل شربة ماء. أخذت شهوة رؤاه وأحلامه تتأجج في أعماق نفسه، وكانت العقبة الوحيدة بينه وبين أحلامه هي آتووتر، الذي أهانهُ من البداية.

ثم آثرَ أن يمنح هيريك حصّة كاملة من اللآلئ، أصرّ عليها. فَاعترض هويش على ذلك، إلا أنه، ضربَ اعتراض هويش عرض الحائط، وأشاد بنفسه إلى أقصى حد. لم يكن ليستخدم زيت الزاج بنفسه، أكان هو القيِّم على هويش؟ لقد كان سؤالًا مؤسفًا يطرحه على نفسه، ولكن في نهاية المطاف، عاد إليه مشهد الأولاد مرة أخرى في موكب مدرسي وهم يرتدون ثيابًا بحسب

اعتقادهِ، أنيقة وفاخرة منذ زمن بعيد. وفي الوقت نفسه، عاد إليه مشهد الخزي الذي لا مثيل له من أثر الأمسية الماضية، وأخذ يعتمل في ذهنه.

- افعلْ مايحلو لك قال القبطان بصوت أجش.

- علمتُ أنكَ سوف تستجمع شجاعتك، والآن بالنسبة للرسالة، فهناك ورق وأقلام وحبر. اجلسْ، وسأملي عليك ما تكتبه.

جلسَ القبطان بلا حول ولا قوة، أمسك قلمًا، وأخذ ينظر لبرهة إلى الورقة، ثم صوب هويش. حلَّقت بهِ الأرجوحة – مرة أخرى- في الاتجاه المعاكس، وحطَّت غشاوة على عينيه.

- إنّهُ عملٌ مروّع قالَ القبطان، ورعدة شديدة تسير في كتفيه.

- إنما هي البداية بلا شك، اغمسْ فرشاة قلبك في الحبر وهذا كل ما في الأمر. اكتب: إلى السيد ويليام جون آتووتر المحترم قال هويش، وهو يملي على ديفز الكلمات.

- وما أدراكَ بأنَّ اسمه ويليام جون؟ سألَ القبطان.

- رأيتهُ على صندوق التعبئة، أفهمتَ ذلك؟

- كلا. غير أنَّ هناك أمرًا آخر، ماذا يجب أن نكتب؟ سأل ديفز.

- اوه يا إلهي! صرخَ هويش باستياء شديد أيّ نوعٍ من الرجال أنت؟ ماذا تلقِّب نفسك؟ أنا من سيخبرك بما تكتبه! إنهُ خطابي أنا، لو أنكَ فقط تتنازل قليلًا وتقوم بكتابته" إلى السيد ويليام جون آتووتر المحترم!" كرَّر هويش مرة أخرى.

وفي نهاية المطاف، شرعَ القبطان بتحريك قلمهِ مترددًا، ومضى يُملي الكلام:

- السيد ويليام جون آتووتر المبجَّل:

"بمشاعرٍ يغمرها الخجل والأسف العميق التي أعربها لكَ، بعد أحداث الليلة الماضية المحرجة. غادر رفيقنا السيد هيريك السفينة، وسينقل لكم دون شك طبيعة آمالنا، ومن نافِلة القول إنَّ هذه الآمال لم تعد ممكنةً، فقد أشهرَ القدر سيفه في وجوهنا، وها نحن نُطرق برؤوسنا تسليمًا له. وإذ أدركُ جيدًا الظنون المبررة التي تنتابي، فإنني لا أجرؤ على التماس صنيعٍ بإجراء مقابلة لي معكم، ولكن من أجل وضع حد لحالة لا بدَّ أن تكون مؤلمة للجميع بنفس القدر، فقد كلّفتُ صديقي وشريكي، السيد ج. ل. هويش، ليضعَ بين يديكم مقترحاتي وعروضي، والتي باعتدالها سوف تجد أنها تحظى باهتمامكم. وممَّا

يجدر بي ذكرهُ؛ أنَّ السيد ج. ل. هيش غير مسلح البتة، وأقسمُ بالله! وسيضع يديه فوق رأسه من اللحظة التي سيقتربُ منك فيها.

خادمكَ المخلص،

جون ديفز.

قرأ هويش الرسالة ببهجة المبتدئين السُذَّج، وهو يقهقه مع نفسه بضحكة مكتومة، وأعاد فتحها أكثر من مرة بعد طيّها، لتكرار الشعور بمتعتها. وفي هذه الأثناء كان ديفز جالسًا بلا حراك، متجهمَ الوجه إلى حد كبير. ثم نهضَ بصورة مفاجئة، وبدا وكأنَّه يهم بالمغادرة.

- كلا صاحَ القبطان، كلا! هذا مستحيل، إنهُ أمر غير معقول ومبالغ فيه. وسيكون لعنة أبدية، والرب لن يغفر ذلك أبدًا!

- حسنًا.. ومن طلبَ منهُ أن يغفر؟ صاح هويش بصوت يرتعش من الغضب لقد كنتَ ملعونًا لسنوات بسبب حارسة البحر، وقلتَ ذلك بنفسك. حسنًا، فليصبَّ لعنته عليك لسبب آخر، وأغلِقْ فمك.

فنظر القبطان إليهِ على نحو غامض، وأخذَ يناشده:

- كلا.. كلا يا رجل، لا تفعل ذلك!

- اسمعني جيدًا، ها أنا أمنحكَ إنذارا نهائيًا. امضِ، أو ابقَ حيث أنتَ ليس لديَّ مانع. بالنسبة لي، فأنا ماضٍ لرؤية هذا الرجل ورش عينيه بهذا الحمض. إن كنتَ تنوي البقاء سأذهب وحدي، وعلى الأرجح سأتلقى ضربة من الزنوج على رأسي، لكن هناك شيء واحد مؤكد وهو أنني لن أظلَّ هنا لأستمع للمزيد من هرائك وتذمُّرك. خذ الأمور بسهولة.

سلَّم القبطان بذلك بلمح البصر، فالذاكرة أعادتْ له أصواتًا وهمية، في مراكبه، شيئًا مشابهًا لشيء قالهُ ذات مرة لـ هيريك منذ سنوات مضت.

- والآن، أعطِني مسدسك، يجب أن أتفحص السلاح جيدًا. مكان لسِتِّ رصاصاتٍ، هذا جيد، انتبه لئلا تضيّعها سدىً.

ومثلُ شخص يراوده كابوس، وضعَ القبطان مسدسه على الطاولة. مسحَ هويش خراطيش السلاح وزيَّتها.

كان الوقتُ قرابة الظهيرة، لم يكن هناك نسمة ريح واحدة، وكانت حرارة الجو لا تكاد تُحتَمل حينما صعد الرجلان إلى سطح السفينة، وجعلا الزورق مأهولًا، ومرّا الواحد تلو الآخر إلى المقدمة الخالية منه. ثم علّقا قميصًا أبيض

اللون في طرف مجداف ليكون بمثابة راية هدنة، وبتعليماتِ الرجلين، جدَّفا ببطء شديد، ليمنحوه فرصة أفضل ليتمَّ ملاحظتهُ. تراءتِ الجزيرة أمامَ أنظارهم مثل مكان يشتعل، حيثُ الشمس المستقرة في كبد السماء، ترسل أشعّتها وتضيء وجه البحيرة بلونٍ نحاسي فيَّاض على مساحاتٍ متفرقة وصغيرة، حتى تبدو للمُشاهد بأنَّها تتقافز على وجه البحيرة، وتنفذ إلى أعماق المقل.

ومن بين الرمال والبحر، وحتى من الزورق، ارتفعَ نورٌ ذو وهجٍ شديد، وبما أنهم لم يتمكنوا من النظر إلا من بين رموش مطبقة، بدا أنَّ فرط الضوء يستحيل إلى ظلمة تنبئ بالشر، تضاهي في عتمتها سحابة رعدية قبل أن تنفلق.

لقد انخرطَ القبطان في هذه المهمة لأسباب كثيرة، كان آخرها الرغبة في نجاحها. فالخرافات تحكم جُلَّ الناس ذوي الطباع الخشنة والجهَلة نوعًا ما مثل طباع ديفز، وتسيطر عليهم بكل مافي الكلمة من معنى، كان شخصية مستعدة لجريمة قتل، بيْدَ أنَّ فزعهُ من هذا الحمض الموجود في الزجاجة يفوق التصور، وبدا له وكأنه ينفصل عن آخر الخيوط التي تربطه بالله. حملهُ الزورق صوب النقمة ونحوَ اللعنات، ونبعت معاناته من أعمق أعماقه؛ لكونه واصلَ مسيرته بكامل موافقته وبلا مقاومة، وودَّع بصمت مطبق، شخصيته القديمة الطيبة، وتوسُّمه الخير منها.

جلسَ هويش بجانبه، بروح معنوية عالية، غير أنّها لم تكن حقيقية. لربما بروح تشابهُ روح أشجع رجل عاشَ على الإطلاق، أو مثل جسارة ابن عرس، لا بد أنّهُ ما زال يطمئن نفسه بنبرات صوته، لا بد أن يقوم بدوره إلى حدٍ مبالغ فيه، لا بد أن ينال من غريمهِ بطريقة تفوقهُ عنفًا وقسوة، وأن يهينَ كلَ من كان محترمًا وموقرًا، وأن يواجهَ كلَّ من كان عظيمًا ومهوّلًا، كنوع من رهان متهور عقدهُ مع نفسه.

- يا إلهي! يا لهُ من نهار مشمس! الطقس حار للغاية. إنه يوم مناسب للمرء ليتناول فيه عصيدة، لكن أتعرف؟ لا بدَّ أنه شعور غريب أن تنالَ عقابك في يوم كهذا. عن نفسي، فإنني أُحبِّذ أن ينالوا مني في صباح شديد البرودة، أليس كذلك؟ ثم أخذَ ينشد: ها نحن ذا ندور، حول شجيرة التوت، في صباح صقيعي بارد وعاد يتحدث، لأصدقكَ القول؟ لم أفكر بهذه الأنشودة منذ عشر سنوات، كنتُ أغنّيها في مدرسة أطفال في حي هاكني ويك (68) وعادَ للغناء مجددًا، هذه الطريقة التي ينجز بها حارس النزلّ أعمالهُ، حارس النزلّ يؤدي أعمالهُ بهذه الطريقة ثم أردفَ قائلًا:

- هراء لا يجدي نفعًا، كيف حالكَ الآن؟ ما هي توقعاتك لوضعكَ المقبل؟ هل أنتَ مولعٌ بمناظر حفلات الشاي؟ أم بقضايا مباريات الغولف القديمة الجميلة؟

-أوه! اصمتْ، أجابَ القبطان.

- لن أصمتَ، أودُّ أن أعرف، فالأمر متعلق بميدان التدابير الملموسة بالنسبة لي ولكَ يا بنيّ، إذا أخفقنا، فسوف نخسر المعركة سويًّا. ولربما سنُلاحقُ كلانا ونُضرَبْ حتى نُطرَحُ أرضًا خلال الدقائق العشر القادمة، وسيكون الأمر أكثر مرحًا، لو أنكَ عبرتَ البحر صوب الضفة الأخرى، ووصلتَ بروح مرحة وبوجه باسم. وقد تقابل ملاكًا يحمل تحتَ جناحه جرائد تضم إعلانات إغرائية، فتقول له: مرحبًا، سآخذ منها.

وبينما كان هويش يهذُرُ ويتباهى بشكل صلف، ويتظاهر بالشجاعة، كان ديفز يتألم بداخلهِ منغمسًا في الدعاء.

- الدعاء؟ لأجلِ ماذا؟ الله وحدهُ من يعلم. ولكن، من أعماق روحه المضطربة المتناقضة، تدفَّق سيل من الأدعية، أدعية مجمجمة كما هو، قلبيَّة وصريحة كما الموت ويوم الحساب.

- إنَّ الربَّ يراني، أتذكَّر أنني كتبتُ ذلك في كتابي المقدس، أتذكَّر الكتاب المقدس أيضًا، وأتذكّر كل شيء عن ابينا دابو الأحزاب (69). حسنًا يا أيها الربّ قال هويش الذي أخذَ يناجي سماء الظهيرة ستشهد افتتاح زجاجة روم عما قريب، أعدكَ بذلك.

فوثبَ القبطان وصرخ قائلًا:

- لن أسمحَ بالكفر! لا تَجْديفَ في زورقي.

- حسنًا يا قبطان، بالتأكيد. أية نقطة أخرى بهذا الصدد تودُّ اقتراحها؟ التراجع، مانعة الصواعق، شكسبير، الهارمونيكا الزجاجية؟ إنها مكالمة عمومية مراقبة، ضعْ بنسًا واحدة في شق إدخال النقود، وقُل: مرحبًا..ها هم! إنهم هنا صرخ هويش الآن وإلّا فلا! هل سيطلقُ النار علينا؟ قالَ هويش الذي استقامَ واتَّخذ هيئة المستنفر، وأخذَ يتطلع بثبات صوب العدو، لكنَّ القبطان رفع نصف جسدهِ إلى الأعلى، بعينين جاحظتيْن.

- ما ذلكَ؟ سألَ القبطان.

- ماذا تقصد بما ذلك؟ قال هويش.

- أولئكَ.. الأشخاص اللعينونَ.

وبالفعل كان شيئًا غريبًا! حيث ظهرَ هيريك وآتووتر كلاهما، وهما مسلحان ببندقية وينشستر من البستان من وراء تمثال مقدمة السفينة، وعلى كِلا جانبيهما أضاءت الشمس شيئين معدنيين متحركين، كما لو أنهما رأسٌ على جسد بشري، ويستحوذ هذان الشيئان المعدنيّان على منطقة الرأس كتدابير احترازية فيما يبدو. لم يكن هناك سوى رؤوس بلا وجوه واضحة.

بالنسبة لديفز في موضعهِ الأكثر عرضة للخطر ذاك، بدتْ خرافاتهِ كما لو أنها تصبح حقيقة، وبدا وكأنَّ الجحيم على وشك أن يستفرغ كائنات شيطانية من جوفه. لكنَّ هويشًا لم يندهش للحظة.

- أيّها الوحش! خوذ الغواصين! هل ترى ذلك؟ قال هويش.

- إنّهم كذلك أجابَ ديفز، بهمسات لا تكاد تُلفظْ ولكن لماذا؟ أوه فهمتُ! إنهم يستخدمونها كسلاح لحمايتهم.

- ماذا أخبرتك؟ إنّها كالمواجهة بين داوود وجالوت.

وبما أنَّ المواطنيْن كانا قد أعدّا عُدتهما بهذا الغطاء الغريب، فقد انتشرا على كلا الجانبين. ثم توقفا أخيرًا تحت ظلال النخيل، عند أقصى أطراف الموقع. وحتى الآن بعد أن تمَّ تفسير هذا السر، انهمكَ ديفز بشكل حقود وهو يسرح محدّقًا في الشعلة فوق هاماتهم، ونسي تفسير ذلك، ثم تذكّره بابتسامة.

انسحبَ آتووتر مرة أخرى صوب البستان، ونزلَ هيريك الرصيف البحري بمفردهِ، وسلاحه تحت ذراعه. في منتصف الطريق توقفَ، وهتف على أصحاب الزورق:

- ماذا تريدان؟

فأجابهُ هويش وهو يخطو برشاقة على السلالم:

- سأخبرُ السيد آتووتر بما نريد، لا أنت، لأنكَ أدَّيت دور الخائن الذليل. هذهِ رسالة، خذها وسلّمها له.

- أهذا صحيحٌ يا ديفز؟ سأل هيريك.

رفع ديفز ذقنه، وألقى نظرة سريعة على هيريك، بعدها أشاحَ بوجهه بعيدًا، ووفّر عناء الرد.

كانت النظرة مشحونةً بشيء من المشاعر العميقة، وسواء أكانت هذه المشاعر تنّمُ عن الضغينة أم عن الرهبةِ، فإنَّ الأمر تجاوزَ قدرة هيريك على الظن بغير برهان.

- حسنًا، سأعطيهِ الرسالة علَّق هيريك، ورسم علامة بقدميْه على ألواح درجات المرفأ، وأضاف:

- ريثما أعود بالجواب، لا تتحركا خطوة واحدة بعد هذا الخط!

وعادَ هيريك إلى حيث كان آتووتر متكئًا على جذع نخلة، وأعطاهُ الرسالة، وأخذَ آتووتر يتصفح سطورها.

- ما الذي يعنيه هذا؟ سألَ آتووتر بعد أن أتمَّ قراءة الرسالة وأعادها لهيريك، الغدر؟

- أوه.. أظنّ ذلك أجابَ هيريك.

- أخبرهُ أن يأتي، وأن يُبقي يديه مرفوعتين فوق رأسه. للمرء أن يكون مؤمنًا بالقضاء والقدر، ولكن لا أن يقف مكتوف الأيدي بلا فائدة!

وعادَ هيريك أدراجهُ صوب تمثال مقدمة السفينة، كان هويش ينتظره في منتصف الطريق، وديفيز بجانبه.

- إنّهُ يطلب منكَ المجيء يا هويش وأن تحذر، بدون الألاعيب.

صعدَ هويش بخفّة الرصيف البحري، وتوقَّف وجهًا لوجه مع الرجل الشاب.

- أينَ هو؟ قال هويش.

وفوجئ هيريك، بهذا الوجه التافه ذي الخُلق السيئ الماثل أمامه، أن أصبحَ أحمرَ خجلًا بشكلٍ مفاجئ، ثم استحالَ للونهِ الشاحب مجددًا.

- أمامكَ مباشرة، أبقِ على يديك فوق رأسك أجابَ هيريك وهو يشير صوب آتووتر.

وانصرفَ هويش عنه، واتجه نحو تمثال مقدمة السفينة، كما لو أنه كان على وشك أن ينكبَّ على قدميه كناية عن تفانيهِ وعباداته. وشوهد وهو يجرُّ نفسًا عميقًا رافعًا ذراعيه.

وعلى غرار العديد من الرجال المشابهين لهباتهِ الجسدية التعيسة، كان لهويش ذراعانِ طويلتانِ وعريضتانِ على نحو غير متناسق، ولا سيّما يديه الضخمتين، حيث بدت جرّة الحمض ذات سعة أربعِ أونصاتٍ لا وجود لها في

تلك القبضة الكبيرة. في اللحظة التالية، أخذ يسير بخطوات متثاقلة قدمًا لتنفيذ مهمته.

في البداية، سارَ هيريك في إثرِ هويش، ثم أفزعتهُ جلبة خطواتٍ صادرةٍ من وراء ظهرهِ. فالتفتَ ليجد ديفز على مقربة من تمثال مقدمة السفينة. ثم أخذَ يتوجه نحو ديفز فاغرًا فاهُ وهو منكمشٌ من الخوف، كما يمتثل المسحور لسحر الساحر، فجميع الاعتبارات الإنسانية، وحتى اهتمامه القَلِق بحياته الخاصة، ابتلعها شيء واحد لافتٌ للنظر، شيء كريهٌ لاذع.

- توقَّف مكانك صرخَ هيريك، مصوبًا سلاحة نحو ديفز ديفز؟ ما الذي تفعله يارجل؟ أنتَ لن تأتي

توقفَ ديفز حالما سمعَ هيريك، ورمقهُ بنظرة فارغة من أي معنى.

- ألصقْ ظهركَ بذلك التمثال أتسمعني؟ والزمْ مكانك!

فالتقطَ القبطان أنفاسهُ، وعاد أدراجهُ صوب التمثال، وهو يصوّب نظراته نحو هويش بإلحاح.

وفي الطرف الآخر، كان ثمَّة أُكرَة واسعة من الرمل، وإذا جاز التعبير فسحة في غابة بين نخيل الكاكاو تشعُّ فيها شمس الظهيرة بشدة لا تُطاق. وعند الطرف البعيد منها بين ظلالِ إحدى أشجار النخيل، لاحَ القوام الطويل لآتووتر متكئًا على جذع شجرة، أخذَ هويش يتقدم نحوهُ بجهدٍ جهيد، قدماهُ تغوصان في الرمل، ويداه مرفوعتانِ فوق رأسه بمرارة. اكتنفَ وهج الشمس المكان بأسرهِ، وبدت ظلال الأشياء أكثر وضوحًا، وعليهِ بدا ظلّ هويش، أكثر ضآلةً وتقزّمًا. وبالنسبة لرجلٍ مثله، فلم تبد هذه المغامرة التي أقدمَ عليها بنفسه أقل خطورة من جروٍ محاصر في برج حصين.

- توقف عندكَ يا سيد إيوش، هذهِ المسافة ستفي بالغرض وأبقِ يديكَ مرفوعتين للأعلى كفتىً مطيع. ويمكنك أن تطلعني من هناك على كلام القبطان تحدَّث آتووتر.

لعلَّ المسافة بينهما، كما قدَّرها هويش، تقارب الأربعينَ قدمًا، فأخذ يصبُّ اللعنات والشتائم مغمغمًا. فقد كان يجر قدميه جرًا في تلك الرمال المتحركة، وذراعاه تؤلمانه بشدة بسبب بقائهما مرفوعتين على حال واحد، وفي راحة يدهِ اليمنى، تستقر الجرة بأتمّ استعداد. كان قلبهُ يخفق على نحو مضطرب، والكلمات تغص في حنجرته كلما همَّ بالكلام.

- سيد آتووتر، لا أعرفُ ما إذا كان لديك أمٌّ.. قال هويش.

- بالطبع، وقد أجبتك لتكونَ مطمئنًا ومرتاحًا، ومن الآن فصاعدًا - إن كان لي أن أجرؤ على القول- فلا حاجة إلى أن يتكرر ذكرها في خطاباتنا. ولعله ينبغي عليّ أخبارك أنني لستُ منصاعًا لمثيري الشفقة.

- إن بدا لكَ أنني أتعدّى على حرمة مشاعركَ الخاصة، فإنني آسف يا سيدي أجاب هويش وهو يسرق خطوة صوب آتووتر، ويتظاهر بالتقزّم والذل أمامه. على الأقل ياسيدي، لن تقنعني بأنكَ لست رجلًا نبيلًا وفي غاية التهذيب. إنني أميّز الرجل النبيل من النظرة الأولى. وعلى هذا الأساس، فإنني لا أتردد في إلقاء نفسي تحت ظلال نظرتكَ الرؤوفة. إنه لعملٌ صعبٌ، بلا شك. من الصعب أن تعرف كيف تكبح جماحَ نفسك، وإنه لأمر صعب أن أجيءَ وألتمسَ عطفك لأجل صدقة

- لو أنَّ الأمور قد جرت على خير ما يرام، لكانت الجزيرة كما لو أنها لكَ. يمكنني تفهُّم مشاعرك علَّق آتووتر.

- إنكَ تحكم عليّ بصورة مجحفة يا سيدي، والله وحده من يعلم بذلك، إنَّ الرب يراني حين لا يعرف ما بداخلي أحد لي (70). هذه الآية، خطَّها والدي بيدهِ على الصفحة الأولى من كتابي المقدس.

- أستميحكَ عذرًا ولكن، أتعلم بأنكَ صرتَ قريبًا مني؟ وهذا شيء منافٍ تمامًا لاتفاقنا. لذلكَ أنصحكَ أن تعدّ ثلاث خطوات وتعود إلى الوراء، وأن تلزم مكانك هناك قال آتووتر.

لاحتْ مشاعر خيبة الأمل على ملامح هويش، وسرعان ما جذبت انتباه آتووتر وأخذَ يشك فيه، فعبسَ وجهه وقطّب جبينه، وأخذ يطيل نظره صوب الرجل الحقير الواقف أمامهُ وهو يفكر ويتساءل مع نفسه: لماذا يسترقُ الخطوات ويحاول أن يكون أكثر قربًا؟ بعد ذلك، رفعَ آتووتر بندقيتهُ وصوَّبها باتّجاه هويش وقال:

- أرجو أن تصنع معروفًا، وأن تفتح يدك. افتحْ يدك بأكملها أيها الكلب! ألقي بذلك الشيء الذي تحملهُ أرضًا! أخذ آتووتر يزمجر، ومشاعر الغضب ويقينه بشكوكه يتفاقمان سويةً.

عندئذٍ، قرَّر هويش الذي لم يشأ أن يُغَلبْ، قرر رمي الجرة على آتووتر، وفي اللحظة نفسها ضغط آتووتر على الزناد. لم يكن هناك فرق زمني كبير بين القرارين، إلا أنه كان لصالح الرجل صاحب البندقية، والجرة لم تكن قد تركت يد الموظف بعد، وبطرفة عين، سقط البائس وهو يصارع جحيم سكرات الموت، ويُتقاذف بين ألسنة لهيبها قبل أن يلفظ أنفاسهُ الأخيرة. بعدها، أطلقَ آتووتر رصاصة أخرى أكثر رحمة، أردتْهُ ميتًا. حصل الأمرُ برّمته في لمح

البصر، قبل أن يستدير هيريك، وقبل أن يُكمل ديفز صرخة الفزع التي أطلقها، كان هويش- العامل اللندني- طريحَ الرمال.

أسرعَ آتووتر نحو الجثة، مالَ على صاحبها وأخذَ يتفحصه، ووقع على العلّة. وما أن أدركَ أنّه يحمل زيت الزاج حتى شحبَ وجهه، واستشاط غضبًا. أمَّا ديفز، فقد تسمَّر في مكانه مشدوهًا! ظهرهُ ملتصق بالتمثال، يداهُ متشبّثتان بهِ، وجسدهُ مائل للأمام من وسطِه. استدارَ آتووتر بتأنٍّ صوب القبطان، ووجَّه بندقيته نحوه.

- ديفز، صاحَ آتووتر بصوت كصوت النفخ في البوق أمنحك دقيقة واحدة لتطلب المغفرة من الرب!

فكَّر ديفز بما قالهُ آتووتر، فتنبَّه ذهنه، وأدركَ ما كان يروم إليه. لم يكن ليحلم بالدفاع عن نفسهِ، ولم يكن ليحلم بسحب سلاحهِ. عوضًا عن ذلك؛ أعدَّ نفسه لمواجهة الموت، بأطراف مرتجفة.

- أظنّني لن أتسبّب بإزعاج الرجل المسن، وبالنظر إلى العمل الذي كنتُ أقوم به، فحرّي بي أن أخرس.

ثارتْ ثائرة آتووتر، وحينها صدرت حركة ضآلة من القبطان المنكوب، فأطلق أتووتر رصاصة عبرتْ فوق منتصف جبهته، وأحدثتْ ثقبًا أسودَ شوَّه بياض تمثال مقدمة السفينة. ثم توقفَ موقتًا للحظة، بدت لديفز مهوّلة، ثم دوَّى صوت البندقية مرة أخرى، وصرَّ صوت الرصاصة شاقًا الريح في الغابة لدرجة أنْ شَعَرَ القبطان بوقع الريح على خدّه. دوَّتْ الطلقة الثالثة على مقربة منه، لامستْ حرارتها طرفًا من أذنه التي بدأت تنزّ دمًا. استقامَ آتووتر بموازة البندقية المعدة للإطلاق، وهو يضحك مثل الهنود الحمر.

أضحتْ اللعبة القاسية التي كان ديفز كالدمية فيها واضحة بالنسبة لهُ، فقد شهد الموت بعينيهِ ثلاثَ مرات، وتجرَّع مرارة كأسهِ. ويبدو أنّهُ سيتجرَّع سبعة أضعافه قبل أن يتم نفيهُ عن هذا العالم. رفع يدهُ فوق رأسه.

- مستعد، صرخَ ديفز سوف أستغلُّ الدقيقة التي منحتَني إيّاها!

- جيد، أجابَ آتووتر.

فأغلقَ القبطان عينيه بإحكام كطفل، وفي النهاية رفعَ يديه بحركة محزنة مثيرة للسخرية.

- يا إلهي! بحقّ يسوع عليك، حبًا بالسيد المسيح اعتنِ بولديَّ، ثم صمتَ لوهلة، وأضاف بعد تردد: بحق المسيح عليك، آمين!

وبشفتينِ ترتعشان خوفًا، فتح عينيهِ وأخذَ ينظر إلى البندقية وقال متوسلًا:

- لكن لا تعذبني لفترة طويلة!

- أهذا كلّ ما تودّ قوله في صلاتك؟ سألَ آتووتر الذي غلبَت على صوته نبرة فريدة.

- هكذا؟ قال آتووتر وهو يضع عقب بندقيته على الأرض أهكذا تطلبُ غفرانك من السماء؟ لأنّهُ بالنسبة لي، اذهبْ، ولا ترتكب المزيد من الآثام، يا أيّها الوالد الآثم، وتذكّر، أنكَ مهما فعلتَ بحق الأبرياء الآخرين من شر، فإنَّ الله سيرده عليك آلافًا مؤلفة.

تقدَّم البائس ديفز إلى الأمام من موضعه القريب من التمثال وهو يسير مترنحًا. لوَّح بيديهِ، وقعَ على ركبيتهِ، ثم سقط مغشيًا عليه.

وعندما استعادَ وعيه مرة أخرى، كان رأسه على ذراع آتووتر، وكان قريبًا للغاية من أحد الرجال الذين يرتدون خوذات الغواصين حاملًا بيدهِ دلو ماء، وآتووتر -الذي حاولَ قتله توًا- يرشُّ وجهه بقطرات منه. وعادت إليه ذكرى تلك الرحلة المروعة للحظة، وأدركَ مرة أخرى أنَّ هويشًا ميتٌ، وبدا له مجددًا، أنّه يترنح على حافة أبدية لم يتبيَّن حقيقتها وسرَّها. فأمسكَ بيديه المرتعشتين الرجل الذي كان ينوي قتلهُ، وخرج صوته كسيرًا مثل صوت طفل في غمرة هذيانه من الحمى، وقال: أوه.. أليس هناك رحمة؟ أو ماذا ينبغي أن أفعل لأنالَ خلاصي؟

- آها! إليكم التائب الحقيقي أجابَ آتووتر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر:

الخاتمة

ذاتَ ظهيرة مشمسة شديدة الحرارة، وطقس مضطرب تصحبهُ رياح شديدة، وبعد خمسة عشر يومًا من وقوع تلك الأحداث، وشهر من تناقلها على ألسن السكان، لرّبما يقع نظرنا على رجلٍ وهو جالسٌ يصلّي على رمال شاطئ البحيرة، حيث اتّخذَ له فسحة تظللها أشجار النخيل، يبتعد بها عن ضجيج هذه المستوطنة. ومن المكان الذي كان يتعبدُ فيه، لم يكن ثمة شيء من صنع يد البشر يُخلّ بهدوء تلك البقعة سوى الفارالون! حيث أخذت السفينة تبتعد عن رصيفها، وراحتْ تتمايل في اتجاه الريح وهي مثبتة بمرساتها على بعد ميلين تقريبًا من وسط البحيرة. هبت الرياح التجارية على نحو عاصف في سائر أنحاء الجزيرة، وراحت أشجار النخيل المتاخمة تصطفق فيما بينها محدثةً صوتًا أشبه بصوت الصفير. فيما أصدرتْ الأشجار الأكثر بعدًا، حفيفًا صاخبًا مماثلًا لصخب المدن الكبيرة. وفي وضعٍ عاصف لمثل هذه الهبَّات، صار أمرًا حتميًا لأيِّ بشريٍّ قاطن يعوزه الإدراكُ أن يرفع من حدة صوتهِ في هذه المستوطنة! واستمر الحال هكذا طيلة اليوم. وبكل همة ونشاط، تهيأ آتووتر بلباس العمل، وبدأ يقدّم يد المساعدة لخمسة من رجال الكاناكا، وهو يقوم بتوجيههم وبحثهم على العمل بصوته المفعم بالحياة وبالمرح. وقد غلبتْ البهجة على أدائهم، حيث بدا وكأنَّ سببًا استثنائيًا مبهجًا قد بثَّ في أرواحهم مثل هذهِ الهمة. بينما أخذَ علَم المملكة المتحدة يرفرف من فوق ساريته في سماء الجزيرة.

إلا أنَّ المتعبّد الجاثم عند الساحل، لزمَ مكانه وهو يصلي ويبتهل بإلحاح غير عابئٍ بأصواتهم. ومن بين صلواتهِ، أخذت نبرة صوته تعلو وتنخفض باطراد. وبتغيِّر مشاعرهِ، كانت ملامح وجهه تشرق مرة بالتقوى، وتشحب مرة أخرى من الرهبة.

ومن بين عينيه المغمضتين، لمحَ زورقًا صغيرًا يتجه صوب الفارالون المهجورة، وسرعان ما بانت له هيئة الراكب، لقد كان هيريك من يدنو منها. وخلال لحظات، رآه وهو يدخل المقصورة، ومن هناك إلى السلوقية، وأخيرًا غاصَ في كوة السفينة الرئيسية. وأعقبَ مرورهُ في أجزاءِ السفينة هذه، لفافة دخان. ثم عاد إلى زورقهِ مرة أخرى، وانصرفَ بجهد عن الفارالون قبل أن تندلع النيران فيها وترتفع مشعشعة. لم يكن الكيروسين بمنأى عن عصف الريح التي أثارت ذلك الحريق الهائل، بل زادت من حدة وطأته.

وفي منتصف رحلة العودة تقريبًا، نظرَ هيريك إلى الوراء، ورأى الفارالون المحاطة بالصواري، تلفُّها ألسنة اللهب كالثوب، والدخان الهائل يسعى خلفه على مد النظر في البحيرة. وحسب تقديراتِ هيريك، فإنَّ المياه ستبتلع السفينة المسروقة في غضون ساعة واحدة. وفيما كان زورقهُ يغذُّ السير في مهب الريح بهمة شديدة، وعيناه منهمكتان بالنظر نحو الفارالون خلفه، وهو يقدِّر مدى تعاظم ألسنة اللهب، وجدَ نفسه محصورًا شمال بقعة النخيل حيث انتبهَ على الفور إلى ديفز خاشعًا في عبادته. فأفلتتْ منه صرخة تعجبٍ ممزوجةً بالسخرية من جهة، وبالامتعاض من جهة أخرى. أمسكَ بمقبض دفةَ الزورق، وأدار قيدومهُ صوب الساحل على بعد عشرينَ قدمًا من المتعبّد المبتهل. نزل من القارب وهو يمسك بالحبل، واقتربَ منه واقفًا فوقه. ومع ذلك مضى القبطان يتلو بلغة بليغة، سيلًا من الصلوات الغامضة، ودونما هوادة.

كان أمرًا مستحيلًا بالنسبة له، أن يسترق السمع لاسترحام ديفز المتعبد وتوسلاته، والتي سمعَ بعضًا منها في غضون ذلك وهو في حالة مزاجية تشوبها مشاعر الشفقة والتهكم من رفيقهِ. ولم يضع يده على كتف القبطان إلا عندما سمعَ اسمهُ يرافق صلوات المتعبد.

عذرًا على المقاطعة، لكنني أريدك أن تلقي نظرة على الفارالون قالَ هيريك.

وثبَ القبطان على قدميه، وهو يلهث شاخصًا بصره.

- سيّد هيريك، لا تُفزع أحدًا بهذه الطريقة مرة ثانية. حقيقةً، يبدو وكأنني فقدتُ رشدي منذ أن ... صمتَ للحظات، ثم أضافَ: على أيّة حال، ماذا قلتَ؟ أوه.. الفارالون وأخذَ ينظر نحو السفينة بفتور.

- نعم، ها هي تشتعل. وعليهِ، قد تخمّن ماهية الخبر، قال هيريك.

- سفينة ترينتي هول، كما أظنّ.

- هي ذاتها، شُوهدت قبل نصف ساعة وهي تقترب بسرعة كبيرة.

- حسنًا، إنها لا تساوي جبلًا من حبّات القهوة، أجابَ القبطان وهو يزفر نفسًا.

- اوه. إنَّ ما تقوله جحود ونكران للجميل!

فأجابهُ القبطان إجابة تنّم عن هدوء وتأمل:

- حسنًا، ربما لا ترى الأمر بالطريقة التي أنظر بها إليه، إنني أفضل البقاء هنا على هذه الجزيرة، فهنا وجدتُ الطمأنينة وعثرتُ على السلام في الإيمان.

نعم، أعتقدُ أنَّ هذه الجزيرة جيدة بما فيه الكفاية لجون ديفز.

- لم أسمع بمثل هذا الهراء من قبل. ماهذا الذي تتفوَّه به؟ كل شيء انتهى على هذا النحو ليصبَّ في صالحك. الفارالون امَّحتْ، والطاقم انحلَّ، وهذا أمر جيد لكَ ولزوجتك وعائلتك يا عزيز آتووتر المدلل التائب!

- أوه يا سيد هيريك! لا تتحدث بهذه الطريقة، وأنتَ تعلم بأنْ لا فرق بيننا عنده. لم لا تصبح فردًا منّا؟ لم لا تأتِ وتركع بين يدي الإله، وتجعل من بقائنا سويًا في هذه البقعة الساحرة أمرًا ممكنًا؟ كل ما عليك فعله أن تقول: يا أيها الرب، جئتكَ مؤمنًا فأعنّني على التخلص من الكفر (71)، وسوف يأخذكَ بالأحضان. لقد كنتُ آثمًا كما ترى، وأُدركُ ماهية الأمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهوامش..

(1) نظارة المونوكول: نظارة أحادية الزجاج يرتديها النبلاء والسادة في الغالب.

(2) بابيت: عاصمة بولينيزيا الفرنسية، التي هي من ضمن أقاليم ما وراء البحار التابعة لفرنسا في المحيط الهادئ.

(3) موريا أو جزيرة إيميو Eimeo: جزيرة مرتفعة من جُزر وندوارد في بولينيزيا الفرنسية، تقع على بعد 17 كم شمال غرب تاهيتي. ويعني اسمها (السحلية الصفراء) بلغة أهلها.

(4) الكوكني Cockney: يُقصد به الشخص المولود على مسافة قريبة من أصوات أجراس كنيسة سانت ماري لو بو، شيبسايد، في ضواحي لندن الشرقية، حيث يتميز سكان تلك المناطق باللهجة الكوكنية، ويعدُّ غالبيتهم من الطبقة العاملة أو الفقيرة في لندن.

(5) پوينت فينوس: شبه جزيرة على الساحل الشمالي لتاهيتي.

(6) عملة السُفْرِن: جنيه إنكليزي ذهبي قديم.

(7) عملة النسر المزدوج: عملة ذهبية اسمية قدرها 20 دولارًا. أُستُخدِمتْ سابقًا في الولايات المتحدة.

(8) عمود نيلسون: نصب تذكاري في ميدان الطرف الأغر في مدينة ويستمنستر بوسط لندن. تمَّ بناؤه بين عامي 1840 و1843 لإحياء ذكرى الأدميرال هوراشيو نيسلون الذي توفيَ في معركة الطرف الأغر عام 1805.

(9) زورق الكَنْوُ Canoe: زورق طويل رفيع وخفيف، يتسع لشخص أو اثنيْنِ.

(10) مَثَلْ يُراد منه الإشارة إلى شخصٍ أو مؤسسة بوضع مالي مضطرب، أو هم غير قادرين على القيام بالتزاماتهم.

(11) الكاناكا Kanaka: اسمٌ يُطلق على مختلف عمال جُزُر المحيط الهادئ الذين يعملون في المستعمرات البريطانية، وقد أطلقه المستعمرون كاسم مهين لأهالي تلك الجُزر. إلا أنه يشير في الأصل إلى سكان هاواي الأصليين الذين يقصدون به أنفسهم كأبناء البلد.

(12) نوع من الموز البرّي يدعى (Musa fehi)، ويُزرع على نطاق واسع في بولينيزيا، ويتميز بساق مثمرة مستقيمة، تحمل ثمارًا غزيرة كبيرة ذات بشرة

برتقالية محمّرة أو صفراء، وهذا النوع لا يُؤكل إلا عندما يُطهى.

(13) مصطلح بحري يشير إلى استخدام مواقيت المناوبات على متن السفن.

(14) رقصة تقليدية عُرِفتْ في سائر أنحاء الجُزُر البريطانية وفي أمريكا الشمالية. رغم أنَّ هناك تضاربًا في الأقوال حول أصلها.

(15) فضلّتُ ترجمتها بشكلها الحرفي كما وردتْ في النص الأصلي؛ كَوْن سكان الجزيرة يتكلمون بلغة إنكليزية ضعيفة، ويصعب عليهم فهمُها، لذلك حاولَ القبطان ديفز نقل غايته إلى الطاقم بلهجة بسيطة. وكما سيلاحظ القُرّاء الكرام في بعض الحوارات الواردة في الرواية.

(16) قصيدة غنائية كتبها الأمريكي جون هوارد باين، ولحّنها الإنكليزي السِرّ هنري بيشوب لحفل أوبرا، تمَّ تقديمها في لندن 1823 لأول مرة. ونالت الأغنية شعبية واسعة في جميع أنحاء الولايات المتحدة، وكانت المفضلة لدى كلٍّ من جنود الاتحاد والكونفدرالية خلال الحرب الأهلية.

(17) جزيرة إيبون المرجانية: جزيرة مرجانية مكونة من 22 دولة جُزرية في المحيط الهادئ.

(18) قصيدة أديلايد للألماني فريدريك فون ماتيسون، من ألحان لودفيغ فان بيتهوفن.

(19) كُتيب بوديتش: كتاب مختصر في علم الملاحة يسترشد به البحارة، أعدَّه عالم الرياضيات والفلك والملاحة الأمريكي ناثانيل بوديتش.

(20) سيمفونية القدر: ألَّفها بيتهوفن بالنغمة الثالثة الصغرى بين عامي 1804 و 1808.

(21) نصٌّ من إنيادة فيرجيل، ترجمتُها عن اللغة الإنكليزية بهذا الشكل: يا لسعادةِ أولئك المحظوظين، الذين يتسنَّى لهم الموت بين أحضان أهلهم.

(22) من قصائد الألماني هاينريش هاينه.

(23) ويُطلق عليه أيضًا تسمية (أرخبيل تواموتو)، وهي سلسلة جُزُر بولينيزية فرنسية تتألف من حوالي 80 جزيرة مرجانية.

(24) إنجيل متّى. إصحاح 16: آية 23.

(25) كاليدونيا: إقليم فرنسي فيما وراء البحار، يقع جنوب غرب المحيط الهادئ، عاصمته نوميا المذكورة في نفس الفقرة، معظم سكانه هم من

الكاناكا.

(26) الميقاتية: (أو الكونومتر) وهو نوع من الساعات البحرية التي تتسم بدرجة عالية من الدقة، ولا سيما النوع الذي يُستخدم لتحديد خط الطول في البحر.

(27) Ned: مصطلح مهين يُستخدم في أسكتلندا للإشارة إلى شخص مجرم أو أحمق. ويُصاغ بمعنى آخر Old Ned أي لحم الخنزير المقدد الذي يُصنع في البيوت، ويستخدمه القبطان هنا للسخرية من هيئة الرجل العجوز الأسود البشرة؛ لكونه أصلعَ أملسَ الرأس على خِلاف عادة ذوي البشرة السوداء المعروفين بشعرهم الصوفي.

(28) ملابس عُمّال مصنوعة من الجينز الأزرق.

(29) الكَوْثَل: أعلى مؤخرة السفينة.

(30) تقدير الموضع الاستدلالي للسفينة: يُعرف بأنه حساب الموضع الحالي للسفينة باستخدام موضع محدد سلفًا، أو نقطة معينة، ويُقدّم هذا الموضع تأسيسًا على السرعة المحددة أو المقدَّرة في الزمن المنقضي وخط سير السفينة.

(31) جرسُ أربعِ الساعات: إشارة إلى بدء أو انتهاء الوقت المحدد لمجموعة مناوبين على متن السفينة.

(32) هوكر: نوع من مراكب الصيد يعمل بالصنارة والخيط بدلًا من شِباك الصيد.

(33) السُلوقية: أعلى مقدم السفينة، وهي عكس الكَوْثَل.

(34) كُونْسِرتينة: آلة موسيقية تُعدُّ ضربًا من الأكورديون.

(35) كرسي بوسن: ويُدعى أيضًا كرسي القارب، وهو كرسي معلَّق يجلس عليه العامل أو البحّار أثناء عمله في مكان مرتفع للقيامِ بطلاءِ أو تنظيف السفينة أو المباني العالية.

(36) مضيق البوابات الذهبية: بحيرة مائية ضيقة عمقها 300 قدم، أسفل جسر يربط المحيط الهادئ غربًا بخليج سان فرانسيسكو شرقًا.

(37) low Island: جُزر مرجانية الأصل.

(38) طَنْف: سقيفة تُبنى فوق باب الدار.

(39) القرِيّة: عمود الشراع في جانبه من أعلاه.

(40) مُخل: عتلة قصيرة لفتح السدادات.

(41) يُشير إلى المشهد الشهير من رواية روبنسون كروزو، ويرمز إلى مشاعر البطل المتضاربة حول احتمالية وجود رفقة بشرية، عندما اكتشفَ وجود بصمات أقدام على الرمال بعد أن قضى فترة طويلة بما يقارب السنتين بمفرده على الجزيرة المذكورة في الرواية.

(42) الصابورة: ثقل يستخدم في سفينة أو منطاد لحفظ التوازن.

(43) كالاو: مدينة في بيرو، تعدُّ مركزًا لأكبر وأهم الموانئ في البلاد.

(44) لازاريت: مكان قرب مقصورة القيادة أو خلفها، يُستخدم لحفظ المؤن.

(45) نفّاج: مصطلح ازدرائي يُطلق على من يفتخر بما ليس عنده ولا فيهِ، أو الذي يقول ما لا يفعل.

(46) جزيرة آرا-را: وتُدعى أيضًا نغانا- نوي، وهي جزيرة مرجانية في أرخبيل تواموتو في بولينيزيا الفرنسية.

(47) بارجة حربية مدمِرة تابعة للبحرية الملكية البريطانية، بناها جون كينغ عام 1803.

(48) يُقصد به حوض من الماء، يستخدمه الكهنة للاغتسال الشعائري بحسب رواية العهد القديم.

(49) كابْل: من وحدات الميل البحري، تقارب حوالي الميلين.

(50) قامة: مقياس لعمق المياه البحرية، ويساوي تقريبًا ستة أقدام.

(51) كَلتْية: تنورة أسكتلندية يرتديها الرجال.

(52) بندقية صيد.

(53) خادم كنيسة، وأحيانًا حافظ غرفة المقدَّسات.

(54) Attwater: *لقب لعائلة تنحدر من الثقافة الأنجلو- سكسونية، التي استقرت في إنجلترا منذ القرن الخامس، وهو أيضًا اسمُ علمٍ مذكَّر ويعني (المقيم عند البحر)، ويستخدمه ديفز هنا للسخرية من آتووتر.*

(55) إشارة إلى جزيرة زاكينثوس اليونانية، التي أشار إليها فيرجيل في أغلب أعماله، وورِدت هنا مثل اختبار لثقافة هيريك من قِبَل آتووتر.

(56) مِصْر: أرض يستقر فيها جماعة من المهاجرين أو المغتربين أو جماعة من الناس في غير أوطانهم.

(57) سِفْر أخبار الأيام: ويدعى أيضًا كتاب الوقائع، وهو عمل نثري عبراني يشكل جزءًا من الكتاب المقدس اليهودي والمسيحي، ويشكّل سِفرين من العهد القديم يتفحَّصان تأريخ إسرائيل من آدم إلى نشاط عزرا ونحميا في الفترة التي تلتْ السَّبي البابلي في القرن السادس عشر قبل الميلاد

(58) جزيرة في المجموعة الشمالية لجُزر كوك في جنوب المحيط الهادئ.

(59) إنجيل لوقا إصحاح 12: آية 20. ويستشهد آتووتر بهذه الآية- كعادته الدينية- ليشير إلى ضرورة عيش الإنسان لحظتهُ، وأن يتنعَّم بما وهبهُ الله من خيرات، ولكن ألَّا ينسى الله في غمرة هذه النعم وينشغل بنفسهِ.

(60) التجريبيون: أو الفلسفة الأمبريقية وهو توجُّه فلسفي يؤمن بأنَّ كامل المعرفة الإنسانية تستمد شرعيَّتها بشكل رئيس عن طريق الحواس والخبرة. وهي تنكر وجود أيَّة أفكار فطرية عند الإنسان، أو أيَّة معرفة سابقة للخبرة العلمية. أبرز روّاد هذا التوجُّه هم: توما الاكويني، أرسطو، وروجر بيكون.

(61) أصوات أجراس پو: يُقصد بها أجراس كنيسة القديسة ماري لو پو، التي تقع في الطرف الشرقي من لندن. وهذا دليل آخر على عِرق هويش الكوكني.

(62) مؤسسة بريطانية مسيحية مقرُّها لندن - إنجلترا. تأسستْ عام 1855، تقوم بتثقيف الأطفال والشباب حول خطورة تعاطي المخدرات والكحول، وتروّج للامتناع عن مثل هذه الأمور لمدى الحياة. ذكرها هويش من باب الاستهزاء، أثناء مناقشتهم التي غلبَ عليها طابعٌ دينيٌّ.

(63) المعروف بالنبي سليمان في الإسلام والقرآن الكريم.

(64) بوق المحّار: آلة هوائية مصنوعة من أصداف المحار والحلزون، تُستعمل لاستدعاء الناس لمناسبة أو لحدث مهمّ. وهي شائعة في جزر كثيرة، منها: جُزر المحيط الهادئ، وأمريكا الجنوبية، وجنوب آسيا.

(65) تقليد خريفي شائع في احتفالات الهالوين وحفلات القديسين، جذورهُ متأصلة بالحب والرومانسية أكثر من أي مقصد آخر. تلعبُها السيدات الشابات برفقةِ عشاقهنَّ المرتقبين، ومن تفاصيلها أن يتم تخصيص تفاحة لكل شريك، ثم تحاول السيدة الشابة (الملتقِطة) أن تقضم التفاحة التي تحمل اسم الشاب الذي تريده، وينبغي عليها النجاح من المحاولة الأولى؛ ليكون حبَّها وقدرَها المكتوب.

(66) حيٌّ في الجانب الشرقي من لندن، معروف بكونه واحدًا من أفقر المناطق وسط لندن.

(67) مدينة لاپواتا الطيارة المذكورة في رحلات غوليفر لجوناثان سويفت.

(68) حيٌّ في الضواحي الشرقية من لندن.

(69) أبو العهود والصفات النبيلة: اسمٌ يُطلق على أربعةِ رجالٍ مختلفين في رواية العهد القديم.

(70) سِفر التكوين إصحاح 16: آية 13.

(71) إنجيل مرقس إصحاح 9: آية 13.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..